



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغلام



عليه
صلى
عليه
وآله
وسلم

www. **Ghaemiyeh** .com
www. **Ghaemiyeh** .org
www. **Ghaemiyeh** .net
www. **Ghaemiyeh** .ir

مَجْلَدُ الْبَيْتِ الْكَبِيرِ الْجَدِيدِ

فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ

١٩٩٠ - ٢٠١٠

عَلَمٌ

بِإِسْمِ عَبْدِ الْكَلِيمِ

إِسْرَائِيل
مَجْلَدُ الْبَيْتِ الْكَبِيرِ الْجَدِيدِ
فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ
١٩٩٠ - ٢٠١٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحولات المكان الحسيني في الشعر العراقي: 1990 2010

كاتب:

شذى عبد الكاظم الحلبي

نشرت في الطباعة:

العتبة الحسينية المقدسة

رقمي الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

5	الفهرس
8	تحولات المكان الحسينى فى الشعر العراقى: 1990 2010
8	اشارة
8	هوية الكتاب
14	الإهداء
15	مقدمة اللجنة العلمية
18	المقدمة
21	التمهيد أهمية المكان فى النص الأدبى
21	اشارة
23	مفهوم المكان
23	اشارة
26	المكان لغةً
27	المكان اصطلاحاً
30	المكان عند الشعراء العرب
32	المكان عند الشعراء المحدثين
38	تحولات شكل المكان من طارد الى جاذب
43	الفصل الأول: كربلاء مكان طارد
43	اشارة
46	اسم (كربلاء).. الأصل والاشتقاق
51	معانى كربلاء
58	المبحث الأول: أرض كربلاء وقداسة تُربتها عند الشعراء
66	المبحث الثانى: تحولات المكان الحسينى (الكربلائى) فى الشعر العراقى
101	الفصل الثانى: كربلاء المكان الحسينى الجاذب (المكان المقدس)

101	اشارة
103	مدخل
112	المبحث الأول: كربلاء روضة من رياض الجنة ..
120	المبحث الثاني: كربلاء قبلة أنظار العالم ..
128	المبحث الثالث: كربلاء مكان حسيني مزدهر ..
134	المبحث الرابع: المكان الحسيني رمزاً ثورياً ..
143	الفصل الثالث: تحولات المكان الحسيني بعد واقعة الطف ..
143	اشارة
148	المبحث الأول: الدخول الى الكوفة
148	الكوفة اسمها وموقعها
150	سكان الكوفة الأوائل ..
154	المبحث الثاني: سببايا آل محمد صلى الله عليه وآله في الكوفة ..
154	اشارة
155	الدخول إلى الكوفة ..
164	المبحث الثالث: الشام مكان حسيني طارد ..
164	وصول سببايا الامام الحسين عليه السلام إلى الشام
167	قصر يزيد (الشام مكان طارد) ..
169	خربة الشام مكان طارد ..
185	الفصل الرابع: التشكيل البصري في تحولات المكان في الشعر الحسيني ..
185	اشارة
187	مدخل
192	المبحث الأول: الشكل الشعري المقفى ..
192	اشارة
194	عمود الشعر لغةً واصطلاحاً ..
206	المبحث الثاني: الشكل الشعري الحر (قصيدة التفعيلة) ..

216المبحث الثالث: الشكل الشعري (قصيدة النثر) ..

226الخاتمة

229المحتويات

232تعريف مركز

تحولات المكان الحسيني في الشعر العراقي: 1990 2010

اشارة

سرشناسه: شذى عبد الكاظم الحلبي

عنوان و نام پديدآور: تحولات المكان الحسيني في الشعر العراقي: 1990 - 2010 / شذى عبد الكاظم الحلبي

نشر: العتبة الحسينية المقدسة، قسم الشؤون الفكرية والثقافية

محل نشر: كربلاى معلى - عراق 1437

مشخصات ظاهري: 223ص

يادداشت كلي: زبان: عربي

موضوع: الشعر العربي - العراق - امام حسين عليه السلام

موضوع: كربلا - بعد واقعه عاشورا - جاذبه حسيني

ص: 1

هوية الكتاب

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق -- وزارة الثقافة العراقية لسنة 2015-2441

مصدر الفهرسة: IQ-KaPLI ara IQ-KaPLI rda

رقم استدعاء مكتبة الكونجرس: PJ 7842 .H8 H5 2015

المؤلف الشخصي: الحلبي، شذى عبد الكاظم

العنوان: تحولات المكان الحسيني في الشعر العراقي: 1990 2010

بيانات المسؤولية: تأليف شذى عبد الكاظم الحلبي؛ [تقديم السيد محمد علي الحلبي]

بيانات الطبعة: الطبعة الأولى

بيانات النشر: كربلاء: العتبة الحسينية المقدسة قسم الشؤون الفكرية والثقافية. شعبة الدراسات والبحوث الاسلامية وحدة الدراسات التخصصية في الامام الحسين عليه السلام 1437 هـ - 2016 م

الوصف المادي: 223 صفحة

سلسلة النشر: قسم الشؤون الفكرية والثقافية؛ (169)

تبصرة عامة: الاصل أطروحة (دكتوراه). جامعة بغداد

تبصرة بيبليوغرافية: يحتوي على هوامش

موضوع شخصي: الحسين بن علي (عليه السلام) الشهيد، الامام الثالث، 61 هجرياً الشعر.

مصطلح موضوعي: الشعر الديني الاسلامي - تاريخ ونقد.

مصطلح موضوعي: المكان في الشعر العربي - العراق - كربلاء - تاريخ ونقد - القرن 20.

مصطلح موضوعي: واقعة كربلاء، 61 هجرياً - شعر.

مصطلح موضوعي: شعر مذهبي عربي القرن 20.

مصطلح موضوعي: المكان تصورات شعرية.

مصطلح موضوعي جغرافي: كربلاء (العراق) تاريخ

مؤلف اضافي: الحلبي، محمد علي، 1957 -، مقدم.

تمت الفهرسة قبل النشر فى مكتبة العتبة الحسينية المقدسة

ص:2

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَواسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ (3) وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرُوعٌ وَنَخِيلٌ صِهْرٌ نَوَانٌ وَغَيْرُ صِهْرٍ نَوَانٌ يَسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَّضِلُ بَعْضَهَا عَلَى
بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

صدق الله العلي العظيم

الرعد 3-4

ص:5

إلى... النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الأطهار...

إلى... سيد الأحرار، والأرواح التي حلت بفنائهم وأناخت برحله إستنصاراً لنهضته، وتلبية لندائه: "ألا من ناصر ينصرنا.."

فأستميحك عذراً سيدي أبا عبد الله إن شط بي القلم أو قصرت...

اللهم اجعل لي هذا العمل ذخراً أنال به شفاعة نبيك محمد صلى الله عليه وآله وسلم

إلى... إمام زماننا الحجة ابن الحسن المهدي عليه السلام

إلى... مدينة الحسين عليه السلام... كربلاء المقدسة

إلى... نبعي الحنان أمي وخالتي

إلى... إخواني وأخواتي حُبّاً وإعتزازاً

أُهدى ثمرة جهدي هذا

الباحثة

ص:6

لم يُعد المكان في التراث الكربلائي مساحةً جغرافيةً تحدد أبعادها المحصورة بين قياسات مكانية محددة، بل صار المكان في المفهوم الكربلائي معنى شاسعاً لتصورات الجميع الذين يقرأون كربلاء ملحمة الزمان، وقداسة الحدث، وطهارة الواقعة، حتى بات الزمان منداً بالمكان اندكاً لا يكاد يفارقه، وكيف يفارقه والزمان هو مبدع المكان وملحمته، ولم يتوقف الزمن الكربلائي بأحداثه المتشابكة مجرد محطات زمانية يستذكرها المتلقى بقدر ما هي علاقة زمانية وثيقة ترتبط بالمقدس الذي لا ينفك عن مخيلة الجمع، ويستعيد المكان الكربلائي حضوره في كل مناسبة من مناسبات التاريخ ليجد عاشوراء حاضرة في مطاوي صفحاته الموهلة في عمق الوجدان والشعور الذي ارتبط بأحداث الطف حتى وجد المتلقى نفسه يستعيد مجريات الأحداث مرتبطة بكربلاء المكان، وبأحداثها وشخصياتها ومأساتها وكل دقائقها، وإذا كان المتلقى مجبولاً على الرابط الزمانكي في كل تصورات، فإنَّ الشعراء أسيراً لهذا المكان، فالشاعر تغذى أحاسيسه الكربلائية كلما عادت إليه ذكريات كربلاء بمكانها المفعم بذكرات المأساة، وتستنهض لديه

الأحاسيس التي تجيش بصورٍ متتابعةٍ يُسقطها المكان على مخيلة الشاعر، فتدفع لديه روح الإبداع الشعري ليستلهم من المكان الكربلائي أحاسيسه الإبداعية التي ما انفكت عن الواقعة بكل أحداثها.

وإذا كان المكان الكربلائي ملهماً للقصيدة الكربلائية التي تجول في خلد الشاعر قبل ولادتها، فإنّ الحدث الكربلائي دافعٌ لهذا الإحساس القطر بدواعي العاطفة مرة، والدفاع عن القيم أخرى، والمؤرخ التوثيقي تارةً ثالثة، وهكذا فإنّ تداعيات الحدث الكربلائي المدفوع بدواعٍ إنسانية يرتبط دائماً بولادة الحدث، وسيكون المكان داعياً إبداعياً في تدوين الأحاسيس الإبداعية بشكلها التوليفي بين المكان والزمان، لترتبط القصيدة بأماكن الأحداث، كربلاء الكوفة، كربلاء الشام، كربلاء المدينة، وهي محطات كربلائية شهدت المأساة وعاشت صورها التراجيدية بكل عنفها وعنفوانها، وآلامها وآمالها، أي بكل إسقاطاتها التاريخية المحيكة في هذه الرحلة المفجعة.

من هنا تنطل بحوث الكاتبة الدكتور شذى عبد الكاظم الحلبي، التي ما انفكت عن الحالة الكربلائية لتتابعها بأحداثها المفجعة لكنها المرتبطة بالمكان الكربلائي الواسع في استطراداته المتفاعلة مع أحاسيس الشاعر كما هي دواعي الكاتب، وأبحاث المحقق كما هي توجهات الباحث، ويبقى المتلقى الكربلائي بعيداً عن إرهابات المشروع الثقافي بقدر ما هو مرتبطاً بفطرته الكربلائية التي تأخذه منساقاً للحدث دون تأثير خارجي آخر، وقد أعطت الباحثة بُعداً آخر للمكان الكربلائي من خلال متابعة إمكانية الشاعر الذي يرتبط بالحدث، كما يرتبط المكان بأحاسيسه وانفعالاته.

وبوسع الدراسة أن تستوعب مرحلة مهمة من مراحل العطاء الكربلائي ليتجذر من الدم الكربلائي المهذور على أرضه المعطاء الى كل أسباب المكان، ودواعى الزمان المقهوران بغلبة الدم على السيف، والمبادئ على الاستبداد، ويتلازمان هذان كلما استنفر الباحث طاقاته ليصل الى ما وصلت إليه الباحثة فى دراستها الجديدة... بل الجديدة.

عن اللجنة العلمية

السيد محمد على الحلو

ص:9

الحمد لله الذى جعل الحمد مفتاحاً لذكره ودليلاً على نِعَمه وآلائه، والصلاة والسلام على أشرف الخلائق محمد وآله الطيبين الطاهرين...

وبعد.. فإنّ الدراسة المكانية تعد من الدراسات الحديثة التى انصبت فى أول أمرها على الرواية، والقصة، والمسرحية؛ لأنّ المكان يشغل حيزاً رئيساً فى بنيتها، وأرضية تتحرك عليها شخصياتها، بل يتعدى هذا الى ما يظهره العنصر المكاني من أنماط لتلك الشخصيات، وما يحيط بها، ويكشف عن أبعادها المختلفة، وهذا ما جعل هذه الدراسات تمتد الى الشعر الذى ظل زمناً بعيداً عنها، حتى أدرك عدد من الباحثين أهمية المكان فى البيئة الشعرية، فأخذوا يبحثون عن المكان فى شعر الشعراء فى مختلف العصور.

تتميز الحياة الأدبية لكل مدينة عن غيرها بميزة معينة ترجع إلى عدة عوامل وأسباب تؤثر فيها تأثيراً مباشراً، والاهتمام بدراسة أدب المدن يؤدي إلى وضوح المعالم فيها وفى أى حقبة زمنية كانت، فكيف بنا لو وقفنا أمام مدينة لا تخفى ولا تغيب عن قلوب المحبين ألا وهى (كربلاء)، تلك المدينة التى تهفو إليها أفئدة العرب خاصة والمسلمين عامة بسبب احتضانها مرقد سيد الشهداء الإمام الحسين بن على عليهما السلام وأهل بيته وأصحابه الصديقين.

أما أدبها فقد امتزج بواقعة كربلاء حيث انبعث من خلالها مختلف الألوان الأدبية التي تثير النفوس من خلال ثورة جامحة لا نستطيع ردها وصورة محمومة بالعاطفة والآلام والتوجع والزفرات، وحسب الأدب أن يكون له مثل واقعة الطف باحثاً وعملاً يمدانه بالخلق والإبداع.

فجاءت هذه الدراسة مكونة من مقدمة، وتمهيد، وأربعة فصول، وخاتمة.

جاءت المقدمة كاشفة مادة هذه الأطروحة، وترتيب خطتها، وبيّنت في التمهيد أهمية المكان في النص الأدبي، والمكان لغةً واصطلاحاً، وكذلك إلمامة تاريخية موجزة عن كربلاء.

والفصل الأول: تناول كربلاء مكاناً طارداً ويقع في ثلاثة مباحث الأول: معاني كربلاء المقدسة، والمبحث الثاني: أرض كربلاء وقداسته تُربتها عند الشعراء، والمبحث الثالث: تحولات المكان الحسيني (الكربلائي) في الشعر العراقي.

ودرس الفصل الثاني، كربلاء مكاناً حسينياً جاذباً، عبر مدخل وستة مباحث، وقف الأول: على أنّ كربلاء روضة من رياض الجنة، والثاني: على أنّ كربلاء قبلة أنظار العالم، والثالث: على أنّ كربلاء مكان حسيني مزدهر، اما الرابع: المكان الحسيني رمزٌ ثوريٌّ، وكان الخامس: لغة الشعر، والسادس: الصورة الشعرية.

واهتم الفصل الثالث بدراسة: تحولات المكان الحسيني بعد واقعة الطف ويقع في ثلاثة مباحث هي: المبحث الأول: الدخول الى الكوفة، والمبحث الثاني: سببايا آل محمد صلى الله عليه وآله في الكوفة، والمبحث الثالث: الشام مكانٌ حسينيٌّ طاردٌ، والمبحث الرابع: تحولات المكان الحسيني (كربلاء) عند الشعراء غير المسلمين.

أما الفصل الرابع: فهو التشكيل البصري في شعر تحولات المكان الحسيني،

وفيه ثلاثة مباحث، المبحث الأول: الشكل الشعري المقفى، والمبحث الثاني: الشكل الشعري الحر (قصيدة التفعيلة)، والمبحث الثالث: الشكل الشعري (قصيدة النثر).

فى حقيقة الأمر لا يستطيع أحد أن يلم بتاريخ مدينة ما لاسيما مدينة كربلاء لأنها تعتبر منطقة حضارية عريقة لها أبعادها التاريخية وسماتها الدينية والثقافية وكل من يعثر على جديد يرى أن هناك حلقات مفقودة لم ينفذ الغبار عنها من قبل والمجال واسع أمام الباحثين لاستخراج الكنوز الدفينة.

وقد أخذت مادة بحثى من دواوين الشعراء العراقيين المعاصرين، وكتب الشعر والأدب، حتى تكونت لدى مادة غزيرة أملت على أن أرسم لها خطة تغاير الكثير من خطط الدراسات المكانية؛ للإحاطة بهذا التنوع المكانى الكبير، وجمع شعثه.

أما مصادر البحث فقد سعتُ إلى أن تكون موضوعية، ومعروفة فى الأوساط الأكاديمية، وذات طبعات جيدة بقدر الإمكان، وقد توزعت فيما بين الدواوين والمجاميع الشعرية، والمعاجم اللغوية، وكتب النقد القديمة والحديثة، وكتب الأدب وتاريخه، وكتب التحليل النفسى والاجتماعى للأدب، فضلاً عن كتب الحديث والتاريخ والفلسفة، مما هو مذكور فى قائمة المصادر، ولم أحرم بحثى من الرسائل الجامعية والأطاريح. وقد كان منهجى فى الدراسة المنهج التحليلى الوصفى للنصوص المدروسة.

وقد بذلت ما فى وسعى من جهد، وآثرت العناء على الراحة، فإن أحسنت فذلك بفضل الله، وعسى أن يكون عملى هذا قرابة إلى الله تعالى، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الباحثة

ص:12

لقد تحدث الله سبحانه وتعالى عن المكان في كتابه الكريم في أماكن عديدة حيث كانت بداية الخلق أن جعل الأرض مادة للحياة، ومهبطاً لأول خليفة فيها. بعد أن دحاها، فصارت قراراً، ومكن الأنام منها وغدت بعد ذلك مكاناً ذلولاً. لقد ظل الإنسان مرتبطاً برحم الأرض.. منذ إشراق أول نسمة للحياة على الكون ولا يزال كذلك إذ لا يناعه في هذا الحس الوجداني أى من الكائنات الأخرى(1).

والأرض عند العرب بمثابة الأم التي تحضن أولادها بين جنبها، وتمنحهم صفاتها كما "هى الأم التي تطبع الكائنات بطابعها وتسمها بسماتها، على نحو عجيب يصعب التعبير عنه"(2)، وقد عبر عنها أمية بن أبى الصلت بقوله:

والأرضُ مَعْقِلُنَا وكانت أُمَّنا فيها مقابِرُنَا وفيها نُؤلَدُ(3)

ص:15

1- (1) ينظر: المكان في الشعر العربي قبل الاسلام, حيدر لازم مطلق, رسالة ماجستير / 6.

2- (2) الطيماوس واكيرتيس / 267.

3- (3) ديوان أمية بن أبى الصلت / 188.

منها خلقنا وكانت أمنا خلقت ونحن أبناؤها لوأنا شكراً

هى القرار فما نَبغى بها بدلاً ما أرحم الأرض إلا أنا كُفراً (1)

فالأرض هى البداية الأولى لدراسة المكان وأبعاده الفنية والفكرية.

وللمكان دور كبير فى حياة أى إنسان، ولا ريب فى ذلك فهو الركن الأساس الذى يمارس فيه تكوينه الحياتى، وبعد أن تتفتح مداركه يبدأ بتحديد أبعاده المكانية من خلال حياته العملية، وحتى أن ينتهى المطاف به إلى مكانه الأخير.

ومن هنا كان الإحساس بالمكان إحساساً فطرياً، ومتأصلاً فى النفس البشرية، ويشترك فى هذا الإحساس جميع الناس " فالمكان أكثر التصاقاً بحياة الإنسان، وإن إدراك الإنسان للمكان إدراك حسى ومباشر، وهو يستمر مع الإنسان طوال سنى عمره (2).

فالعلاقة بين الإنسان والمكان علاقة قديمة وراسخة فى الذات البشرية، " واستخدام الإنسان للمكان هو استخدام يومى ومستمر، سواء بقصد العيش، أو التواصل مع الآخرين، وهذا الاستخدام اليومى للمكان يكسب المكان أهمية خاصة، لأنه يؤدى دوراً يسهم مع عناصر أخرى كالشخصية، والبيئة الاجتماعية الثقافية فى تكوين السلوك الإنسانى (3).

كما أن صلاحية توظيف المكان فى النص الأدبى متوقفة على أمرين:

ص: 16

1- (1) المصدر نفسه / 229.

2- (2) ينظر: خصوصية التشكيل الجمالى فى ادب طه حسين، نبيلة إبراهيم / 49-50.

3- (3) الزمن والمكان دراسة سيميائية، باسم الشريف / 49.

أحدهما: التطور التاريخي والتبدل الحضاري الذي يترتب عليه تبدل أذواق الناس وتصوراتهم. فلا يمكن لنا أن نوظف المكان الذي كان يوظفه أسلافنا في عصور غير عصرنا، وإن لم يكن هذا الأمر قاطعاً، ولا عجب أن نرى ذكراً للصحراء، أو الأطلال في شعرنا الحديث، ولكن لغاية تختلف عن غاية من سلفنا، وشكل يختلف عن شكل المكان الذي وظفه أسلافنا في زمان غير زماننا، وقيم تختلف عن قيمنا، وإدراك يختلف عن إدراكنا، والأمر الآخر: ثقافة الشاعر، وقدرته على توظيف المكان في النص الأدبي، فكلما كان الشاعر أكثر قدرة على تسخير المكان لخدمة فكرته كان أكثر نجاحاً في توظيفه(1).

وإذا كان الإنسان بشكل عام في ارتباط عميق مع المكان، فلا شك في أن الشاعر في ارتباطه بالمكان سيكون أكثر عمقاً وإدراكاً لمعطياته، التي يمنحها ديناميكية التفاعل، ويضفي عليها صوراً جمالية.

وهذا ما هو عليه الشاعر منذ عهود بعيدة إذ لا يستطيع أن يبرح المكان، والمكان يحتويه في حياته ومماته، فهو جزء منه لا يختلف عنه في شيء، بل يحمل من سابقه الذين رحلوا بقية يقف عليها في كل طلل يخاطبها وتخاطبه(2).

أما في نطاق الإبداع المعاصر، فإنّ الأمر يبدو أكثر تناغماً وفاعلية، إذ أصبح "المكان هو الفضاء الأمثل الذي تنهل منه عملية الإبداع لدى الشاعر تصوراتها وشعورها، وذلك عبر عملية التجادل بينه وبين الذات(3). كما أن الانجذاب إلى المكان واستنطاق دلالاته التاريخية والحضارية يعمق رؤية الشاعر، وينافح عن

ص:17

1- (1) ينظر: فلسفة المكان في الشعر العربي المعاصر، د. حبيب مونسى / 26.

2- (2) ينظر: المكان في الشعر الاموى، جميل بدوى حمد الزهيري، اطروحة/ 13.

3- (3) المكان في الشعر المهجري، حكيم صبرى عبدالله / 17.

وقد أجمع دارسو الأدب على أهمية المكان في العمل الأدبي، وتوقفوا عند دلالاته الكثيرة وجمالياته المتنوعة، وذهبوا إلى أن للمكان "عميق الأثر في الحياة البشرية، إذ ما من حركة إلا وهي مقترنة به، وما من فعل إلا وهو مستوحٍ لبعض دوافعه منه، وهو أعمق، وأكبر، وأهم من أن ينحصر في ما يمثله من ظرف أو وعاء"⁽¹⁾.

ونظراً للأهمية التي حظى بها المكان، لا بد من توضيح مفهوم المكان لغة واصطلاحاً.

المكان لغةً

هو الموضع، والجمع أمكنة، وأماكن، وقيل: الميم في المكان أصل كأنه من التمكين دون الكون، وقد حكى سيبويه في جمعه (أمكن)، وهذا زائد في الدلالة على أن وزن الكلمة (فَعَال) دون (مَفْعَل)، إلا أن يكون مؤنثاً كأتان وأتن⁽²⁾.

فابن منظور أوردها تحت الجذر (كَوْن)، لكنه أعاد الحديث عنها تحت الجذر (مَكِن) فقال: "المكان الموضع، والجمع أمكنة كقذال وأقذلة وأماكن جمع الجمع. وقال ثعلب: يبطل أن يكون مكان فعلاً لأنّ العرب تقول: كن مكانك، وقم مكانك، واقعد مقعدك"⁽³⁾، قد دل هذا على أنه مصدر من كان، أو موضع منه، قال: وإنما جمع (أمكنة) فعاملوا الميم الزائدة معاملة الاصلية، لأنّ العرب تشبه الحرف بالحرف، كما قالوا: منارة ومناثر، فشبها (بفعاله) من النور، وكان جمعه

ص:18

1- (1) المكان في الشعر العربي المعاصر، د. مؤنسى حبيب/7.

2- (2) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة كون.

3- (3) المصدر نفسه، مادة (مكن).

(مناور) (1) فابن منظور يؤكد من خلال تعريفه للمكان، وذكره تحت الجذرين (كَوْن) و (مَكِن)، أن المكان مشتق من الجذر (كون) مخالفاً بذلك ما ذهب إليه سيبويه، ومدللاً على ذلك بأقوال العرب، وهذا أيضاً ما ذهب إليه علماء اللغة، فالزبيدي (أحمد مرتضى الحسيني) استشهد بقول الليث: "المكان اشتقاقه من كان يكون، ولكنه مما كثر من الكلام صارت الميم كأنها أصلية" (2).

ووافقهما الأزهرى، ودلل على صحة الأصل "بأن العرب لا تقول هو منى مكان كذا وكذا بالنصب" (3) إلا أن هذا الدليل الذى أورده الأزهرى فيه خلاف لقول سيبويه: "وذلك قول العرب سمعنا منهم: هو منى منزل الشغاف، هو منى منزلة الولد، ويدلك على أنه ظرف قولك: هو منى بمنزلة الولد، وإنما أردت أن تجعله فى ذلك الموضع، فصار كقولك: منزلى مكان كذا وكذا، وهو منى مزجر الكلب، وأنت منى مقعد القابلة، وذلك إذا دنا فلزق بك من بين يديك" (4).

المكان اصطلاحاً

يأتى المكان عند العرب بمعنى: المكانة، أو المنزلة (5). فالمكان والمكانة بمعنى واحد هو: الموضع. وذكر الفراء: "له فى قلبى مكانة وموقعة ومحلة" (6). ويقال هو

ص: 19

1- (1) المصدر نفسه.

2- (2) تاج العروس، أحمد مرتضى الحسينى الزبيدي، مادة (مكن).

3- (3) الأزهرى، ج 311/1.

4- (4) سيبويه، ج 412/1-413.

5- (5) ينظر: جمهرة العرب، ج 171/3.

6- (6) تهذيب اللغة، (مكن)، ج 292/10.

رفيع المكان(1)، وقد استعملت لفظة "مكان في القرآن الكريم استعمالاً واسعاً، وبدلالات مختلفة حسب سياق التعبير القرآني لها، فقد ورد فيه لفظ: "مكان، مكاناً، مكانتكم، مكانه، مكانكم، مكانتهم"(2)، مؤدية معنى أصلياً حقيقياً لهذا اللفظ وهو: "الموضع أو المستقر وهو على هذا اسم مكان من كان التامة"(3). كما في قوله تعالى: وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ 4 وَإِذِ انْتَبَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا 5، أى موضعاً. وَأَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَاهُ 6.

وأيضاً استعمل هذا اللفظ في القرآن الكريم استعمالاً مجازياً بمعنى المكان أو المنزلة المعنوية، أو الأدبية، أو الاجتماعية(4)، كما في قوله تعالى: وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا 8، وَ أَصْدَبِحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ 9، أى مكانة أو منزلة عالية مثل منزلته وكما في قوله تعالى: أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ 10، أى أسوأ مكانة وأقل منزلة في الدنيا والآخرة.

ومن خلال تلك التعريفات يتضح، أن للمكان معنى غير محدد، يحمل

ص:20

-
- 1- (1) ينظر: المعجم الوسيط، (مكن)، ج 812/2.
 - 2- (2) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة (مكان) / 641.
 - 3- (3) معجم الفاظ القرآن الكريم، ج 544/2.
 - 4- (7) ينظر: معجم الفاظ القرآن الكريم، (مكان) ج 544/2.

احتمالات كثيرة إضافة إلى أن المكان يحمل في مضمونه معنى الوجود، والحياة والكينونة، فلا تتم الحياة إلا في مكان يأخذ منها ويعطيها، لأن أصل مادته (ك و ن) التي تعنى الحدث.

فالمكان دون سواه يثير إحساساً ما بالمواطنة وإحساساً آخر بالزمن وبالمحلية، حتى لنحسبه الكيان الذى لا يحدث شىء من دونه، فقد حملته بعض الروائيين تاريخ بلادهم، ومطامع شخصهم فكان: واقعاً ورمزاً.. مدناً وقرى، وكياناً نلتسمه ونراه أو كياناً مبنياً فى المخيلة. كما هو المحيط الذى يطبع على حياة المجتمع بتأثيره على نشاطهم الاجتماعى فى مختلف مجالات الحياة، فهو يؤثر فى لون الإنسان وحجمه، ونوع نشاطه، لأننا نتحرك على مسرح الحياة طولاً وعرضاً، ولا يمكن لأى كائن حى أن يعيش خارج المكان، أو ينفصل عنه انفصلاً تاماً. (1) وبذلك يدخل المكان ضمن عملية التفاعل الحياتية للإنسان، فيصبح جزءاً من الواقع أو محتوياً بجزء من الواقع (2). وبهذا يظهر "المكان جزءاً من تكوين الإنسان لذلك بقى المكان، لصيقاً بالتاريخ وبالحضارة وشاهداً حياً على التطور والتغير وسجلاً أميناً لأفعالنا وأفعال من سبقونا" (3).

ويبدو أن المكان ستتسع دلالاته الاصطلاحية ليشتمل على دلالة أكبر فى نظر الفلاسفة وبالتحديد حين ينخرط مفهوم المكان فى عدة حقول أدبية، وفلسفية، واجتماعية، وغيرها من حقول تساعد فى صقل مفهوم المكان بفلسفتها الخاصة.

ص: 21

1- (1) ينظر: فلسفة المكان فى الشعر العربى قراءة موضوعاتية جمالية، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، د. حبيب مؤنسى / 8.

2- (2) اشكالية المكان فى النص الادبى، ياسين النصير / 5.

3- (3) الرواية والمكان، ياسين النصير / 17.

إذا كان الإنسان بشكل عام في رباط عميق مع المكان، فلا شك في أن الشاعر في ارتباطه بالمكان سيكون أكثر عمقاً وإدراكاً لمعانيه، التي يمنحها ديناميكية التفاعل، ويضفي عليها صوراً جمالية. لأنها موهبة، ومتجذرة وعميقة، فضلاً عن اختلاف درجة إحساسهما بالأشياء. وهذا ما هو عليه الشاعر منذ عهود بعيدة إذ "لا يستطيع أن يبرح المكان، والمكان يحتويه في حياته ومماته، فهو جزء منه لا يختلف عنه في شيء، بل يحمل من سابقه الذين رحلوا ببقية يقف عليها في كل طلل يخاطبها وتخطبه"⁽¹⁾.

إنّ الشعراء لم يقصروا تجربتهم على التجربة الذاتية والفنية فحسب، بل تحولت إلى تجربة قائمة على الشعور والفكر. فقد مزجوا بين التراث وثقافة العصر، التي أسهمت في رسم صورة فكرية جديدة للشاعر. لذا "فإنّ تطور الحياة الاجتماعية ألقى بظلاله على الأدب ومنه الشعر، فأخذ الشعراء يخوضون في شتى جوانب الحياة الفلسفية والدينية والسياسية والاجتماعية والأسطورية، لذلك كان طبيعياً أن تترك آثارهم على البناء الفكري للشعر كونه بناءً علائقياً يقوم على العلاقات بين العناصر كل منها حاكم للآخر ومحكوم به"⁽²⁾.

ففاعلية المكان في الشعر في مختلف أغراضه تشكل عنصراً أساساً من عناصر إيضاح أفكار الشعراء، ومعانيهم في مختلف شؤون الحياة، كذلك يكون المكان أداة من أدوات الشاعر، ووسيلة من وسائله في تأدية المعاني المختلفة بسبب مقدرة

ص: 22

1- (1) المدينة في الشعر العربي "الجزائر أنموذجاً (1925-1962)، إبراهيم روماني / 205.

2- (2) الصورة والبناء الشعري: محمد حسين عبد الله، مكتبة الدراسات الأدبية (83) دار المعارف، مصر 1981 م / 179.

أولئك الشعراء على تطويع المكان لأغراضهم المختلفة. وعليه "فالتركيز على المكان في الشعر يعطيه عمقاً وغازة وخصوبة"⁽¹⁾.

إن وظيفة المكان في الشعر قائمة على الإبداع في التعبير، وهو ما يغير وظيفة المكان في الرواية، فوظيفته في الرواية وظيفة مساعدة تعين المتلقى على تفسير الحدث الدائر في المكان الموظف، وشتان ما بين أسلوب الشعر الهادف الى مزج المكان بالزمان، وأسلوب الرواية القائم على التفسير الذي يقدم للمتلقى تفاصيل المكان وخصوصياته، لإيضاح فكرة الحدث⁽²⁾.

وقد نجد أحياناً توظيف مكان بعينه في أكثر من غرض وهذا التوظيف لا يأتي متطابقاً في كل الأغراض، بل به حاجة الى تدخل المبدع في إخضاع المكان لخدمة فكرته وموضوعه. وكلما كان الشاعر أكثر إبداعاً ترتب عليه قوة فاعلية المكان وحيوية وظيفته في الأغراض الشعرية. والفاعلية هي التوظيف الأمثل للمكان في النص الشعري؛ لإبراز الصورة الملائمة لذلك النص من أجل إيضاح الفكرة الشعرية والومضة الفكرية؛ لأنّ الشاعر الماهر هو الذي يحتال على واقعية المكان.

وكثير من الشعراء العرب الذين ذكروا المكان ووظفوه في أشعارهم بقدر إحساسهم به، منهم الفرزدق، وأميرة بن أبي الصلت، والراعي النميري، وغيرهم.

وبذلك يتضح أن "التوظيف الإبداعي للمكان في الشعر منوط بنجاح الشاعر في إخراج أمكنته من الحيازة العامة الى حيازته الشخصية وبما يحملها من

ص: 23

1- (1) جماليات المكان وبنائه في الشعر العربي الحديث في اليمن (1940-2000 م) رسالة ماجستير/ 231.

2- (2) ينظر: دلالة المكان في مدن الملح، مجلة ابحاث اليرموك، العدد (2)، لسنة 1991 م / 16.

تجاربه، ومواقفه، ورؤاه، وبما يمنحها من دواخله، وهو يعيد تشكيلها وخلقها من جديد"⁽¹⁾.

لقد حظى المكان باهتمام الشاعر العربي منذ القدم حين قدم تفصيلاً لرحلته في البادية، ووصفاً دقيقاً لها لأنها الحاضنة التي كان يتجول فيها ويترك خاطره يجول في أرجائها، وقد مثل المكان في الشعر العربي جانباً مهماً من تاريخ حياة العرب، ولاسيما في ذكر منازل أحياء العرب، وقبائلهم، ومواقع حروبهم، وأماكن مجالسهم، واجتماعهم، ومطارد صيدهم، وطرق عيشهم، لهذا يكون المكان عندهم مثل القرباس الذي يكتب على صفحاته تاريخ الإنسان، وتجاربه الحياتية، وما وصل إليه من نواحي الارتقاء أو الانحطاط، فضلاً عن ذلك كله يعد مسرحاً لحركة الإنسان الدؤوب على مر العصور.

المكان عند الشعراء المحدثين

إن توظيف المكان عند الأديب المبدع يعطى دلالات وإضافات فكرية للنص الأدبي يبين مقدرته على توظيفه الذي يكون جزءاً من إبداعه لما لذلك المكان من تأثيرات واضحة، تمكنه من تطويعه لغرضه المراد، وتكمن قدرة الشاعر على تفعيله في أغراضه المختلفة وكلما كان الشاعر أكثر إبداعاً ترتب عليه قوة فاعلية المكان وحيوية وظيفته في الأغراض الشعرية.

إن علاقة الإنسان بالمكان علاقة متبادلة وغير ثابتة "فالإنسان بمشاعره وعواطفه ومزاجه يأخذ من الطفولة طقوسها وفصولها ما يساعد مشاعره وعواطفه

ص:24

1- (1) المكان والرؤية الابداعية، قراءة في نصوص من الشعر العربي، مجلة افاق عربية، العدد (4)، لسنة 1998 م / 38.

على رسم المكان فإذا به كالفنان الذى يختار من الألوان ما يساعده على تنفيذ لوحته الفنية ويساعده على نقل ما يريد أن يقوله...⁽¹⁾.

إن تطور دلالة المكان ينبع من تطور مفهومه لدى الإنسان لأنّ "مفهوم المكان ودوره فى حياة الإنسان ينمو ويتطور بنمو الفكر البشرى وتطوره، ويضعف بضعفه، فقد تصوّر الإنسان المكان تصوراً مادياً محسوساً ينطلق من علاقة ملموسة بين الإنسان والأشياء المحيطة به فى بيئته"⁽²⁾، ويعد المكان أحد الملامح البارزة للأمم والشعوب، لذا نراه يشغل حيزاً كبيراً فى الشعر العربى قد لا يصل إليه أدب أمة من الأمم عبر العصور⁽³⁾.

ومما يبدو "أن المكان وجود لا تحده حدود المادة ولا يتقيد بسماتها وأبعادها الطبيعية، كما أنه ليس مجرد موضوع شعريّ أو ألفاظٍ تُستحضر فى قوام النص للدلالة المباشرة على المادة، وإنما هو وجود خلاق يفرزه الشعور ويشكل الخيال ملامح حضوره الجمالى فى النص الشعري، وهو فى حضوره ذاك يمثل بنية فنية جوهرية لها أثرها البارز فى تخليق فضاء الإبداع الشعري وإحكام نسيج النص وتشكيله"⁽⁴⁾.

فالشاعر فى شعرنا الحديث، ارتكز فى فنه ارتكازاً كبيراً على توظيف المكان حتى أنك ترى الشعر العربى معجماً للأماكن والمواقع. سواءً أكانت واسعة أم

ص:25

-
- 1- (1) بناء الرواية، سيزاقاسم/76.
 - 2- (2) جماليات المكان فى الرواية العربية، شاكر النابلسى /96.
 - 3- (3) ينظر: المكان فى الشعر العربى قبل الاسلام، حيدر لازم، رسالة ماجستير/21.
 - 4- (4) جماليات المكان وبنائه فى الشعر العربى الحديث فى اليمن، (1940-2000)، ياسر فضل صالح عبدالكريم الغامدى، باشراف: د. محمد أحمد العامرى، جامعة عدن، سنة 2009 م /35.

محددة، كبيرة أم صغيرة، فهو لم يترك موقِعاً من المواقِع إلا وقد وظفه في شعره جاعلاً من الأماكن بتنوعاتها المختلفة، وأشكالها المتنوعة عنصراً أساساً من عناصر مادته الشعرية.

ومن ثم نظر الشعراء إلى المكان "نظرة خلاقة تتجاوز المادة إلى الكشف عن انعكاساتها الشعورية المتولدة من طبيعة العلاقة الفاعلة بين الشاعر والمكان، فعمموا صفات القداسة والروحانية لتشمل أماكن الألفة والعطاء والانتماء... (1)، وكثرت أماكن الألفة بحيث لم تغب عن مخيلة أيّ من الشعراء ونتائجهم، فجاءت صدى لنفسيتهم التي فتحت مجال الشعور بالحياة، ومنحت الشعراء فسحة للتذكر والحلم؛ وجاءت أماكن العطاء منطلقاً من زاوية العطاء الطبيعي إلى البحث عن مناحي العطاء النفسى والوجدانى التي كشفت عن الأثر الفاعل للإنسان في إكساب المكان سمات الخصب والعطاء." وفي سبيل الكشف عن جماليات التشكيل المكانى فى النص الشعرى استغل الشعراء العرب فاعلية الرموز الدينية والتاريخية والحضارية، واتكؤوا على التناس ووظفوا الرموز المكانية والأسطورية، واستعانوا بالقناع، والرمز، وتوسلوا بسمات سينمائية كالحركة وتحول المشاهد وتحولات الحدث للكشف عن جماليات التشكيل المكانى، والارتقاء بالخطاب الشعرى نحو آفاق حدائية تعدد تقاناتها الفنية التي بواسطتها يعيد الشاعر تخليق المكان خلقاً فنياً جمالياً (2)، إذ تختلف التجربة المكانية للشاعر بحسب بيئته، فهو "الصيق المكان، وابن شرعى لأحواله، وهو فى ذلك لا يستطيع أن يغيب الالحاح المكانى فى عمله

ص:26

1- (1) المصدر نفسه / 28.

2- (2) جماليات المكان وبنائه فى الشعر العربى الحديث فى اليمن، (1940-2000)، ياسر فضل صالح عبدالكريم الغامدى / 28.

إن المكان في الشعر في مختلف أغراضه يشكل عنصراً أساساً من عناصر إيضاح أفكار الشعراء، ومعانيهم في مختلف شؤون الحياة، كذلك يكون المكان أداة من أدوات الشاعر، ووسيلة من وسائله في تأدية المعاني المختلفة بسبب مقدرة أولئك الشعراء على تطويع المكان لأغراضهم المختلفة. ومن الشعراء الذين ذكروا المكان وأبدعوا في وصفه هم: محمد مهدي الجواهري، وبدر شاكر السياب، وعبد الرزاق عبد الواحد، والدكتور محمد حسين آل ياسين، والدكتور فليح الركابي، والدكتور نوفل أبو رغيف والكثير غيرهم.

تحولات شكل القصيدة:

إن الشعر - قبل كل شيء - هو فن قولي أدواته اللغة، واللغة ألفاظ⁽²⁾. فالقصيدة هي ضرب شعري من ضروب الأدب العربي، كما هي موضوع شعري مكون من أبيات سواء قلت أو كثرت، وتتغير خصائصها الشكلية مع تغير العصور.

" يرتبط بناء القصيدة في الشعر العربي بتقاليد فنية معينة استقرت ملامحها منذ العصر الجاهلي وتوارثها الشعراء"⁽³⁾، وسعوا إلى تحقيقها على مر العصور، حتى غدت هذه التقاليد إطاراً جمالياً مرجعياً تدور فيه تجارب الشعراء، مما حدا بمصطفى ناصف إلى القول: "إن الأدب العربي مدين في جوهره للأدب الجاهلي، وليس من الممكن البتة أن نفهم حظ الأدب العربي من الحياة إذا تجاهلنا ذلك الأدب، فالأدب العربي تطور تطوراً طبيعياً، ولكن هذا التطور ليس نوعاً من اقتلاع الجذور، ولا

ص: 27

1- (1) الاسس النفسية للتجريب الشعري، مجلة الاقلام، العددان (11، 12)/46.

2- (2) ينظر: الأسس الجمالية في النقد العربي، عز الدين إسماعيل / 234.

3- (3) المنهج الأسطوري في تفسير الشعر الجاهلي، عبد الفتاح محمد أحمد / 128.

هو إتيان جديد من أرض غريبة، إنما إعادة تشكيل للماضي وليس الماضي إلا الأدب الجاهلي" (1).

إن التجديد في الشعر ظاهرة طبيعية تطورية في كل مكان وزمان، وقد عرف الشعر العربي في تاريخه الطويل مظاهر تجديدية كثيرة بدءاً من بشار بن برد الذي كان آخر القدماء وأول المحدثين إلى أبي نواس الذي تمرد على نهج القصيدة ثم كانت ثورة أبي تمام الفعلية على (عمود الشعر)، ولذلك وقف علماء اللغة يهاجمون ثورته هذه، وعلى رأسهم ابن الأعرابي (2).

ثم عرف الشعر العربي ثورة في الشكل الموسيقي من خلال الموشح وبعض الفنون المستحدثة إلى أن جاء العصر الحديث، وبدأ الشعراء يتململون تحت وطأة الزخافية البديعية والمحسنات اللفظية الجافة في أواخر القرن التاسع عشر، وما إن أطل القرن العشرون حتى أخذ الشعراء والنقاد يدعون إلى ضرورة تجديد الشعر العربي ليلائم العصر، فتنوعت أشكال القصيدة بين الغنائية والموضوعية، كما تنوعت أشكالها بين شكل الشطرين، والشعر المرسل، والنظام المقطعي، وشعر التفعيلة، وقصيدة النثر وسواها، وكان لا بد من أن يتغير الشعر ورسالته لتغير نمط الحياة والتطور الخطير الذي حدث بنكبة فلسطين وتأثير اللحظة النفسية والتاريخية في الوطن العربي (3). والواقع أن تجديد الشعراء المعاصرين في أشكال الإيقاع في القصيدة العربية المعاصرة لم يبدأ من فراغ، وإنما كان استمراراً لجهود شعراء سابقين كانت لهم محاولات كثيرة متعددة للتجديد في العروض العربي فتصرف بعضهم في

ص: 28

1- (1) قراءة ثانية لشعرنا القديم، د. مصطفى ناصف / 30.

2- (2) ينظر: أخبار أبي تمام، أبو بكر الصولي، تحقيق خليل محمود عساكر / 244.

3- (3) ينظر: حركات التجديد في موسيقى الشعر الحديث، س. موريه، ترجمة سعد مصلح / 78.

الأوزان التقليدية، وتوسع آخرون في الإفادة من الزحافات والعلل، وحاولوا أن يتحللوا تماماً من قيود الوزن والقافية ومال آخرون إلى نظم قصائدهم على أكثر من وزن، وكانت محاولات وشاحي الأندلس وجهودهم في التجديد في موسيقى الشعر علامة بارزة في تاريخ هذا التجديد⁽¹⁾.

ونتيجة للتغيرات الكثيرة التي ظهرت "استطاع خليل مطران رأس المدرسة الرومانسية أن يتخلى عن الوزن والقافية ودوت من بعده صيحات التجديد في الشعر العربي الحديث، وانطلقت من اتجاهات ثلاثة: صيحة صدرت عن شعراء الديوان العقاد وشكري والمازني، وصيحة من شعراء أبوللو، وثالثة من شعراء العرب الذين نزحوا في مطلع القرن العشرين إلى المهاجر الأمريكية حيث شهدوا نشاطاً ثقافياً وعلمياً واسع المدى"⁽²⁾.

ثم ابتدع رواد الشعر الحديث نمطاً جديداً من الشعر فيه "التفعيلة تتكرر في القصيدة دون تقيد بالمألوف من وحدة شطرية معروفة في الأراجيز والموشحات تستخدم التفعيلة باعتبارها وحدة بدلاً من السطر، مع عدم الالتزام بعدد ثابت للتفعيلة يتكرر في كل سطر ولقد أتاحت موسيقى التفعيلة للشاعر إمكانية واسعة للتحرك خلال أشكال غير محدودة من الموجات النفسية كان آخرها الاعتماد على الموجة الشعرية التي تعتمد على دورات نغمية تمتد خلال عدد من السطور وتتسع من خلال الدورة لعدد أكثر من التفاعيل، فتأتي الأسطر عندهم ليس لها طول ثابت ولا نظام معين، إذ يتميز شعرهم بقافية موحدة وسموا هذا الضرب من الشعر الشعر الحر"⁽³⁾.

ص:29

1- (1) ينظر: الناس في بلادى صلاح عبد الصبور/ 53.

2- (2) ينظر: المصدر نفسه/ 54.

3- (3) التحولات في بناء القصيدة العربية المعاصرة، محمد عباس محمد عرابي، عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية / 25.

إن الشعر الحر" هو الشعر الذى لا يتقيد بقافية ولا بحر وقد ارتبط ظهوره بالتغير الثقافى الهائل الذى سيطر على الحياة الأدبية العربية منذ بداية الثلث الثانى من القرن العشرين ولقد فصلت نازك الملائكة فى كتابها قضايا الشعر المعاصر معالم دعوتها للشعر الحر، وبينت أنه ليس انسلاخاً عن الوزن والبحور الخليلية أو خروجاً عنها"⁽¹⁾.

ويرى يوسف الخال "أن الشعر الحر يتيح للشاعر التجرد من رقابة الوزن بتشطيره على الشكل الذى يروق له مع الاحتفاظ بالجرس الموسيقى الأساسى للوزن.

ومن أبرز الخصائص الإيقاعية للشعر الحر التحرر من نسقية الوزن والقافية، استخدام التضمنين والتدوير، ووضوح الدور الإيقاعى للنبر والتنغيم"⁽²⁾.

ومن رواد الشعر الحر فى العراق: نازك الملائكة بدر شاكر السياب عبد الوهاب البياتى.

تحولات شكل المكان من طارد الى جاذب

يعيش الإنسان فى عالم يتصف ببعدين أساسيين هما: الزمان والمكان، ففيهما يحيى الإنسان وينمو الجنس البشرى ويتطور. وقد اتسمت الدراسات الظاهرآتية بشدة الاحتفاء بالمكان، واختلف النقاد والباحثون إزاء ذلك فى تحديدهم لأنماط الأمكنة فى الشعر، أو الرواية، وكذلك اختلفوا فى وضع المقاييس التى ينتهى إليها وضع تصنيف أو مفهوم واضح لتلك الأمكنة، ومن ثم حصر كل مجموعة منها

ص:30

1- (1) المصدر نفسه / 26.

2- (2) الحدائثة فى الشعر، يوسف الخال / 84.

تحت نمط معين" (1)، ورغم أن المكان والزمان عنصران متلازمان لا يفتقران، فإن المكان ثابت على عكس الزمان المتحرك، وهو في ثبوته واحتوائه للأشياء الحسية المستقرة فيه يدرك بالحواس إدراكاً مباشراً. ذلك أن "المكان صورة أولية ترجع إلى قوة الحساسية الظاهرة التي تشمل حواسنا الخمس" (2)، على عكس الزمان الذي يدركه الإنسان إدراكاً غير مباشر من خلال فعله فيه.

والمكان له تاريخ أقدم من الإنسان، والإنسان بوجوده وكيونته في المكان يعيد تشكيله وتحويله إلى أشكال مختلفة حسب احتياجاته الحياتية، ووفق ثقافته. يمكن أن تعدّ التحولات الكبرى التي يعيشها المكان جزءاً من حركة ثقافية أو إنسانية تمتلك ديمومتها على مدى العصور، بفعل متغيرات المقدّس وقدرته على الصمود أمام الآخر.

وإذا كانت الأماكن المنخّصة تمثل الحياة على الأرض، فإنّ الأماكن المجذبة تمثل الجانب الآخر من الحياة (الفناء)، فهي أماكن مهلكة تحيط بالمخاطر بسالكها، ولا يقطنها إلاّ القليل من الناس، ووجود الإنسان في المكان أدى إلى تعضيد العلاقة بينهما، تلك العلاقة التي أخذت في التنامي "حتى أصبح المكان واحداً من القضايا التي يخترقها الإنسان بالبحث بغية التعمق في هذا المحسوس وتمام إدراكه" (3). مما ترتب عليه وجود دراسات كثيرة عنيت بدراسة المكان في مختلف المجالات، بل وجد علم خاص بدراسة المكان وهو علم الطوبولوجيا (Topology) الذي قام بدراسة أخص خصائص المكان من حيث هو مكان، أي العلاقات

ص: 31

- 1- (1) المكان في الشعر المهجري، حكيم صبري عبدالله / 17.
- 2- (2) تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم / 222.
- 3- (3) استراتيجية المكان، مصطفى الضبع / 60.

المكانية المختلفة كعلاقة الجزء بالكل، وعلاقات الإندماج والانفصال والاتصال، التي تعطينا الشكل الثابت للمكان الذي لا يتغير بتغير المسافات والمساحات والأحجام"⁽¹⁾، وكان تنوع الدراسات عن المكان أدى إلى "تقسيم المكان حسب التخصصات، إذ تم تقسيم المكان بموجب السلطة التي تخضع لها الأماكن"⁽²⁾، كما أعطى المكان بعداً فلسفياً فأصبح المكان "هو ما يحل فيه الشيء أو ما يحوى ذلك الشيء ويحدده ويفصله عن باقي الأشياء"⁽³⁾.

كذلك تم تقسيم المكان إلى "المكان التصوري، والمكان الإدراكي الحسى، والمكان الفيزيائي، والمكان المطلق"⁽⁴⁾، والمكان الأليف عموماً هو ما تشعر فيه النفس "بالحماية والألفة والأمان، والفهم، والأهم من هذا كله اليقين، والإحساس بالتمكن، والسيطرة"⁽⁵⁾، والاستقرار الذهني، وزخزحة القلق.

ولا تنحصر ألفة المكان بطبيعة المكان المسكون، إنما تكون الألفة في كل مكان ترتاح إليه النفس، ويطمئن إليه الفؤاد، كمكان اللقاء مع الحبيبة، أو الأصحاب، أو على ظهور الأبل، والخيول، والمواقد، حتى الاطلاع التي يقف عندها الشاعر العربي هي مكان أليف تنشرح إليه النفس، ويتسع فيه الأفق. وقد تصبح الأماكن ذكرى متمكنة من نفس الإنسان أكثر من غيرها حتى تصل الي

ص:32

-
- 1- (1) إشكالية الزمان في الفلسفة والعلم، يمى طريف الخولى / 13.
 - 2- (2) مشكلة المكان الفنى، يورى لوتمان، ترجمة سيزا قاسم دراز / 82.
 - 3- (3) استراجية المكان، مصطفى الضبع / 60.
 - 4- (4) إشكالية الزمان في الفلسفة والعلم، يمى طريف الخولى، 13.
 - 5- (5) ينظر: حول "محطة السكة الحديد" لأدور الخراط، الحساسية الجديدة واستخدامات المكان الادبية، مجلة اقلام، العددان 11، 12 لسنة 1986 م / 82.

درجة التقديس، كأماكن المراقد المقدسة والقبور الشريفة للأنبياء عليهم السلام، ولا سيما قبر نبينا الكريم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وقبور الأئمة المعصومين عليهم السلام. فالأماكن "كلما تقدمت تغيرت نظرنا إليها وتغير تفسيرها في ضوء ما استجد من أحداث"⁽¹⁾.

وقد يستغرب المتلقى حين يقرأ أن الأماكن تتحول من أماكن جرداء إلى أماكن أليفة خضراء ذات قدسية عالية، كما هي كربلاء المقدسة التي أصبحت قبلة أنظار العالم "فالمكان الديني مهما كان نوعه، يبقى في الشعر حاملاً لفكرة روحية قد تخضع لاعتقاد الشاعر، أو لا تخضع. ولكنها على أية حال تظل معبرة عن دلالة دينية لواقع حقيقي في مرحلة تاريخية معروفة، وقد تستجيب لدواعي نفسية، وفنية بحتة لما تثيره من أحاسيس، وكوامن عند الشعراء، ولما تقدمه لهم من مادة جديدة، وطريقة للتمثيل، والتصوير"⁽²⁾.

إن أسماء الأماكن الحسينية تمحورت حول اسم كربلاء، مثل (الطف، والغازية، ونيوى، والكوفة، والعراق)⁽³⁾، لارتباطها المباشر بالحدث، فضلاً عن أن تلك المواضع تحولت إلى رموز مجسدة للصراع بين الخير والشر، على الرغم من دلالتها الجغرافية المباشرة، فضلاً عن ارتباطها المباشر بموقف الحسين عليه السلام، مما جعل الشعراء يتشبثون بتلك البقاع بوصفها شواهد لتاريخ من الألم والحزن والثورة، ثم إن قرب الشعراء العراقيين من تلك الأماكن ساعد في أن

ص: 33

1- (1) بناء الرواية، (دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ)، سيزاقاسم / 40.

2- (2) امرؤ القيس أمير شعراء الجاهلية، طاهر أحمد مكي / 95.

3- (3) ينظر: كتاب معجم البلدان: ج 228/7 مجلة البيان، تأثير العوامل السياسية على الرثاء الحسيني العراقي، ع (57، 58) لسنة 212/1948، وأدب الطف، جواد شبر، ج 237/8.

تكون ملاذاً لتجاربهم الشعورية الحزينة في ظل إحساس بأنَّ الإمام الحسين عليه السلام قريب منهم، يشعرون بوجوده، فكانت حقاً (كرب وبلاء) كما جاء في أصل تسميتها(1).

فالمكان الكربلائي وأبعاده في النفوس المحبة والمبغضة وتحولات شكل المكان من طارد إلى جاذب. هو ما سنتعرض له في دراستنا للشعر العربي في العراق، إذ قد تحول المكان الكربلائي المقدس تحولات عديدة كما سيتضح ذلك لاحقاً.

ص:34

1- (1) ينظر: كتاب معجم البلدان: 229/7، والأدب العربي في كربلاء، د. عبود الحلبي / 9.

بعد أن استعرضنا فى التمهيد دلالة مصطلح المكان فى النقد الأدبى ننتقل إلى موضوعنا الرئيس، وهو تحولات المكان الحسينى فى الشعر العراقى. وكما نعلم أن كربلاء اسم موغل فى القدم يشخص فى عمق التاريخ فتشخص معه الحضارات التى تعاقبت على أرض هذه المدينة، ولا بد من الإشارة إلى أن كربلاء هنا مكان تاريخى اكتسب أهميته من ثورة الإمام الحسين عليه السلام الذى نثر دماءه على رمضائها فكانت مناراً فى طريق الثائرين فى العالم، وأن هذا المكان المقدس شهد تحولات شعرية فى آثار الشعراء، ومنها أنه مكان طارد فى بادئ الأمر لأسباب عديدة لأنه صحراوى غير مأهول، وأنه شهد معركة قاسية تطايرت فيها الرؤوس، وسالت الدماء، وأحرقت الخيام، وسبيت النساء وشرد الأطفال وحدث ما حدث فيها من المأسى البالغة لآل بيت الرسول الكريم صلوات الله عليهم أجمعين، فصورها الشعراء على أنها مكان طارد فى أحداثه بكل بشاعة وقسوة، وكان مراد الشعراء من ذلك إثارة المشاعر عند المتلقين، وتحبباً لآل النبى صلوات الله عليهم أجمعين وتصوير مأساتهم بصدق، وقد جاء الفصل الأول استقراء لتلك الأحداث من خلال الشعر فهو المادة الرئيسة فى الرصد والتقصى وقد وقع الفصل فى مباحث عديدة منها معانى كربلاء، وأسماء كربلاء ثم تحولات المكان الأول صورة القتل، صورة السبى، صورة الجثث فى الرمضاء.

اسم (كربلاء).. الأصل والاشتقاق

اختلف اللّغويون والمؤرّخون والجغرافيون في أصل كلمة كربلاء، وفي اشتقاقها وفي معناها، فذهب بعضهم إلى أنّ أصل هذه الكلمة عربيّ محض، وذهب آخرون إلى أنّ أصلها غير عربيّ، وقال آخرون: إنّها متداخلة الأصل من العربية وغيرها...

1 - نظرية الأصل العربي لاسم كربلاء

قال ياقوت الحموي: (كربلاء، بالمدّ: وهو الموضع الذي قُتل فيه الحسين بن عليّ رضي الله عنه، في طرف البرية عند الكوفة، فأما اشتقاقه: فالكربة رخاوة في القدمين، يقال: جاء يمشى مُكْرِباً، فيجوز على هذا أن تكون أرض هذا الموضع رخوة فسميت بذلك.

ويقال: كَرِبْتُ الحنطة، إذا هدّبتها ونقيتها، ويُشَدُّ في صفة الحنطة:

يحملن حمراء رسوباً للثقل قد غُرِبَتْ وكُرِبَتْ من الصقل

فيجوز على هذا أن تكون هذه الأرض منقاة من الحصى والدغل، فسميت بذلك.

والكربل: اسم نبت الحُمّاض، وقال أبو وجرة السعدي يصف عهون اليهودج:

وثامرُ كربلٍ وعميمٍ دُفلى عليها والندی سبط يموؤ

فيجوز أن يكون هذا الصنف من النبت يكثر نبتة هناك فسُمّي به (1). ومن هذا غلب الاسم على المكان فسمى به وهو كربلاء.

ص:38

1- (1) معجم البلدان: 4:445، وانظر: مراصد الإطلاع: 3:1154.

قال الدكتور مصطفى جواد في موضوع كتبه تحت عنوان (كربلاء قديماً) في موسوعة العتبات المقدسة:

(.. وذكر السيد العلامة هبة الدين الشهرستاني: أنّ (كربلاء) منحوتة من كلمتي: (كور بابل)، بمعنى مجموعة قُرى بابلية(1)).

وقال الأب اللغوي أنستاس الكرملى: (والذى نتذكره فيما قرأناه فى بعض كتب الباحثين أنّ كربلاء منحوتة من كلمتين: من (كربل)، و (إل) أى: حرم الله، أو مقدس الله(2)).

إنّ رَجَعَ الأعلام الأعجمية إلى أصول عربية كان ديدناً لعلماء اللغة العربية منذ القديم، فقلّما اعترفوا بأنّ علماً من الأعلام أصله أعجمى، دون أسماء الجنس، فإنّهم اعترفوا بعجمتها وسمّوها (المعربّات)؛ لأنّ الذين يعرفون اللغة الفارسية كثير، ولأنّهم يدرون أصول المعربّات على التحقيق والتأكيد.

وكان الذى يُسهّل عليهم اجتيال الأعلام وغيرها إلى اللغة العربية، كونها مشابهة وموازنة لكلمات عربية، كما مرّ فى (كربلا) والكربلة، والكربل، فهم قالوا بعروبة تلك الأعلام الأعجمية، ثمّ حاروا فى تخريجها للغوى، فبعثهم ذلك على التكلّف! كما فعلوا فى كربلاء وغيرها من الأعلام الأعجمية.

"إنّ موقع كربلاء خارج عن جزيرة العرب، وأنّ فى العراق كثيراً من البلدان ليست أسماؤها عربية: كبغداد، وصرورا، وجوخا، وبابل، وكوش، وبعقوبا، وأنّ

ص: 39

1- (1) نهضة الحسين (عليه السلام)، السيد هبة الدين الحسينى الشهرستاني/ 6.

2- (2) مجلة لغة العرب، أنستاس مارى الكرملى: ج 5، 1927 م / 178.

التاريخ لم ينصّ على عروبة اسم (كربلاء)، فقد كانت معروفة قبل الفتح العربي للعراق، وقبل سكنى العرب هناك، وقد ذكرها بعض العرب الذين رافقوا خالد بن الوليد في غزوته لغربيّ العراق سنة 12 هجرية / 634 م، " (1) قال ياقوت الحموي: (ونزل خالد عند فتحه الحيرة، كربلاء، فشكا إليه عبد الله بن وشيمة النصرى الدّبّان (2)، فقال رجل من أشجع في ذلك:

لقد حُبِسْتُ في كربلاء مطيّي وفي العين (3) حتى عاد غثاً سمينها

إذا رحلت من منزل رجعت لعمري وأيها إنني لأهينها

ويمنعها من ماء كلّ شريعة رفاقٍ من الدّبّان زُرُقَ عيونها (4)

ومن أقدم الشّعر الذي ذُكرت فيه كربلاء: قول معن بن أوس المزني من مخضرمي الجاهلية والإسلام، وعمر حتى أدرك عصر عبد الله بن الزبير وصار مصاحباً له، وقد كُفَّ بصره في آخر عمره، وذكر ياقوت الحموي هذا الشعر في (النوائح) من معجمه للبلدان وقال وهي قصيدة طويلة:

إذا هي حلّت كربلاءً فلعلعلاً فجوز العذيب دونها فالنوائح

ص: 40

1- (1) كتاب نهضة الحسين عليه السلام الدكتور الشيخ عبد الهادي الفضلي / 6.

2- (2) في معجم البلدان: ج 4: 445 (البصرى) وليس (النصرى)، وقال الدكتور مصطفى جواد في الحاشية: (أو النصرى، وفي الأصل من طبعة مصر (البصرى) وهو محال؛ لأنّ البصرة لم تكن يومئذٍ قد مُصِّرَتْ، ولأنّ العرب القدامى في القرن الأوّل والقرن الثاني، لم يكونوا ينتسبون إلى المدن والأقطار، بل إلى الآباء والقبائل والأفخاذ والعمارات والبطون، أمّا غير العرب فجازز فيهم، كما سرجويه البصرى الطبيب (مختصر الدول لابن العبري / 192).

3- (3) يعنى عين التمر، المعروف حصنها اليوم بالأخيضر.

4- (4) معجم البلدان - ياقوت الحموي، ج 4/ 445.

وفى حوادث سنة 12 هـ -: (خرج خالد فى عمل عياض بن غنم؛ ليقضى ما بينه وبينه وإغاثته، فسلك الفلوجة حتى نزل بكربلاء، وعلى مسلحتها عاصم بن عمرو... وأقام خالد على كربلاء أياماً، وشكا إليه عبد الله بن وثيمة الذباب، فقال له خالد: اصبر فإنى إنما أريد أن أستفرغ المسالحي التي أمر بها عياض فئسكنها العرب، فتأمن جنود المسلمين أن يؤتوا من خلفهم، وتجيئنا العرب آمنة غير متعته... وقال رجل من أشجع فيما شكا ابن وثيمة: لقد حُست في كربلاء مطيتي...)(1).

وفى حديث آخر عن فتح كربلاء يقول: (... حتى فتح خالد سباط المدائن، ثم توجه إلى المدائن فلم يجد معابر فدلوه على مخاضة عند قرية الصيادين أسفل المدائن، فأخاضوها الخيل حتى عبروا، وهرب يزدجرد إلى اصطخر، فأخذ خالد كربلاء عنوة وسبى أهلها، فقسمها سعد بين أصحابه...)(2).

وإذا ما فسّرنا (إل) كان معناها (الإله) عند الساميين أيضاً، ودخول تفسير التسمية في الإمكان لا يعنى أنها التسمية الحقيقية لا غيرها؛ لأن اللغة والتاريخ متعاونان دائماً فهي تؤيده عند احتياجه إليها، وهو يؤيدها عند احتياجها إليه، فهل ورد في التاريخ أن موضع كربلاء كان (حرم إله) قوم من الأقبام الذين سكنوا العراق؟(3)، أو مَقْدَس إله لهم؟ لا يُجيبنا التاريخ عن ذلك، ومن الأسماء المضافة إلى (إل) بابل وأربل وبابلي.

ومن العجيب أن لفظ (كرب) تطوّر معناه في اللغة العبريّة، قال بعض الأدباء

ص:41

1- (1) تاريخ الطبرى: ج 574/2.

2- (2) بحار الأنوار: 259:44، 260 باب 31، حديث رقم 11.

3- (3) ينظر: تاريخ بغداد، لأبى بكر أحمد بن على الخطيب البغدادي / 128/24.

الأمريكيين: (ممّا يَصوّر لنا فكرة عن سوء أسلوب الحياة أن نجد الكلمة العبرية (كَرَبَ Karab) ومعناها يقترب تعنى فى الوقت نفسه (يُقاتل ويحارب)، ومن هنا كانت كلمة (كَرَاب Kerab) بمعنى معركة(1).

لعلّ اسم (كربلاء) بمعنى (حرم الإله)، كان قد أُطلق على هذا الوضع فى أحد الأماكن لذلك يمكن القول بتطوّر الاسم (كربلاء) من الحقيقة إلى المجاز، وبذلك لا يجب الالتزام بأصل معناه بل يجوز، وممّا قدّمنا يفهم أنّ (كربلا) مقصور فى اللغات القديمة (غير العربية) بواسطة أحد الأنبياء الماضين عليهم السلام، من باب الإخبار بما سوف يقع على أرض هذا الموضع فى مستقبل الأيام من قتل ابن بنت خاتم الأنبياء صلّى الله عليه وآله، وأنّ هذا الموضع سوف يكون من البقاع المقدّسة.

معلوم أن العرب توطنوا تلك البقاع قبل الفتح العربى، فدولة المناذرة فى الحيرة ونواحيها كانت معاصرة للدولة الساسانية الفارسية وفى حمايتها وخدمتها كما تقول كتب التاريخ وأن المؤرخين لم يذكروا لهم إنشاء قرية سميت بهذا الاسم (أعنى كربلاء) غير أن وزن كربلاء ألحق بالأوزان العربية ونقل (فعللا) إلى (فعللاء) فى الشعر، فالأول موازن قرقرى وقهقرى، والثانى موازن لعقرباء وحرملاء، زيد همزة كما زيد برنساء(2).

كربلاء اسم من أسماء ذلك المكان الذى هيمن فيما بعد لأنّ الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم حين أخبر سبطه أنه يستشهد هناك، أعطاه الشيوخ والهيمنة فى التاريخ، وتحدثنا المراجع التاريخية أن كربلاء هى أم لقرى عديدة تقع بين بادية الشام وشاطئ الفرات وأنها كانت من أمهات مدن بين النهرين الواقعة

ص:42

1- (1) المؤرّخون والشعر، ترجمة توفيق إسكندران / 46.

2- (2) ينظر: معجم البلدان، ياقوت الحموى، مج 229/7.

على ضفاف نهر بالاكوباس (الفرات القديم) وعلى أرضها معبد للعبادة والصلاة كما يستدل من الاسماء التي عرفت بها قديماً. وقد كثرت حولها المقابر إذ عثر على جثث الموتى داخل أواني خزفية يعود تاريخها الى ما قبل العهد المسيحي. أما الأقوام التي سكنتها فكانت تعول على الزراعة لخصوبة تربتها وغزارة مائها(1). من كل ما تقدم تتجسد لنا المكانة الرفيعة التي حظيت بها هذه البقعة المقدسة والمنزلة السامية التي كانت عليها بين بلدان العالم.

معانى كربلاء

(كربلاء) بلدة عُرِفَتْ بهذا الاسم قبل الإسلام بزمان بعيد، بل لعلّ الظاهر من بعض الروايات أنّ اسم كربلاء موغل في القدم إلى زمن آدم أبي البشر عليه السلام(2)، بل هي معروفة في السماء ب - (أرض كرب وبلاء)، كما في رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام(3).

(وعلى حسابان كربلاء من الأسماء السامية الآرامية أو البابلية، تكون من القرى القديمة الزمان كبابل وأرييل، وكيف لا؟ وهي من ناحية نينوى الجنوبية.. ونينوى من الأسماء الآشورية..)(4).

ويوحى احتمال كون اسمها منحوتاً من كلمتي: (كور بابل) أي مجموعة قرى بابلية، أنّها كانت آنذاك أمّ القرى لقرى عديدة، منها: نينوى، والعقر

ص:43

1- (1) ينظر: تراث كربلاء، سلمان هادي آل الطعمة / 24.

2- (2) ينظر: البحار: ج 242/44، باب 30، حديث 37.

3- (3) فعنه (عليه السلام) قوله: (وإنّها لفي السماوات معروفة تُذكر أرض كرب وبلاء، كما تُذكر بقعة الحَرَمين، وبقعة بيت المقدس) ينظر: أمالي الصدوق: 478480، المجلس 5/87.

4- (4) موسوعة العتبات المقدّسة، قسم كربلاء / 15.

البابلي، والنواويس، والحَيْر، والعين: عين التمر، وغيرها من القرى العديدة التي كانت تقع بين البادية وشاطئ الفرات.

ولعلّ (كربلاء) كانت قد أُسّست منذ عهد البابليين والآشوريين، وورثها عنهم التنوخيون واللخميّون، وأمراء المناذرة وسكّان الحيرة تحت حماية الأكاسرة في إيران، الذين كانت سيطرتهم يومذاك قد امتدّت على مساحة واسعة جدّاً من آسيا.

كانت كربلاء عامرة ومتقدّمة من الناحية الزراعية آنذاك؛ لخصوبة أرضها وقُربها من الفرات، وملاءمة مناخها لكثير من الزراعات، وكانت تُمَوّن المنطقة والقوافل السيّارة المارّة بها بالمنتجات من حبوب وتمور وأثمار، وقد ازدهرت حتّى في العصر الكلداني، وكان يسكنها قومٌ من النصارى والدهاقين، وكانت تُسمّى آنذاك ب - (كور بابل)، وقد أُقيم على أرضها معبد تقام فيه الصلاة، وحولها معابد أخرى، وقد عُثِر في قرى مجاورة لها على جثث أموات في أوانٍ خزفية يعود تاريخها إلى ما قبل ميلاد المسيح عليه السلام(1).

إن كربلاء اسم قديم في التاريخ، يرجع إلى عهد البابليين، وقد استطاع المؤرخون والباحثون التوصل إلى معرفة لفظة (كربلاء) من نحت الكلمة وتحليلها اللغوي، فقيل إنها منحوتة من كلمة (كور بابل) العربية، وهي عبارة عن مجموعة قرى بابلية قديمة منها (نينوى) التي كانت قرية عامرة في العصور الغابرة، تقع شمال شرقي كربلاء(2)، وهي الآن سلسلة تلّول أثرية ممتدة من جنوب سدة الهندية حتى

ص:44

1- (1) ينظر: وسائل الشيعة، الحر العاملي، ج 516/14.

2- (2) ينظر: عمارة كربلاء دراسة عمرانية وتخطيطية، د. المهندس المعماري، رؤف محمد علي الأنصاري/139.

مصعب نهر العلقمي في الأهوار، وتعرف بتلول نينوى(1). وقد عبّر عنها الإمام الحسين عليه السلام في خطبة مشهورة له وذلك عندما عزم السير نحو الكوفة: "وكأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلا"(2). وجاء في (لسان العرب) (كرب الأمر كروياً دنأ).. قال عبد القيس بن خفاف البرجمي.

أَبْنَىٰ إِنْ أَبَاكَ كَارِبٌ يَوْمَهُ فَإِذَا دُعِيَتْ إِلَى الْمَكَارِمِ فَاعْجَلْ(3)

قال ابن مقبل يصف ناقته:

فبعثتها تقصُ المقاصر بعدما كربتُ حياةً للناس للمنتور(4)(5)

وقد وردت لفظة (كربلاء) في رسالة السيد حسن الصدر فقال: "إنها مشتقة من الكربة بمعنى الرخاوة. ولما كانت أرض هذا الموضع رخوة سميت كربلاء أو من النقاوة من كربلت الحنطة إذا هزرتها ونقيتها ولما كانت هذه الأرض منقاة من الحصى والدغل سميت كربلاء. أو أن الكربل نبت الحماض كان كثر نبتة في هذه الأرض فسميت به والأظهر من هذه الوجوه الثاني والأوسط"(6).

ويرى فريق آخر من المؤرخين أن لفظة (كربلاء) مركبة من كلمتين آشوريتين هما: (كرب وايلا) ومعناها (حرم الله)، وذهب آخرون إلى أن الكلمة

ص:45

- 1- (1) ينظر: دائرة المعارف الشيعية، محمد حسن العلمي، ج 356/9.
- 2- (2) اللهوف في قتلى الطفوف، للسيد ابن طاووس / 26.
- 3- (3) لسان العرب، ابن منظور، حرف الكاف كرب، ج 13.
- 4- (4) مادة قصر من الصحاح، أي قرب انطفأؤها...
- 5- (5) تاريخ بغداد، لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي / 24.
- 6- (6) نزهة أهل الحرمين في عمارة المشهدين، للسيد حسن الصدر / 17.

فارسية المصدر، فهم يرون أنها مركبة من كلمتين هما (كار) و (بالا) ومعناها العمل الأعلى أى العمل السماوى.

أما انطوان بارا فيعزو كلمة كربلاء بقوله: "وقيل عنها قديماً (كور بابل) ثم اختصرت إلى اسم كربلاء تسهيلاً للفظها، وبابل كما جاءت فى نبوة أشعيا هى صحراء البحر كانت فى سهل متسع يقطعه الفرات، وفيها غدران كثيرة حتى ليظن الناظر إليها بأنها صحراء طافية فوق بحر، فأطلق عليها هذا الاسم وفى هذا التفسير شىء من المعقول: إذ كربلاء منطقة صحراوية حارة، وفيها الفرات وبعض الغدران، وتسمية (صحراء البحر) فيها شبه كبير بتسمية (كور بابل)، فالكور معناه فى العربية هو ذلك الجهاز الذى ينفخ الهواء فوق جمر الحداد لإحماء الحديد، وبابل هى الصحراء الحارة، فصار اللفظ (كور بابل) يعنى - لهب صحراء بابل - كلهب كور الحداد"⁽¹⁾. وتقع كربلاء على بعد عدة كيلومترات من مشرعة الفرات شمال غرب الكوفة، وكانت فى عهد البابليين معبدًا، والاسم محرف من كلمتى "كرب بمعنى معبد أو مصلى أو حرم و (ابلا-) بمعنى (إله) باللغة الآرامية، فيكون معناها (حرم الإله) وهذا مما يؤيده وجود الأطلال فى شمال غربى كربلاء الحالية، وكان البابليون يدفنون موتاهم فيها"⁽²⁾.

وفى تعوذ الحسين عليه السلام من الكرب والبلاء، مرادف لفظى آخر جاء متطابقاً إلى حد كبير مع لفظة (كربلاء). فالكرب، هو الشدة المصحوبة بالألم والبلاء هو النهاية وبلىة الموت. ولو نسبنا اللفظة إلى مرادف آخر، لوجدناها تصح بلفظة (كر وبلاء) ومعنى الكر هنا، هو أحد وجهى الهجوم والتراجع فى المعارك، وهو ما

ص:46

1- (1) الحسين فى الفكر المسيحى، انطوان بارا / 42.

2- (2) كربلاء فى التاريخ واللغة، تحسين آل شبيب / 85.

يعنى الهجوم (الكر) لأنّ التراجع يعنى (الفر) وهكذا يقال فى وصف معركة: (قتال بين كر وفر) أى بين إقدام وهروب. أما لفظة (كربلاء) فمعناها متمم لمعنى لفظة (كر) وبلاء هنا بعد لفظة كر، فالبلاء بعد الكرب، تعنى الشدة والموت، وبعد الكر، تعنى المضاء والنجاح فى القتل والهجوم(1).

ومهما كان من آراء المؤرخين تظلّ كربلاء الأرض المباركة التى كرمها الله تعالى حيث ضمت بين جنباتها الجسد الطاهر لريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وامتزجت تربتها مع دماء العترة الطاهرة من آل الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، فتسمية كربلاء كما أخبر بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن طريق الوحي هى ربما أبعد مما ذكره المحللون لهذه اللفظة، فقد أعطى صلى الله عليه وآله وسلم تفسيراً واقعياً للفظه كربلاء، إذ ذكر فرات الكوفى فى تفسيره: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لفاطمة عليهما السلام: "يا بنتاه، ذكرت ما يصيبه بعدى وبعدك من الأذى والظلم والغدر والبغى، وهو يومئذ فى عصبه كأنهم نجوم السماء يتهاون إلى القتل، وكأنى أنظر إلى معسكرهم، وإلى موضع رحالهم وتربتهم، قالت: يا أبه، وأين هذا الموضع الذى تصف؟ قال: موضع يقال له: كربلاء، وهى دار كرب وبلاء..."(2)، نعم: لقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أرض كربلاء وقد نعتها بأرض كرب وبلاء قبل أن يدخل العراق إلى حظيرة الإسلام، وقبل أن تطأ أقدام المسلمين أرض العراق التى قال عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "يا بنى - أى الإمام الحسين - إنك ستساق إلى العراق وهى أرض قد التقى بها النبيون وأوصياء

ص:47

1- (1) ينظر: الحسين فى الفكر المسيحي، انطوان بارا / 313.

2- (2) دائرة المعارف الشيعية، حسن الامين، ج 256/9.

إذن (كربلاء) هي الأرض التي التقى عليها النبيون وأوصياؤهم، وشهدت أعظم معركة في التاريخ قتل فيها ذرية نبي الأمة صلى الله عليه وآله وسلم وهم حديثو العهد به، لا بد أن تكون أرضاً مباركة كرمها الله تعالى وشرفها على بقاع الأرض الأخرى حتى جاءت هذه التسمية مطابقة للفظ والمعنى (2).

وقد أعطيت أرض كربلاء مزايا عظيمة في الإسلام فكانت أرض الله المختارة، وأرض الله المقدسة المباركة، وأرض الله الخاضعة المتواضعة، وحرماً آمناً مباركاً، وحرماً من حرم الله وحرم رسوله ومن المواضع التي يحب الله أن يُعبد ويدعى فيها، وأرض الله التي في تربتها الشفاء. وهذه الأرض المباركة ذات الفضل الطويل والشرف الجليل، لم تتل هذا الشرف العظيم في الإسلام إلا بالإمام الحسين عليه السلام. "ولم يرتضِ الإمام الحسين عليه السلام من أسماء القرى التي أخبروه بها سوى اسم كربلاء. إذ عندما طرقت لفظتها مسامعه الشريفية.. ارتضاها من غير تأن فلم يكذب أن قال: "هي هي، هي هي، هي والله محط رحالنا ومناخ ركابنا ومسفك دماننا. ثم أمر بأثقاله فحطت وبسراذقه فأقيمت، ثم كان من أمره ما كان ليوم التاسع من نزوله سلام الله عليه كربلاء" (3)، ومن مزايا كربلاء أنها وصفت بأسماء كثيرة، هي أمّا أسماء عامّة للمنطقة التي منها كربلاء، فأطلقت من باب إطلاق الكلّ على الجزء كإطلاق الطفّ على كربلاء، أو هي أسماء لقرى مجاورة لكربلاء، فأطلقت أسماؤها على كربلاء أيضاً، "أما أسماء الأمكنة، فقد تمحورت حول اسم

1- (1) تفسير فرات الكوفى، ابن إبراهيم الكوفى / 35.

2- (2) ينظر: تفسير فرات الكوفى، ابن إبراهيم الكوفى / 35.

3- (3) من مرقد الإمام الحسين عليه السلام، السيد تحسين آل شبيب / 15.

كربلاء، مثل الطف، والغاضرية، ونينوى، والكوفة، والنوايس، وعمورا، والحائر، والعراق" (1) لارتباطها المباشر بالحدث، فضلاً عن أنّ تلك المواضع تحولت إلى رموز مجسدة للصراع بين الخير والشر، على الرغم من دلالتها الجغرافية المباشرة، فضلاً عن ارتباطها المباشر بموقف الحسين عليه السلام، مما جعل الشعراء يتشبهون بتلك البقاع بوصفها شواهد لتاريخ من الألم والحزن والثورة، ثمّ إنّ قرب الشعراء العراقيين من تلك الأماكن ساعد في أن تكون ملاذاً لتجاربيهم الشعورية الحزينة.

وبعد هذا الاستعراض التاريخي لمعنى كربلاء لا بد من الإشارة إلى أسمائها التاريخية التي تعرفنا بالمكان لأنّ تلك التسميات وردت في شعر شعراء العراق المعاصر بعد عام 1990 م عن وعى، ثم ننتقل إلى التحول الأول وهو المكان الطارد.

ص:49

1- (1) مع الركب الحسيني من المدينة وإلى المدينة، محمد جعفر الطبسي / 5.

المبحث الأول: أرض كربلاء وقداسته تُربتها عند الشعراء

لو نظرنا بعمق إلى ما يدور من حولنا في هذا الكون الرحب لوجدنا أنّ الله عز وجل قد فضل خلقاً على خلق، فالأرض فضلها على الكواكب فجعل فيها الحياة وشرفها بالأنبياء وأكرمها بهبوط الوحي، ثم خلق الماء فجعل منه فراتاً عذباً ومنه مالحاً أجاباً، وفضل التربة بعضها على بعض فمنها الأرض السبخة التي لا ينبت فيها الزرع ومنها الصلبة التي لا يخرج منها إلا الحجارة ومنها الأرض الطيبة؛ ولو نظرنا إلى أرض مكة، وأرض كربلاء لوجدناهما قد أعدّتا أن تكونا حرمين، فكربلاء ضمت جسد سيد شباب أهل الجنة، ومكة ضمت بيت الله.

إن أرض الحرمين (مكة المكرمة) و (المدينة المنورة)، هي الأرض المقدسة التي تهوى إليهما قلوب الناس، وأرض كربلاء، تهوى إليها قلوب المؤمنين، فهنا بيت وهنا بيت، وهنا حرم وهنا حرم أعظم، فلاريب أن أرض كربلاء مقدسة، شريفة، مباركة، أما لو أردنا البحث عن جزئيات هذه الأرض كالحرم، والحضرة، والجذث، والروضة، والضريح، والقبة، وموضع الرأس الشريف، والمشهد المقدم،

والتربة الطاهرة، والطين المقدس، فلا تكفينا هذه الصفحات. وقد عبر عنها الشاعر طالب الحيدري من (بحر الكامل) قائلاً:

من شاء أن يستاف أزكى تربةٍ فيها أريجُ التضحياتِ مُدافُ

في كربلاء المجدُ جمَعَ طيبهَ وسما فلم تنهض له الأوصافُ

من تربةٍ بدم الحسين تخضبتُ وزكتُ ألا فلينهل المُستافُ (1)

وهذا رأى شاعر فالمدينة المنورة حيث يثوى فيها النبي الكريم صلى الله عليه واله وسلم، ومكة التي لها مكانتها الرفيعة.

تمتاز تربة هذه الأرض المقدسة (كربلاء) عن سائر بقاع العالم بقدسيته الدينية السامية فكم أثنى عليها الشعراء والكتاب وأشادوا بها ورفعوها إلى المكانة اللانقمة والدرجات الرفيعة التي تستحقها. فهي الأرض التي قدم إليها الإمام الحسين عليه السلام وقتل فيها، فاختلطت التربة بدمائه الطاهرة وأهل بيته من العلويين الأبرار وقد نعتت الأرض بأنها قبلة الإباء ومكة قبلة الصلاة، ولذا فضلها الله سبحانه وتعالى على بقاع المعمورة كافة. فأرض كربلاء جديرة بالثناء والإجلال.

وقد عرض الشاعر أحمد الوائلي (2) صورة لكربلاء مطعمة بالنداء كي يشد انتباه المتلقى إلى هذه البقعة المباركة التي خلدتها ثورة الإمام الحسين، فيلفت انتباهنا إلى أهدافها عبر هدير من دماء زكية ظل صوتها مدوياً حتى الآن قائلاً:

ص: 51

1- (1) ملحمة كربلاء، قصيدة (لولا عطاء الخالدين)، طالب الحيدري / 111.

2- (2) أحمد بن حسون بن سعيد بن حمود الوائلي اللبني الكناني (1928-2003) هو رجل دين وأشهر خطيب حسيني وواعظ معاصر وشاعر وأديب عراقي حاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة القاهرة، ينظر: المجالس الحسينية لخدام العترة النبوية، د. الشيخ أحمد الوائلي / 7.

ويا كربلاء يا هدير الجراح وزهو الدم العلوى الأبي

ويا سفر ملحمة الخالدين بغير البطولة لم يكتب

ويا شفة بنشيد الدما تغرد عبر المدى الأرحب

ويا عبقاً فى ثرى العلقمى يشد الأنوف إلى الأطيب

ويا صرح مجد بناء الحسين وأبدع فى رصفه المعجب

سببى الحسين شعاراً على أصيلك والشفق المذهب (1)

كما عبر الشاعر على الفتال (2) عن حب الحسين عليه السلام وذكر تضحياته، لكن صور رمل كربلاء (المكان) متداخل طيبها وسناها وشذاها بعضها مع بعض فلم يعد تراب كربلاء كباقي تراب الأماكن، بل إن طيبه يعانق الدنيا، وضيائه يشرق، وشذاه يعم أرجاء المسافات التى تمتد منه إلى الأباطح قائلاً:

تجلت كربلا فسما سناها وطاب يُعانق الدنيا تراها

ففيها عطر من عبقت دماه فعطرت الأباطح من شذاها

حسين السبط من ضحى بنفس لتزدهر العقيدة فى علاها (3)

وهناك كثير من الأحاديث الواردة عن العترة النبوية صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين تتجلى فيها الخصوصية المكانية لتربة كربلاء. وبدت من خلالها

ص: 52

1- (1) ديوان الشعر الواله فى النبى وآله، قصيدة الجرح، ج 1/45.

2- (2) على كاظم حسن الفتال: شاعر عراقى من موالد كربلاء عام 1935 م عضو اتحاد الادباء والكتاب العراقيين، وفى الهيئة الاستشارية للثقافة والفنون بمحافظة كربلاء، وأمين عام لاتحاد الأدباء والكتاب فى المحافظة، وعضو اتحاد الأدباء والكتاب العرب، ديوان مخاضات الزمن/ 3.

3- (3) ديوان مخاضات الزمن، د. على الفتال / 53.

الحكمة فى تفضيلها على أرض مكة، بل على جميع بقاع الأرض، وأن الله حفظ بمن تضمنته تربة كربلاء، وهو الإمام الحسين عليه السلام شريعة جده المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

ففى اليوم الذى وصل فيه الركب الحسينى الطاهر إلى أرضٍ قاحلةٍ تقع على نهر الفرات، التفت الحسين إلى أصحابه وقال: ما اسم هذا المكان؟

قالوا: كربلاء دمعت عيناه وقال: (... هذا موضع كرب وبلاء هاهنا مناخ ركابنا، ومحط رحالنا وسفك دماننا...)(1)

وحيثما نستمع إلى قصة وصول (كوكبة الحق) إلى أرض كربلاء بالتفصيل ينبغى أن ندرك أن ذلك هو الإعلان للواقع الخارجى عن بدء الكشف عن سر أرض كربلاء وعظمتها ومكانتها وعلوها ورفعتها، وكيفية تحولها من مكان مجذب صحراوى إلى روضة من رياض الجنة بفضل الله سبحانه وتعالى، وبفضل الدماء الطاهرة التى سفكت على ثراها.

كما شاءت إرادة الله جل وعلا أن يجعل من بعض الأزمنة والأمكنة بركات وفيوضات، كذلك أولياته لهم فيوضات، وهذا ما لا شك ولا شبهة فيه للتنصيص عليه من الكتاب الذى لا يأتىه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ومن الأمثلة المذكورة للتشريف الزمنى لَيْلَةُ الْقُدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ 2، ومن الأمثلة المذكورة للتشريف المكانى فى القرآن الكريم هو قوله سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ.. 3.

ص: 53

وقد وردت الاستعارة القرآنية بتشريف المكان في الكثير من كتابات الشعراء كقول السيد محسن الأميني فيها:

هذه كربلا فقف في ثراها واخلع النعل عند وادي طواها

فاخرت كعبة الحجيج فكانت أشرف الكعبتين قدراً وجاهاً(1)

ولقد باتت كربلاء منذ مقتل الإمام الحسين عليه السلام على أرضها تزخر بالقيم والمثل والمعاني السامية وبأخلاقيات البطولة والشهامة والإباء والرجولة وأدبيات النهضة الهادفة لنصرة الحق ودحر الباطل، لذا كان لا بد والحالة هذه من أن تستلفت أنظار دعاة الحق وطلاب العدل ورسل الفضيلة وأن تجتذب إليها كل المؤمنين والمتشوقين لنيل الفوز الدنيوي والأخروي.

وأنّ "المثل العليا التي ناضل من أجلها الإمام الحسين عليه السلام بما فيها صلاح الناس كل الناس، ظاهرة في الشعر العربي القديم، والوسيط، والحديث، على لسان الشاعر الناظم باللغة العربية غير مقتصرة على الموالي لأهل البيت عليهم السلام، بل تعداه إلى غير المسلم، كما انها غير منحصرة بالعراق الأرض التي استشهد فيها الإمام الحسين عليه السلام عام (61 هـ -).

ولذلك استحق النظم الحسيني على لسان المسلم وغير المسلم، العراقي وغير العراقي، أن يكون ظاهرة أدبية لم تسبقها ظاهرة في مجال الآداب العالمية، فما من أدب منشور أو منظوم لشعوب الكرة الأرضية إلا والمشهد الحسيني حاضر فيه(2). ولما كانت أرض كربلاء هي المحتوى المكاني له، فقد كان هذا تحولاً إيجابياً مباركاً

ص:54

1- (1) ديوان لواعج الأشجان، محسن الاميني / 6.

2- (2) الظاهرة الحسينية في الشعر العربي د. إبراهيم العاتى / 45.

وقد عرف الشعراء بمكانة كربلاء المقدسة فى أشعارهم ويبنوا فضلها على باقى المناطق كما فى قول الشاعر محسن الأشيقر* (1):

بالكعبة الشماء مولد ديننا وبكربلاء تعاضم الإسلام

يا كربلاء أما رأيت أما جداً حلوا بأرضك هم لنا أعلام

ببيتهم نزل الكتاب وفيهمو صلى عليهم ما جرى الاقلام

قتلوا الحسين وصحبه وبنيه لم ينج إلا من به أسقام (2)

كانت شهادة الإمام الحسين عليه السلام فى كربلاء المقدسة تحمل رسالة ناطقة بين طياتها منطق العقل والمنطق المستنبط من واقع الدفاع عن الحق ورفض للظلم مهما كانت عقيدته ومذهبه وقوميته.

والحق مهما كان من آراء المؤرخين تبقى كربلاء الأرض المباركة التى كرمها الله تعالى حيث ضمت بين جنباتها الجسد الطاهر لريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وامتزجت تربتها مع دماء العترة الطاهرة من آل الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابهم الكرام (3).

وقد نالت كربلاء الحسين عليه السلام اهتمام الأدباء والشعراء والمؤرخين، والكتّاب، والمفكرين من مختلف البلدان العربية والإسلامية والأجنبية. "وأصبحت

ص: 55

1- (1) * محسن مصطفى الأشيقر شاعر معاصر، ولد فى كربلاء سنة 1932 م، حاصل على شهادة البكالوريوس فى اللغة العربية، وله

ديوان بجزأين، ينظر: ديوان الأشيقر، ج 5/1.

2- (2) ديوان الأشيقر، محسن مصطفى الأشيقر / 24.

3- (3) ينظر: ملحمة الخلود واقعة الطف، عبد الإله عبد الرزاق الحسنى / 65.

ثورته النور الساطع الذي يبين درب أصحاب الأقدام وأرباب الفكر والسياسة لما لها من فضل كبير في تحرير البشرية جمعاء من العبودية والذل.

فهى الثورة التى نادى لا للذل، ولا للخنوع، ولا للعبودية، ولا للظلم، ولا للطغاة والجبابرة. ونادى بنعم للحرية، والمساواة، والعدل، وتطبيق الشريعة السمحاء. كما استلهم منها الأدباء والكتّاب والفلاسفة ورجال الحكم والسياسة العظات الكثيرة"[\(1\)](#).

ومن هنا قال الأستاذ عباس محمود العقاد فى فضل أرض كربلاء المقدسة: "إنها حرم يزوره المسلمون للعبرة والذكرى ويزورها غيرهم للنظر والمشاهدة، ولو أعطيت حقها من التنزيه والتخليد، لحق لها أن تصبح مزاراً لكل آدمى يعرف لبنى نوعه نصيباً من القداسة وحظاً من الفضيلة، لأننا لا نذكر بقعة من هذه الأرض يقترن اسمها بجملة من الفضائل والمناقب أسمى وألزم لنوع الإنسان من تلك التى اقترنت باسم كربلاء بعد مصرع أبى الشهداء"[\(2\)](#) فأرض كربلاء كانت قبل الإسلام نواويس ومساجد ومرافق للأمم الغابرة، كما يشعر من كلام الإمام الحسين بن على عليهما السلام فى إحدى خطبه المشهورة حيث قال: "وكأنى بأوصالى هذه تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء"[\(3\)](#). وهذا الكلام يوحى بأنها مكان موحش طارد يكثر فيه الحيوانات المفترسة، ولكن بعد الواقعة تحولت إلى شىء آخر.

ص:56

1- (1) ينابيع المودة، للقندوزى، ج 12/3.

2- (2) أبو الشهداء، عباس محمود العقاد / 145.

3- (3) ينابيع المودة، القندوزى، ج 13/3.

وإذا كان الأفضل السجود على الأرض المقدسة، فأى بقعة من بقاع الأرض أفضل وأطهر من تلك التربة التي ضمت جسده الشريف؟ فما ذاك إلا- لأنها أكرم البقع مادةً وأطهر عنصراً وأصفى جوهرًا من سائر البقع، كيف وقد انضم شرفها الجوهري إلى طيبها العنصري، ولما تسامت الروح والمادة، وتساوت الحقيقة والصور صارت هي أشرف البقع في الأرض بالضرورة(1).

لقد وقف الشاعر العراقي المعاصر، أمام هذه المشاهد والتأملات قبل الواقعة وبعدها، فصورها في بادئ الأمر طاردة، لأنَّ الحقيقة كانت هكذا، ولكن بعد أن تشرفت بالدماء الطاهرة تحولت إلى أرضٍ مباركة مقدسة بفضل الله سبحانه وتعالى وبفضل الدماء الزكية الطاهرة.

ص:57

1- (1) ينظر: معالم إنسانية في نهضة الإمام الحسين عليه السلام، جعفر الحائري / 38.

المبحث الثاني: تحولات المكان الحسيني (الكربلائي) في الشعر العراقي

استلهم الشعراء واقعة كربلاء بفضاءات شعرية واسعة، لأنّ الحدث عظيم ومهول ولاسيما الذين وظفوا حادثة كربلاء في الحياة المعاصرة بأساليب فنية جديدة وصاغوا نماذج أدبية رفيعة تتضح كالجرح المدمى وبالألّم العميق المتجذّر في الوجدان فكانت كربلاء رمزاً للشهادة والتضحية في الشعر العربي وقد زادت نصوص الشعراء ثراءً بفضل كربلاء، مستلهمين معاني عاشوراء في الثورة والاستشهاد.

لقد استلهم عبد الرحمن الشرقاوي مادة مسرحيته (الحسين ثائراً) و (الحسين شهيداً) من تراجيديا كربلاء وصاغها بأسلوب فني مسرحي عكس فيها صدق المعاناة في الدفاع المستميت عن المبادئ والقيم الإنسانية الرفيعة في الثورة والاستشهاد بأسلوب درامي محكم، كما استطاع بمهارة وإبداع إبراز الصراع بين الإمام الحسين عليه السلام ويزيد وما يعكسه من تناقضات في المبادئ والمصالح والأهداف التي تعكس في الوقت نفسه فلسفة عاشوراء وأهدافها في الرفض والتضحية والفداء من أجل المبدأ والعقيدة⁽¹⁾، كما كانت واقعة عاشوراء خير

ص:58

1- (1) ينظر: واقعة كربلاء في الأدب العربي المعاصر، حسن هادي/44.

درس معبر عن أرادة الأمة وقيمها في كل زمان ومكان، فقد كان الشاعر والأديب والفنان يعبر عن شدة ارتباطه بقضية الإمام الحسين عليه السلام فيشير بوضوح الى حضور قيم عاشوراء في أعماله فلم تكن عاشوراء مجرد حادثة تاريخية عابرة وإنما كانت ثورة لها أبعادها الدينية والسياسية والفلسفية والفكرية التي تضمنت مفهومات وقيماً إنسانية عليا هي أساس خلودها عبر العصور، وقد انعكست هذه القيم والمفهومات في الأدب والشعر والفنون الأخرى فاستحضرتها الشعراء والأدباء والفنانون بشكل مباشر أحياناً وغير مباشر أحياناً أخرى، ووظفوها في معالجة المشاكل الراهنة بحيث أصبحت سمة بارزة من سمات الهوية الثقافية التي غذت الحركة الأدبية والفنية بخبرات وتجارب غنية، وطبعت إنتاجها بمسحة من الحزن والألم مثلما تحولت الى نماذج معاصرة في التضحية والفداء.

وقد وُظف بعض الأدباء والشعراء والفنانين واقعة كربلاء بوصفها حدثاً تاريخياً الى فضاءات أوسع تزامنت مع روح العصر فكانت الصلة نابضة حيّة بين أمس واليوم، وقد ذكرها الشعراء منذ الواقعة في عام 61 هـ - وما زالوا يتذكرون تلك البقعة الملتهبة التي روتها دماء الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه. كما أن المكان يمثل لدى الشاعر مفصلاً من المفصلات التي يعلق عليها ذكرياته، ويعزو إليها سبب آلامه وأحزانه، لأنها برأيه قد شاركت من دون أدنى شك بالنتيجة الحتمية، فهي حاملة الذكرى الحزينة والمفرحة، فلا غرو أمام هذا الاعتبار أن يحظى المكان بمكانة متميزة لرؤى وخيال الشاعر فنظرة الشاعر إلى المكان تختلف عن نظرة الإنسان الاعتيادي فهي بعض من أجزائه وجزء من كليته المجتمعة بروحه وجسده(1). إن كربلاء أرض تشرفت بالحسين وآله ولولاه ما كانت ولن تكون.

ص:59

1- (1) ينظر: شعر رثاء الإمام الحسين عليه السلام في العراق ابتداءً من سنة 1100 هـ - حتى 1350 هـ -،

لقد رسم الإمام الحسين عليه السلام تلك اللوحة الرائعة التي تتوجها بلون الدم القاني، وقد وظف الشعراء تلك اللوحة بخطوطها وانحناءاتها وألوانها في شعرهم منذ مصرعه الشريف حتى الوقت الحاضر. فأصبح الرمز الحسيني مادة للأدباء والفنانين وكل ما يتعلق بكربلاء... وطفها، وعاشوراء من خلال قصائد الشعر ومدن الكلمات والجراح(1). ومنذ فاجعة كربلاء سجل الشعر حضوره، واستطاع الشعراء تسجيل مواقفهم بعداً أو قريباً من تلك الفاجعة وكان للشعراء العراقيين المعاصرين قصائد رائعة في تخليد الإمام عليه السلام، إن أروع القصائد التي كتبها طوال مسيرتهم الأدبية والشعرية كانت حسينية الطابع وقد حوت السهل الممتنع من الكلام والمعنى الذي يحرك المشاعر الإنسانية ويفجر في داخل النفس مشاركة وجدانية مع مصيبتة، بل إن تلك الكلمات تكاد تكون رسالة تحمل بين جنباتها صيحة مدوية يطلقها الإمام الحسين عليه السلام في كل حين وفي كل مكان بوجه الباطل وبوجه الظلم والطاغوت والجبروت(2).

إن كربلاء برمالتها المجذبة وهجيرها، وحر عاشورائها وجفافها، ووحشة ليلها وقساوة نهارها، كانت الإطار المكاني الذي ضم كل ذلك، فتداخلت في وجدان الشاعر وصارت كربلاء تستحضر كل صور المأساة بمجرد حضور اسمها بحروفه الستة.

وهذا الشاعر طالب الحيدري يصدق بأهمية كربلاء المقدسة بالنسبة لبقية الأماكن ويربط ربطاً مثيراً للدهشة مشبها إياها بسورة الفاتحة مع بقية سور القرآن الكريم، وبغض النظر عن فضل فاتحة الكتاب على بقية السور الكريمة، فإنها هي

ص:60

1- (1) ينظر: آل البيت في شعر مهيار الديلمي، حيدر عبد الحسين مير زوين / 25.

2- (2) ينظر: آل البيت في شعر مهيار الديلمي، حيدر عبد الحسين مير زوين / 25.

أول ما يبدأ به القرآن، وعليه فإنّ مفتاح المكان بين الأماكن على الأرض هي كربلاء فيقول:

يا "كربلاء" لأنّ للبلدان كالحمدِ أم الآيِ في القرآنِ

ما في رسالات السماء من الرؤى ومن المعاني زِدْتِهِنَّ معاني

ورسمتِ للأجيالِ أروعَ صورة بدم الرجالِ وأدمعِ النسوانِ (1)

إنّ المكان الكربلائي أسس بمفرداته الجغرافية الحديثة رمزاً للأسى والجراح والحزن والندم، وقد أخذ الرمز ببعديه التاريخي والشعبي حيناً في جملة من القصائد، وكانت صور الخيم والرؤوس والعطش والمأساة منقّرة على لسان الشاعر كاظم عبدالله العبودي * (2) حين قال:

ومن رأى فتية صرعى كما شهبٍ

ألقت رحالَ الفدى مثل الندى ترفا

تسمو دماؤهم جادوا بها شغفاً

على ثرى "كربلا" فوق الذرى شرفا

يا مَنْ رأى لبوةً ترتاع والهةً

ثكلى وتدفع عن أشبالها العسفا

وصبيبةً راعها أن تستجير بمن

من روعها انتفخت أوداجُهُ صلفا

ص: 61

1- (1) ملحمة كربلاء، من قصيدة (يا بنت زينب)، طالب الحيدري / 200.

2- (2) * كاظم عبد الله العبودي، شاعر عراقي مواليد 1952 م صدر له العديد من الدواوين الشعرية، عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق. لقاء شخصي في 2013/5/10.

وحرّة هرعّت لم تدر أين وما

ملاذها وجفت والبغى ما وجفا

وخيمةٌ ثلّ من أوتادها عمدٌ

وحرّقت كفّ عاتٍ ركنها سرفا(1)

لقد تغيرت سمات المكان في هذه الأبيات فلم يعد ذات أبعاد جغرافية محضنة بل تحول ما برز فيه من أحداث ومأساة سمةً يغرق بها رمل كربلاء.. فرمال كربلاء هي بالبعد المكاني فتية صرعى ودماء ولبوة تدافع عن أشبالها وصبية مروعون وصبايا هائمات على وجوهن وخيمة محروقة الأوتاد.. هذه هي إذن مفردات المكان الطارد في الجغرافيا الكربلائية.

لقد برز التحول المكاني في صور توصيف مأساة مقتل الإمام الحسين عليه السلام وما حلّ بأهل بيته وأصحابه التي جسدها الشاعر فليح الركابي * (2) في واقعة الطف بعد حدوث المأساة، فكان مكان الفاجعة مؤثراً في النفس ومكاناً طارداً منفراً لأنّ البقية الباقية فيه نساء وأطفال دون رجال، ويحيطه الخوف والقتل، وسكانه الأيتام والأرامل فهذه الصورة المنفّرة الطاردة للمكان تحدثت عن آثار الفاجعة بعد انتهاء عمليات القتل والسلب والحرق حين انعدمت أبسط المقومات الإنسانية عند عدو كافر جاحد فعقد الشاعر مقارنة بين الصورة المنفّرة وبين موقف جنود الأعداء قائلاً:

ص:62

1- (1) وعيون الهواشم أغلى، كاظم عبدالله العبودي / 35.

2- (2) * د. فليح الركابي: شاعر عراقي وأستاذ في كلية الآداب جامعة بغداد، صدر له العديد من الدواوين الشعرية والدراسات الادبية المعروفة. لقاء شخصي في 2013/6/15.

نساء

وخوف

ويتم

وليس مع الركب من ناصرٍ أو حمى

سياط

وسبى

تذوق

ولوعة من أخسٍ ومن مجرم (1)

المكان موحش والصور معبرة عن هول المأساة بإيقاع بصرى متوال فيه نواح وسبى وخوف ويتم، كل ذلك مكان طارد مفعم برائحة الموت التي تداخلت به وصارت تبعث من بين حروف كلمة كربلاء.

إن المتتبع لمراحل التاريخ الإسلامى يجد الكثير من الحركات التي تبنت الدعوة إلى تنقية الفكر والعقيدة والواقع وإصلاحه، لكنها كانت على الدوام تقع فى إشكالية الفهم التجزيئى للإسلام، وقد تبلورت من الواقع الاجتماعى رفض سلطة الإستبداد كنتاج مهم وحيوى من ثورة الإمام الحسين الفكرية، وكفاحه النضالى على أرض كربلاء الذى يسمو بنبل أهدافه فى سبيل الإصلاح والعدل الاجتماعى متطلعاً الى حياة حرة أفضل بلا اضطهاد واستغلال للإنسان (2)، ومن

ص: 63

1- (1) منامات مستيقظة، د. فليح الركابى / 83.

2- (2) ينظر: الإمام المفكر محمد باقر الصدر "دراسات فى حياته وفكره"، تأليف نخبة من الباحثين/ 83.

ألفاظ المكان الطارد المنفّر التي جسدها الشاعر سبتي الهيّتي * (1) بعد واقعة الطف في كربلاء قوله:

ومن يكتب الشعر، إلا الدّم

النازف اليوم في كربلاء

والضحايا من الأبرياء

تقوم قيامتهم

كل يوم يمر

على عرصات الفرات

حيث يجوس البلاء.

يا أمير النقاء.. (2)

لقد تمخضت رؤية الشاعر عن حقيقة هي أن الغايات السامية لا تتحقق إلا بالتضحية الكبرى، وهذا ما قدمه الإمام الحسين عليه السلام الذي ضربت فيه أمثالٌ بلغت أقصى حدود السمو في التضحية والفداء وأوضحت المعالم البارزة للسبل التي يجب أن تكون منهجاً لعبور العقبات والصعاب في هذه الحياة. فكانت كربلاء مكاناً تتطير فيه الأشلاء وتفوح منه رائحة الدماء وهذا المكان بدا طارداً ومنفراً من خلال استعراض صورة الدم التي تلبس بها، والضحايا الأبرياء، والبلاء الذي حلّ بآل الرسول صلوات الله عليهم أجمعين.

ص: 64

1- (1) * سبتي الهيّتي شاعر عراقي مواليد 1945 م، صدر له العديد من الدواوين الشعرية، عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب، لقاء شخصي 2013/7/15.

2- (2) ذاكرة الخلود (ديوان المراثي)، سبتي الهيّتي / 160.

ويتوج الشاعر جابر الجابري * (1) جهده الشعري بتاج كربلاء حين يشكل المكان في ذهنه شيئاً آخر... كائناً حياً واعياً لا بد أن يحمل تفسيراً لما كان فراح يسألها قائلاً: أما ارتويت؟! أما شبعت من الدماء؟! وهذه كناية عن غزارة ما أريق فيها من دماء، ثم يصورها بودقة تصهر كل دعاة الصلاح وطلاب الحق، لقد كانت كربلاء دماً وقتلى وأن النفس الإنسانية تحاول أن تنفر من هذا المكان الدامي، فكانت صورة الشاعر مرعبة حين صورها بالمصهرة التي أذابت أرواح الشهداء فبدت مكاناً طارداً ومرعباً أول الأمر قائلاً من البحر الكامل:

يا كربلاء.. أما ارتويت من الدماء؟

أما شبعت من الدماء.. لا.. ليس ترويك الدماء

يا منجماً صهرت به أرواح كلّ الأولياء

يا تربة.. سجدت على أشواكها الحمرا جنباه الأنبياء

لا.. ليس ترويك الدماء(2)

وبالرغم من أن كربلاء أصبحت رمزاً وأنموذجاً للتضحية والفداء والثبات على العقيدة والمبادئ فكانت منهلاً ثورياً ينهل منه كل الذين يرسمون لمسيرتهم طريقاً لمقارعة الظلم والطغيان ودك عروش الظالمين والطغاة وإسقاطهم، فإن ذلك ما كان ليكون لولا أصوات المظلومين الصاعدة إلى السماء شاكية باكية حمراء

ص:65

1- (1) * السيد جابر محمد الجابري من مواليد عام 1378 هـ - بمدينة النجف الأشرف. نشأ وسط جو ثقافي وأدبي في النجف الأشرف، وبدأ حياته الأدبية الشعرية باكراً، له قصائد كثيرة في حق أهل البيت عليهم السلام، فهو يستلهم حياته وجهاده وأدبه وكذلك شعره من أهل البيت عليهم السلام، جريدة المؤتمر، ع/16/2878 كانون الأول 2013 م.

2- (2) الجرح يا لغة القرآن، جابر الجابري / 12.

لتنطلق في رحاب التحرر الغيبي والإلهي فتكون الإعصار الذي به تنهار عروش الظلمة المتجبرين ولولا الأشلاء وبرك الدماء ولولا عاشوراء ولولا ما قدمه الحسين عليه السلام.. أى أن كربلاء كمكان طارد لم يكن مجرد فراغ استوعب حدثاً بل كان المكان الطارد الذي يتولد بين أحشائه مكان جاذب وهذه سمة جديدة للمكان الطارد.. إن المكان الطارد في هذه المقطوعة يتفاعل مع الزمن الطارد (عاشوراء) وكلاهما ينتجان مكاناً جاذباً وزمناً جاذباً.

وقد صور الشاعر طالب الحيدري ما حدث قائلاً:

تَصَاعَدُ الْأَصْوَاتُ لِلسَّمَاءِ

شَاكِيَةً بِأَكْيَافِ حَمْرَاءِ

كَأَنَّهَا الْإِعْصَارُ

وَكُلَّ حَرْفٍ نَابِتاً مَسْمَاوِ

فِي قَدَمِي جَبَّازِ

لَا بُدَّ أَنْ تَنْهَازِ

أَرَانِكُ قَامَتِ عَلَى الْأَشْلَاءِ

سَابِحَةً فِي بَرَكَ الدَّمَاءِ

بِفَضْلِ عَاشُورَاءِ

بِفَضْلِ إِرْهَاصَاتِ كَرْبَلَاءِ

بِفَضْلِ مَا قَدَّمَهُ الْحُسَيْنُ (1)

ص: 66

وفى صور أخرى للشاعر عبد الرزاق عبد الواحد* (1) الذى صور فيها مفردات المكان الكربلائى ومكوناته وملامحه حين صور المأساة وما تعرض له الإمام الحسين عليه السلام من انتهاكات لحرمة كالتعذيب، أو الضرب بالسياط والذبح قاتلاً:

أَلَسْتَ الذى قَالَ للِبَاتِرَاتِ

خُذِينِي.. وَلِلنَّفْسِ لَا تُهْزِمِي؟

وطفاف بأولاده و السيوف

عليهم سوازٌ على معصم

فَصَبَّحَتْ بأَصْلَعِهِ الكبرياء

وصاح على موته: أقدم! (2)

فالمكان الكربلائى هنا يتكون من الحسين الأبي الصامد المضحى وأولاده المنحورين بالسيوف وقفة الثبات التى لم تفارق الحسين عليه السلام حتى النفس الأخير.

ويرى الشاعر الدكتور أحمد الوائلى أن كربلاء كبعد مكاني ذى بعد زمانى لم ينقطع بل ظل ممتداً زاحفاً إلى كل مكان وزمان حيث إن ما احتوته كربلاء هو رسالة حسينية تتخطى القرون وتهدم السدود لتصل إلى القلب، وتبعث الحياة فى كل ضمير، حيث انبثقت من أرض كربلاء، فغطت بسناها مشارق الأرض ومغاربها.

ص: 67

-
- 1- (1) * عبد الرزاق عبدالواحد: شاعر عراقي معروف ولد فى بغداد عام 1930 م تخرج فى دار المعلمين (كلية التربية) عام 1952 وعمل مدرساً للغة العربية فى المدارس الثانوية، شارك فى معظم جلسات المريد الشعري العراقي.
- 2- (2) من مجرة الأئمة فى رحاب الحسين عليه السلام، عبد الرزاق عبد الواحد/ 22.

يا أبا الطّف يا نجيعاً إلى الآن تهادى على شذاه الرّمول

توّج الأرض بالفتوح فللرّم على كلّ حبةٍ إكليل

أرجفوا أنّك القتيل المدمّى

أوَمّن ينشئ الحياة قتيل؟! (1)

إن الشاعر الواصل رسم كربلاء متداخلة بين المشهد الطارد والجاذب فالطف نجيع ذو شذا توج الأرض بالفتح وبأكليل النصر وواهب دائم للحياة.

إن الدم صورة طاردة وهو أحد مفردات المكان الطارد الذى يجعل المكان مخيفاً، لكن دماء الحسين عليه السلام كانت حافزاً للثورة ودليلاً لها فيما بعد. فالشاعر عبد الرزاق عبد الواحد قدم صورة الاختصاب، وكسر الصدور الشريفة وهى صورة تثير الإنسان الغيور.

سلامٌ عليك فأنت السلام وإن كنت مختضباً بالدم!

وأنت الدليل إلى الكبرياء بما ديس من صدرك الأكرم

وإنك مُعتصم الخائفين أيا من من الذبح لم يُعصم (2)

إن الشاعر عبد الرزاق عبد الواحد يرسم فى هذه الأبيات صورة جديدة للمكان الطارد وهى صورة المكان الذى تبرز فيه المتناقضات بشكل واضح مكونة صورة ذات أبعاد جديدة وذات تعابير ملهمة، فالسلام فيها مختضب بالدم، والكبرياء بما ديس من الصدر الأكرم، وعصمة الخائفين بالذبح.. إن صورة مثل هذه الصورة لهى تحمل فى طياتها نظرية صراع الأضداد التى دائماً ما تفتح عوالم

ص: 68

1- (1) حديث الجراح، لأحمد الواصل / 22.

2- (2) من مجرة الأئمة فى رحاب الحسين عليه السلام، عبد الرزاق عبد الواحد / 22.

جديدة أرقى وأفضل.

وتعبّر الصورة الطاردة للشاعر عبد الأمير خليل مراد* (1) عن عناصر منقّرة ومخيفة حدثت على أرض كربلاء الحسين قاتلاً:

لو أننى صدرتُ بوحى وانتخبت

كربلاء

لقلت: يا تعاستى من زمنٍ

نحوسه عقيمة...

وخلدهُ فناء

هذا الفرات جرّةً يندبها

الذبيح

يسيل رهو الماء من شقوقها

كأنه الصلال فوق الشفة

الزكية

فتورق القضية

الدهر... غاضرية

الدهر... غاضرية(2)

ص:69

1- (1) * عبد الأمير خليل مراد شاعر من الحلة مواليد 1954 م له العديد من الإصدارات الشعرية عضو الاتحاد العام للأدباء فى العراق.

2- (2) الضحك من الايام الاتية، عبد الأمير خليل مراد / 87.

فالعطش والذبح، والحرمان، عناصر طاردة والمكان مخيف أول الأمر لكنه بعد ذلك أصبح مورقاً لأنها الثورة والانتصار إنها ثورة الإمام الحسين عليه السلام التي حولت المكان من حالة سلبية إلى حالة إيجابية. فضلاً عن أن الشاعر يوحد بين البعدين المكاني والزمني ولما كان البعد المكاني محدداً (بالغاضرية) والبعد الزمني (الدهر) غير محدد فالمعنى الذي يريد أن يقرره الشاعر هو أن المكان (كربلاء) استطال زمنياً ليكون حاضراً في كل الأزمنة.

تعتبر واقعة الطف من أكثر المعارك جدلاً في التاريخ الإسلامي فقد كان لنتائج المعركة وتفاصيلها آثار سياسية، ونفسية، وعقائدية ما تزال موضع جدل لاسيما في طريقة إحياء ذكرها إلى الفترة المعاصرة، حيث تعتبر هذه المعركة أبرز حادثة من بين سلسلة من الوقائع التي كان لها دور محوري في صياغة طبيعة العلاقة بين المسلمين عبر التاريخ وأصبحت معركة كربلاء وتفاصيلها الدقيقة رمزاً للشجاعة ومن أهم مرتكزاتها الثقافية(1).

وفي المشهد الكربلائي أنواع شتى من عذابات الإنسان في اجواء القيظ والعطش، والقسوة، والقتل الجماعي، وحز الرؤوس، وهناك مأساة الجنون البشري، ومأساة الخيانة، ومأساة القتل المجاني، وكذلك مأساة المروءة والفضيلة.. الحسين عليه السلام اكبر من الحياة، ولعل لكبره هذا وعلوه خارج الدائرة التي يمكن للمرء ضمنها أن يتوحد مع البطل رغم تطلعه إليه ولذا يكون التعبير الفني عنه قاصراً على مداه الفاعل.

وحاكي الشاعر الدكتور الشيخ أحمد الوائلي أرض كربلاء التي احتضنت جسد الإمام الحسين الطاهر، ويطلب منها إيصال سلامه للحسين عليه السلام،

ص:70

1- (1) ينظر: من وحى الثورة الحسينية، هاشم معروف الحسيني / 47.

وأن تسكبه دمة على رمالها، إن المكان الصحراوي منفر للإنسان لأنه يفتقد لأبسط مقومات الحياة وتلك رملة كربلاء فى بادئ أمرها أرض جرداء، لكن ما الذى يجعل ملامح المكان حتى يتوسل الشاعر بالرمل ويسأله أن يبلغ سلامه وأن تحمله استغاثة وتسكبه فوقها دمع محبة وولاء.. وإن احتضان الرمل جسم الحسين هو المسبب إذن! فرمال كربلاء لا كباقي الرمال، والمشهد المكانى ليس كبقية الأماكن وإن كانت تضاريس المكان صحراء مقفرة ورملة سمراء.

أيها الرملة التى حضنت جس - - م حسينٍ ولَفَعْتُهُ رداءً

بلَغى عنى السلام حسيناً واحملىنى استغاثةً ونداءاً

واسكبنى دمعاً على رَمَلِكِ الآ سر يجرى محبةً وولاءاً(1)

إن معركة الإمام الحسين عليه السلام فى أرض كربلاء مع قوى الباطل وشهادته وشهادة أصحابه وما تعرض له من ظلم وجور، لم يمنعه من أن يبذل دمه الطهور، موقناً أن هذا الدم هو الذى سيحقق لقضيته الانتصار والخلود، فكانت كربلاء بوصفها رقعة جغرافية مكاناً ذا مواصفات طاردة تتداخل فيها مواصفات المكان الجاذب.

لقد تجلى الظلم بأبشع صورة له يوم عاشوراء، فالإمام الحسين عليه السلام لم يكن يقاتل أناساً، بل كان يقاتل مجموعة من الوحوش التى نزعَتْ عنها الضمائر الإنسانية وأفرغت من قلوبهم أبسط معانى الرحمة والإيمان فلم يكنفهم ما فعلوا بالإمام وبأهل بيته وأصحابه من قتل وسلب حتى أغار أولئك الوحوش على مخيم الإمام الحسين لسلب من فيه وترويعهم وإرهابهم، وجلدهم بالسياط، وكان مشهداً منفراً مأساوياً جديداً فضلاً عن ذلك أوعزت القيادة العامة إلى الجند بحرق

ص:71

خيام آل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَحَمَلُوا مَشَاعِلَ مِنَ النَّارِ وَهُمْ يَنَادُونَ: احْرَقُوا بِيُوتَ الظَّالِمِينَ(1).

ومهما صور الشاعر المأساة على رمال كربلاء بدقة مجسداً بشاعة العدو الذي حرق الخيام وقطع الرؤوس وسبى النساء والأطفال... فإنَّ المشهد الكربلائي لا يكتمل إلا إذا وطئت ثراه بطلة الرمل الكربلائي السيدة زينب بنت علي عليهما السلام.

لقد كانت زينب سلام الله عليها بطلة كربلاء، والمرأة الشجاعة الباسلة التي قامت بواجبها الإلهي الإنساني، في طف كربلاء ولم ترهب الملوک والأمرأ ولا الجنود والعساكر تلك السيدة التي يصعب وصف دورها، فبقدر صبرها تتألم وبقدر ألمها تصبر!(2) ، وليس بغريب على تلك الذات العملاقة التي التقت فيها الأنوار الثلاثة: نور محمد وعلي وفاطمة عليهم السلام ومن تلك الأنوار تكونت شخصيتها اذ تجسد بمواقفها خصائص النبوة والإمامة وأمها الزهراء التي امتازت بتفضلها على نساء العالمين وهي كما يراها الشاعر طالب الحيدري:

يا بنتَ زينبَ ما نسينا زينباً يوماً وموقفها الشجاعَ الباني

هي خيرُ مدرسةٍ توطدُ عالماً أسمى بلا وهنٍ بلا أدراهِ

هي صورةُ امرأةِ الكمالِ كأمها في كلِّ مجتمعٍ وكلِّ زمانٍ(3)

وكان من عظيم إيمانها وإنابتها إلى الله تعالى أنّها في اليوم العاشر من المحرم وقفت

ص:72

1- (1) ينظر: كامل الزيارات، ابن قولويه، 289، باب 24/91.

2- (2) ينظر: كربلاء ورموزها في الشعر العراقي الحديث، د. صدام فهد الاسدي، عبد الحسين برغش عبد علي / 53

3- (3) ملحمة كربلاء، (يابنت زينب)، طالب الحيدري / 201.

على جثمان أخيها، وقد مزّفته سيوف الكفر، ومثلت به العصابة المجرمة، فقالت كلمتها الخالدة التي دارت مع الفلك وارتسمت فيه قائلةً:
"اللهم تقبل هذا القربان"⁽¹⁾

ولولاكِ لم ينتصر في الطفوف أخوك لدى الجولة الحاسمة

وقدمته هبة للسماء وأنت على شلوه جاثمة

فيا ترجمان بطولاته وبسملة النصر والخاتمة⁽²⁾

إن اللسان ليعجز عن وصف شجاعة تلك المرأة المجاهدة، وأن اللغة على سعة مفرداتها لتضيق عن وصفها وعن التعبير عما ينطوي عليه الإنسان من الشعور نحو المرأة الكبيرة والقُدوة التي وقفت بصلابة في أرض الطفوف ساندةً أخاها الحسين عليه السلام.

واستتبط الشاعر على الفتال مزايا وسجايا السيدة زينب عليها السلام بقصيدة عنوانها (الموقف) قائلاً:

لك في الطفوف مواقف ومواقف يابنت من دمه طفوناً نازف

سيظل يرتشف الزمان آوارها ولها العقيدة في المدى لمراشف⁽³⁾

وهناك الكثير من الأبيات التي تصف شخصية السيدة زينب عليها السلام ودورها القيادي في كربلاء، وما جاء في عظمتها يرجع إلى المشيئة الإلهية التي تربت وتغذت بها تحت سقف نبي الهدى⁽⁴⁾.

وللشاعر المعاصر رؤىً جديدةً وآفاق ينظر من خلالها إلى معطيات المكان

ص: 73

1- (1) ينظر: كامل الزيارات، ابن قلوبه، 289، باب 26/91.

2- (2) ديوان د. علي الفتال / 44.

3- (3) مواقف، د. علي الفتال / 34.

4- (4) ينظر: كربلاء ورموزها في الشعر العراقي الحديث، د. صدام فهد الاسدي / 57.

الحسينى ويحاول استئثارها. نجد شيئاً من هذا فى شعر جواد جميل * (1) فى قوله:

يا كَبِرَ الدماءِ.

يا لونَ إعصارٍ يخطُّ الجرحَ.

فى رمالِ كربلاءِ.

إغضبُ فهذا موسمُ الطوافِ بالمآزرِ الحمراء!! (2)

صورة الشاعر اللافتة للنظر هي (المآزر الحمراء) فالشاعر كرس موسم الطواف وهو طواف حول الكعبة أى موسم الحج وهو موسم العبادة والتوجه لله سبحانه وتعالى، والحجيج تأتزر بالملابس البيضاء.. الشاعر هنا يعد الجهاد موسم التوجه إلى الله تعالى والطواف حول المقدس، ولكن الجهاد يستدعى بذل الدماء كان الطواف التعبدي فى الجهاد بمآزر حمراء، والمآزر الحمراء إشارة جميلة إلى المكان الكربلائي بصورته الطاردة.

ولديه توظيف أكثر عمقاً واتقاداً، ففي قصيدته (أشياء مثل الدم) يسأل الجرح، والطريق، والقلب، فيجيبه كل أولئك بما يفيد الإصرار على المضى فى طريق العطاء والكفاح والشهادة على الرغم من أن الطريق مازال كما كان زمن الحسين عليه السلام:

وأخبرنى بأنّ الطف مازالت تُرضّ

على ثراه الأضلعُ الحمرا

ص:74

1- (1) * جواد جميل: هو الاسم الحركى للشاعر حسن السنيد عضو فى البرلمان العراقى، وقد عرفه لى الدكتور فليح الركابى فى 2013/9/15.

2- (2) ديوان أشياء حذفها الرقابة، (أشياء مثل الدم)، جواد جميل / 181.

وما زالت ملطخةً هناك الأذرعُ البترا

وما زال الرضيعُ، يذوب من عطشٍ

فتمسح وجهه (الهورا)

وما زال الحديدُ يئنُّ، يُثقلُ مشيةَ الأسرى

وأخبرني بأن نَظما

وأخبرني بأن نَعرى

ولكن لم يقل: إنَّ الجراحَ تُباعُ أو تُشرى!!(1)

فما زالت المذبحة قائمة، وما زالت نماذج من الأضلع التي رُضت في أرض كربلاء ونماذج من الرضع الذين لم يجدوا حتى مثل الحوراء زينب التي كانت تمسح بيدها الكريمة وجوه أيتام الحسين.. وما زال الحديد.. ولكنه ذو ثقل آخر خلف قضبان السجون وسرايب المعتقلات، فكانت منقّرة، وبدا المكان طارداً لمن يراه، فصور الدم والقتل والدمار، والموت متوافرة فيه، المشهد منفر والمكان مفعم برائحة الدم والقتل، وقد تحول فيما بعد إلى مكان مقدس.

كما عبر الشاعر حسين القاصد * (2) عما جرى للإمام الحسين عليه السلام في طف كربلاء من موت وقتل وذبح ونزف، وقد زاوج بين الدم والسيف والنزف وكلها صور طاردة للمكان.

بدأت وكان الموتُ إلفك

ص:75

1- (1) أشياء حذفها الرقابة، (أشياء مثل الدم)، جواد جميل / 181.

2- (2) * حسين القاصد: شاعر وناقد عراقي من مواليد 1969 م وله دواوين منها: المجموعة الشعرية حديقة الأجوبة، أهزوجة الليمون، تفاحة في يدي الثالثة.

ومضت وظلّ الموت خلفك

ونزفت..

ثم نزفت

ثم

فكنت نرفك...

يكفيك أن حملوا السيوف ليقتلوك فكنت سيفك(1)

كانت الصورة نازفة ولكن النصر الأبدى كان حليفها، وكان الإمام عليه السلام سيفاً يدافع عن دين الله.

وعاش الشاعر حسب الشيخ جعفر * (2) ثورة الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء على مستوى الفكر والواقع ووجد فيها صوراً أخرى للتضحية فهي ينبوع لكل الدروس العظيمة فصور هذه الدروس بهالات القداسة والإصرار البطولى المضمخ بالأشلاء والدماء والرؤوس المقطوعة، وهذا ما يجعل المكان طارداً موحشاً:

الجسد المنطفئ المطحون بالحوافر

باقٍ على الطفوف

والرأس من بابٍ الى بابٍ على رماحهم يطوف

فمن يلثم لحمي العالق بالخناجر؟

ص:76

1- (1) سادن الماء، حسين القاصد / 18.

2- (2) * حسب الشيخ جعفر: ولد عام 1942 م في العمارة وتخرج في معهد غوركي للآداب بموسكو 1966 م. دواوينه الشعرية: نخلة الله 1969 م - الطائر الخشبي - 1972 م زيارة السيدة السومرية 1974 - عبر الحائط في المرأة 1977 - الأعمال الشعرية 1985.. ديوان الشاعر / 3.

وينزع السهم الذى يخترق الخواصر؟(1)

لقد أضاف الشاعر صورة حركية للمكان حينما أشار إلى طواف الرأس من باب إلى باب أى من مكان منفرد إلى مكان منفرد آخر.
وعَدَّ الشاعر السيد مرتضى القزوينى * (2) أن ما تعرض له الإمام الحسين عليه السلام من تعذيب وقتل على أرض كربلاء هو صرخة مدوية، بل هو صوت الحق أطلقه فى وجه الظالمين.

يا سيد الأبرار قد هزّت شجاك الراسيات وشقت الجلمودا

يا بهجة المختار ضعضع قتلك الاسلام والإيمان والتوحيدا

ورفعت رأس الفخر ترنو للعلى حزت السعادة إذ مضيت حميدا

وتركت صوت الحق يدوى صارخاً بيّضت وجهى اذ صرعت فقيدا

لك فى محانى الطف صيحتك التى ملأت سماع العالمين نشيدا

أنا قدوة للمصلحين أقودهم نحو الفضيلة سائغاً وشهيداً(3)

إذا كانت مطامح الشباب عيشاً رغيداً ومستقبلاً سعيداً حافلاً بكل ألوان النعيم كما نشاهد ونرى، ففى الطف شباب كربلاء كان كل أمانهم ومطامحهم صموداً أمام الأهوال وصبراً فى البأساء واستشهاداً بحد السيوف، ولم يكن لتلك

ص:77

1- (1) ديوان وجىء بالنبيين والشهداء، قصيدة الصّخر والنّدى، حسب الشيخ جعفر/35.

2- (2) * السيد مرتضى بن السيد صادق بن السيد محمد رضا بن السيد هاشم القزوينى الموسوى الحائر: ولد فى كربلاء سنة 1349 هـ - / 1927 م ونشأ بها تحت رعاية والديه، أخذ عن أبيه دروس العلوم الدينية، وقرأ المقدمات فى النحو والمنطق والبلاغة والفقه وأصوله على العلامة الشيخ جعفر الرشتى والشيخ محمد الخطيب. قناة كربلاء الفضائية.

3- (3) ديوان السيد مرتضى القزوينى / 24.

الفتوة الغضة والصبأ الریان أن تهتم أو تفكر بما أعد لها من غضارة الدنيا وما ينتظرها من صفو الحياة ولهوها ومتعها، بل كان كل همهم التطلع إلى أى سبیل من سبیل الشهادة يعبرون وأى موقف من مواقف البطولات يقفون(1).

إن تلك الأرزاء تمیّزت بطابعها الخاص فى مرأى الإمام الحسین علیه السلام وما حدث فى كربلاء المقدسة، وقد تمیّزت بالرؤية الحکیمة التى تسجّم وشباب على الأكبر علیه السلام، فقد جعل الشاعر یبکی على الشباب ویتحسّر لأنه یمثل المستقبل، "ولعلّ السبب فى ذلك یرعود إلى دواع نفسیة تتمثل بالغرآئز المتأصلة فى النفس الإنسانیة"(2)، التى تدفع الإنسان إلى تحمل الألم لفقدان الشباب، لذا كان صوت الشاعر عبد الرسول الكفائى * (3) مندفعاً نحو تلك الرزیه العظیمة التى هزت السماء قبل الأرض قائلاً:

هانت برزء السبٹ أرزاء الورى كل الرزایا رزؤه إنسانی

فیه العزاء لكل خطب فادح ما من مصاب مثله أشجانی

فابك الحسین بكاءه فى كربلا خیر الشیبة من بنى عدنان

أعنى علیاً من ذؤابة هاشم أردته أیدی الغدر والعدوان(4)

هناك على مشارف العراق وفى الطریق إلى كربلاء كان الإمام الحسین علیه

ص:78

1- (1) من وحى الثورة الحسينية، هاشم معروف الحسينى / 54.

2- (2) المصدر نفسه / 55.

3- (3) * عبد الرسول الكفائى: هو السيد عبد الرسول نجل العلامة المجاهد السيد عزيز ابن السيد هاشم الحسينى الكفائى من اسرة علوية عريقة، وله دواوين كثيرة منها ديوان نوافح الولاء، وديوان اللؤلؤ الرطيب فى نظم الخطيب وغيرها. ديوان نوافح الولاء / 5.

4- (4) قصيدة فى رثاء على الاكبر علیه السلام، عبد الرسول الكفائى / 86.

السلام يسير على رأس قافلة الشباب الأبطال متحدياً أقوى سلطة وأبشع طغيان عرفه التاريخ من الحاكمين متحدياً كل ذلك بسبعين من الرجال والشباب ليحطم بهذا العدد القليل قوى الشر والطغيان ومعاقلة البغى والعدوان وليعلم أبناء آدم كيف يموتون في سبيل العزة والكرامة.

كانت كربلاء المقدسة أرضاً جرداء مقفرة، قد ضمت في ثراها جسد الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب، وجسد أخيه أبي فضل العباس بن علي بن أبي طالب صلوات الله تعالى عليهم فأصبحت منارة مشرقة، فضلاً عما تضمنه من أجساد أخرى ومن شهداء واقعة كربلاء ومنهم الحر بن يزيد الرياحي الذي قال فيه الشاعر عبد الرزاق عبد الواحد:

سلامٌ على الحُرِّفي ساحتَيْك ومَقَحِمِهِ جَلَّ من مَقَحِمِ

سلامٌ عليه بِحَجَمِ العَذابِ وحَجَمِ تَمَزُّقِهِ الأَشْهُمِ

سلامٌ عليه.. وَعَتَبٌ عليه عَتَبَ الشَّغُوفِ بِهِ المُغْرَمِ

فكيفَ، وفي أَلْفِ سَيْفٍ لُجِمْتَ وَعُمُرُك يَاحُرُّ لم تَلْجَمِ؟! (1)

وغيرهم من شهداء معركة الطف الخالدة، فألى الله سبحانه وتعالى إلا- أن يجعل من موضع قبره حرماً يطوف الناس حوله ليلاً ونهاراً يتوافدون عليه في مواسم كما تتوافد الحجيج لبيته في مواسم الحجيج والاعتماد. وقد أكدت هذه الحقيقة وذكرت في زيارة الإمام الحسين عليه السلام في قوله "وجعل أفئدة من الناس تهوى إليك". (2)

ص: 79

1- (1) في رحاب الحسين، عبد الرزاق عبد الواحد، جريدة العدالة، ع 619، سنة 2006 م / 20.

2- (2) مفاتيح الجنان، الشيخ عباس القمي / 418.

فالحلول بهذه الأماكن وما يشابهها ينقل الإنسان من حالة مادية إلى حالة روحانية ليعوض ما تجشمه من عناء الحياة وهمومها، ليعود إلى الرب العظيم متوسلاً وطالِباً منه الرحمة والمغفرة، وهذا ما كثفه لنا الشاعر عبد الرزاق عبد الواحد وهو يخاطب الإمام الحسين عليه السلام في قوله:

قدمتْ وَعَفُوكَ عن مقدمي حسيراً أسيراً كسيراً ظمى

قدمتْ لأحرم في رحبتك سلاماً لمثواك من محرّم! (1)

وهنا أيضاً يستعمل عبد الرزاق عبد الواحد كلمة (أحرم) في إشارة إلى ما يقوم به الحاج عند التوجّه إلى مكة وكذلك (المحرم) وهو المكان المحرّم، وهو هنا أما يحاول أن يشير إلى قداسة المكان وأنه يجب أن يحرم قبل الدخول إليه لما يمتلك من قدسية والمقام الألهي أو أن أرض كربلاء هي حرم آخر يضاهي مكة وهو حرم للإباء والصبر والشهادة والتضحية.

ويستحضر الشاعر ضياء الاسدي * (2) كربلاء وأجواءها في قضية الإمام الحسين عليه السلام ومضامينها الواسعة الممتدة، والرموز الضاربة والدلالة العميقة بقوله:

على ضفّة العطشِ (الكربلائي)،

يوماً وُلِدْتُ،

وتحت لهاتي طينُ الفراتِ

وبينَ جفونِي العصافيرُ نائمةً،

ص: 80

1- (1) في رحاب الحسين، عبد الرزاق عبد الواحد، جريدة العدالة، ع 619، سنة 2006 م / 20.

2- (2) * ضياء عبد الرزاق حسن فرج الله الاسدي: ولد عام 1960 حاصل على الإجازة في الآداب، دواوينه الشعرية: ذاكرة الصمت والعطش 1992، صدقت الغربية يا إبراهيم 1993.

والنخيلُ تهدهدها،

والصبايا تصوغُ لها الأغنيات(1)

حيث تداخل المشهد الكربلائي الزاخر بالعطش القاتل في ذاته حتى صارت مفردات المكان الحسيني وجود الشاعر وتكويناته النفسية والجسدية فعلى العطش ولد وهو الفراتي الشاة والتطلع، ونوم العصافير وهددهة النخيل والصبايا، وهي الرموز الجمالية لدى الشاعر ينشد لهذه الأرض الرسالية أرض كربلاء الطاردة.

وقد طغى الوصف الموضوعي لما جرى في كربلاء على صوت الشاعر، حتى كاد يختفى في زحمة سهيل الخيول، وصليل السيوف، وأصوات النساء الثكالي، وصراخ الأطفال اليتامى وكانت طاردة منقّرة في مكان قتل ودماء كما يراها الشاعر عباس خضير حسين* (2) في قصيدته (بكائية إلى كربلاء):

يا دمة ذرفتها في مطلع الفجر على رمال كربلاء

حتى إذا بكيت كربلاء

هممت بالفرات

جرت عيوني مثله فمات

صرختُ يا حسين

فرددَ الاطفالُ والنساء والرجال

حسينُ يا حسينُ يا حسين

ص:81

1- (1) ذاكرة الصمت والعطش، (بطاقة شخصيّة)، ضياء الاسدى / 15.

2- (2) * عباس خضير حسين: شاعر عراقي ولد في 1973، اعتقل في عام 1993، وأطلق سراحه 1995 وطرده من الجامعة في السنة ذاتها، وله ديوان "تدوين لزمان ضائع"، ديوان الشاعر/ 2.

إن للمكان في ذهن الشاعر عباس خضير حضوراً جارفاً متسلطاً على انفاسه وبصره وأحاسيسه حتى أن الحزن الكربلائي، والغضب الكربلائي ينمو بفجر كربلاء وعلى رمال كربلاء ويموت الفرات، يتفجر صراخاً على صانع مشهد كربلاء ومخرج قصتها الفاجعة...

وفي قصيدة الفارس الصريع وكربلاء الهزيمة للشاعر راضي مهدي السعيد* (2) يصور من خلال مأساة الحسين في كربلاء ويؤكد إدانته لسلبية الأمة وتقاعسها وجبنها في كربلاء حين حصلت المأساة:

في كربلاء الامس كان الجرح والهزيمة

لأمة لم تحمل الراية حين شبت السيوف

واخترقت مفاوز الصحراء خيل تمتطيتها أذرع لثيمة

ترهب فارساً أتاها يزرع الحتوف

في أعرق تشدها خطى محاريب

سنين شمسها رميمة(3)

ص:82

1- (1) ديوان "تدوين لزمان ضائع"، بكائية الى كربلاء، عباس خضير حسين / 22.

2- (2) * راضي مهدي السعيد: شاعر عراقي ولد عام 1932 في بغداد. قطع مراحل دراسته الابتدائية والثانوية بتفوق، وتخرج في معهد إعداد المعلمين، وكلية الحقوق العراقية. دوأوينه الشعرية: رياح الدروب 1957 - مرايا الزمن المنكسر 1972 - الشوق والكلمات 1977 - ابتهالات لوطن العشق 1985 - الصيحة 1998 إلى جانب مجموعتين شعريتين مشتركيتين هما: المعركة 1966 - أصداء على الشفاه 1967.

3- (3) ديوان مرايا الزمن المنكسر، الفرس الصريع وكربلاء الهزيمة، راضي مهدي السعيد / 196.

ويصور الشاعر الكفائي الذين شاركوا في المشهد الكربلائي بالزهور التي ذوت على الرغم من أنها في أرض الخصب والنماء وكذلك يصور البطولة العباسية والحسينية وهي تصارع العطش عند نهر زاخر بالمياه.

فدى فتية كزهور الرياض ذوت وهي في روضها الممرع

وثاو على ضفة العلقمي ظمي على حوضه المترع(1)

ونرى الشاعر جابر الكاظمي * (2) يلمح الى دليل قاطع على عظمة كربلاء التي أصبحت مرآة للإنسانية جمعاء في قوله:

يا أيها العاتن الشهيد شمخت في الخالدين حرا

وبات ذكراك في فؤادي له أجيحُ فما استقرا

وجمتُ عشرا نطقت شعرا كأنني قد قذفت جمرا(3)

وللشاعر على العلق(4) ظليليات في عزاء الحسين فقد ورد في إحدى قصائده الكثير من الإضاءات الخاصة بالفضاءات المكانية والزمانية، ولا سيما الطاردة في بادئ الأمر حيث كانت كرباً وبلاءً معبراً عن الصورة النافرة لأسر الذين أطلقوهم حينما مكنهم الله عليهم وشتان بين مكة بعد فتحها، وكربلاء بعد نزول السبت فيها قال:

ضربوا بعرضة كربلاء خيامهم فأطل كرب فوقها وبلاء

ص: 83

1- (1) ديوان نوافح الولاء، عبد الرسول الكفائي (زينب الحوراء) / 21.

2- (2) * جابر الكاظمي: جابر جليل كرم البديري الكاظمي (1956 في الكاظمية) هو شاعر عراقي، معظم أسرته يكتبون الشعر، درس الأدب العربي، ثم هاجر من العراق سنة 1980 إلى سوريا.

3- (3) ديوان كلیم الحسين، جسر الخلود، جابر الكاظمي / 33.

4- (4) د. على العلق: شاعر عراقي وتدریسی فی جامعة الشارقة، صدر له العديد من الدواوين والدراسات، عضو اتحاد الأدباء العرب.

لله يوم فيه قد امسيتم أسراء قوم هم لكم طلقاء(1)

وقد تعدى الشيخ الوائلى درجات الإبداع فى وصفه خلود الإمام الحسين عليه السلام سوى وثيقة وقعتها العصور فى قوله:

فارو الخلود فما كان الخلود سوى وثيقة وقعتها باسمك العصر(2)

فى حقيقة الأمر يحير الباحث أمام نص الوائلى، فماذا ينتقى وماذا يختار وماذا يترك، فهو نص منسوج بصور فضاءات المكان وخاصة هذا المكان الخالد الطف فى قوله:

يا أبا الطف ساحة الطف تبقى وعليها مشاهد لا تزول(3)

وكان للأطفال دور لا يقل أهمية عن دور الكبار فى مأساة كربلاء (طف كربلاء) حيث إن دمعة الطفل المترققة على خده الدامى، تعطى للمشهد الكربلائى لونه الخاص، بل تقلب صورها فى واقعة كربلاء فتراها باكية عطشاً، والفادية لحاميتها بنفسها والمحملة لكل الآلام والعذابات، وطفل رضيع يُذبح على صدر أبيه هو سيد موقفها، وهذا صوت طفلة فقدت الناصر ولم تجد إلا جسد أبيها تستغيث به.

وقد عبر الشاعر الشيخ ياسين عيسى عن وحشية المكان وتناثر الجثث على الرمال وقد مُثل بها.. وهذه مشاهد منقّرة وطاردة فى بادئ الأمر فالمكان مكان حروق وتشريد وقتل:

ص:84

1- (1) ادب الطف، د. على العلاق، ج 117/9.

2- (2) ديوان الوائلى، ج 18/1.

3- (3) ديوان الوائلى، ج 22/1.

قَمْ... قَمْ أَبِي

لِمَ الرقاد؟

ألا ترى!

أحرقوا خيمي

سردوا حرّمي

قتلوا عترتي

قَمْ.. قَمْ أَبِي (1)

إنّ دلالة اسم كربلاء تخطّت المعنى المجسّد إلى معنى حي حاول الشاعر رشيد ياسين * (2) من خلاله ان ينطقها بما شهدت من مأسٍ، فكانت رمزاً لا تنضب دلالاته كما في قوله من (من الخفيف).

إيه يا كربلاء عودي بها تي - - كَ المآسى من نائبات العصورِ

وصفى موكب الحسين وقد قام يلبى ضراعةً المستجير (3)

وهذا الشاعر الوائلي يقف منوهاً بحشاشة كبد أبي عبدالله الحسين عليه السلام في رضيعه، وكيف اصطفاه الله من دون الخلق ليبقى رمزاً يشع بالزهو والانعقاد.

تعود بي الذكرى لطفل بمهده إليه شموخ من غدٍ يتطلّع

فتسألني عيني أباالمهد صارم تململ أم طفل من الدر يرضعُ

ص: 85

1- (1) ديوان الطفولة في كربلاء، الشيخ ياسين عيسى / 108.

2- (2) * رشيد ياسين: شاعر عراقي ولد في بغداد عام 1929 وتوفي في 2012 عن عمر ناهز الثالثة و الثمانين عاماً، بدأ كتابة الشعر في سن مبكرة سطع نجمه في أواخر أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين في العراق؛ كواحد من الرواد البارزين في حركة الشعر العربي المعاصر.

3- (3) يوم الحسين، رشيد ياسين / 179.

طلعت فما هز البطولات مثلها سمات ربيع وهى بالأمس بلقُع (1)

إن الكارثة الإنسانية الكبرى، والنتائج الوخيمة إذا ما تهدد وضع الطفولة فى استقامته وتوجيهه، لأنها هى مشروع الإنسان فى الأرض وإذا ما فسدت البذرة فلا نتاج على البيدر، وأى نكبة تربوية على الطفولة أو أى تقصير فى شأنها له مردوده السلبى على مستقبل الإنسانية، والعكس صحيح، إن قتل الأطفال أمر مرعب، يفتقر إلى أبسط مقومات الإنسانية وهذا المشهد منفرّ جعل المكان طارداً تخاف منه النفوس. وهذه الاجواء الحزينة الدامية كانت طاردة ومنفرة بأجوائها الحزينة.

وللشاعر محمد الحلى * (2) صورة تطفح بالأسى عندما يصف دماء الطفل الرضيع التى رمى بها الإمام الحسين عليه السلام إلى السماء فى طف كربلاء، وكان الموقف فى منتهى الابهاء حيث يقول:

سيدي يا أبا الرضيع المدمى من دماء الرضيع ضجّ الإباء

قد تعالت "هيهات" منك تدوى يتهاوى برجعها الطلقاء

صرخة أيقظ الزمان صداها بكت الأرض عندها والسماء

بيديك الدماء ماجت إباء حين عزّ الإباء والكرباء (3)

لقد أضاف الشاعر محمد راضى مهدى السعيد (4) إلى المشهد الكربلائى

ص: 86

1- (1) الحسين فى ضمير الشعراء، د. احمد الوائلى، ج 41/1.

2- (2) * د. محمد عبد الكاظم الحلى: شاعر عراقى معاصر، ولد فى 1954 وهو أخو الباحثة وله ديوان مطبوع، وأشعار كثيرة فى حب آل البيت الأطهار عليهم السلام ومختلف الاغراض الشعرية.

3- (3) يا حسين، د. محمد الحلى / 35.

4- (4) محمد راضى مهدى السعيد: شاعر عراقى ولد عام 1977 م صدر له العديد من الدواوين والدراسات، حاصل على شهادة الدكتوراه فى الادب.

صورة رائعة عن الترابط الوثيق بين المرء وأخيه، أن مشهد الموت وهو يحيط بالحسين وتوجه الحسين إلى أخيه العباس.. لقد أشار الشاعر إلى أن الانهيار الحقيقي هو حين يفقد الرجل المخلصين من حوله... وهذه الصورة تذكرنا بأبيات دريد بن الصمة حين قال:

دعاني أخي والخيل بيني وبينه فلما دعاني لم يجدني بقعدٍ

فجئتُ إليه والرماح تنوشه كوقع الصياصى فى النسيج الممدد (1)

وقد تفوقت صورة الشاعر السعيد على صورة ابن الصمة حين أخذ أخو دريد يستنجد بمن هو قادر على نجاته، غير أن الحسين لم يكن يستنجد وإنما كان يريد المواساة فوجدها فى من سبقه إلى الموت:

اخرج على أخيك فالمنون

دائرة عليه... والحصون

آخذه فى الانهيار (1)

ثم قوله متحدثاً عن سببايا واقعة الطف، وما حصل لهن بعد تلك الواقعة فالرباب وهى زوجة الإمام الحسين عليه السلام كانت تمسح التراب عن رأس سكينه بنت الإمام الحسين عليه السلام بينما عمها العباس يشاغل الجند ويصدهم، مما حدا بالمكان أن يكون طارداً ومترباً قائلاً:

وكانت (الرباب)

تنفض عن رأس (سكينه) التراب

وبينما يشاغل العباس

ص: 87

جند الأمير

كان النفير

يجنح نحو الصمت..

مدن سكنت في أعالي الضياء

وفي زمن في زوايا الدعاء(1)

وفي قصيدة باتجاه الألق للشاعر نوفل ابورغيف * (2) يصور فيها كربلاء وكأن لها طعماً دلالة على القتل والدماء التي أريقت على تلك الأرض التي تشرفت بجسد الحسين، هكذا غدت كربلاء بعد واقعة الطف الأليمة.

وفي لحظة طعمها كربلاء

خلفها عالم من عتب

كانت الأرض قبرةً من ذهب

تحلق فوق ثراك

فمملكة من بقايا ترابك كانت هناك

صغار... و نار

وخيل..

ورائحة من خطاك(3)

والشاعر عمار جبار خضير يصف علياً الأكبر ابن الامام الحسين عليه السلام

ص:88

1- (1) المصدر نفسه / 80.

2- (2) * د. نوفل ابورغيف دكتوراه فلسفة في الأدب العربي نقد النقد: شاعر وإعلامي / اصدر ثلاث مجموعات شعرية وأربعة كتب في النقد.

3- (3) ديوان نوفل ابورغيف / 222.

بأن له طلعةً تشبه طلعة رسول الله صلى الله عليه واله وعلى عليه السلام وقد قطعتة السيوف وداسته الخيل، في أرض كربلاء، فكان المنظر ومكانه منفرين:

لك طلعةٌ تحكى النبيَّ وغرةٌ تحكى علياً ذاك ليث الغابِ

يا قاصدا قبر الذبيح بكربلا ابلغه من فيض الأسي تسكابى

سلم على الشهداء من آل الهدى واقرأ عليا بلغتى وخطابى

يابن الحسين شفاعة هي ترتجى يوم الممات ومبعثى ومآبى (1)

ونجد فى أبيات الشاعر محمد الحلبي صوتاً واضحاً من خلال تلهفه، وتحسره لما أصاب السيدة زينب عليه السلام أخت الإمام الحسين عليه السلام فى طف كربلاء، ونجد اللغة هادئة، تتسلل بهدوء وحرصاً إلى ذهن المتلقى لتفجعه بدموع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبكي زينب وأخاها ذبيح كربلاء من خلال الخيال المتجسد فى الصورة الواردة فى البيتين الثانى والثالث.

إنى لأبكى حينَ أذكرُها وما أبكى عليها مُشفقاً أرثيها

فهى التى فى كربلاء تكلمتْ بلسانِ فاطمةٍ وبأسِ أبيها

يادمعُ تُبكي عيونُ المُصطفى تبكى عليها والذبيحِ أخيها (2)

إنها محاكاة لطبيعة الأحداث التى جرت فى كربلاء، وانتهت بسوق نساء الحسين عليه السلام سبايا فى مشهد مؤثر، كان بمنزلة المنبع الشر لصور الشعراء.

والحقيقة أن المشهد الكربلائى جرى على أهل بيت النبي، أشد قسوة مما يذكره الشعراء، لكن الوجه الآخر للمشهد الحسينى فى ذلك اليوم كان أكثر إشراقاً، وأعذب رواية، فالحسين عليه السلام على قلّة أنصاره، وكثرة أعدائه تحدّى الخصم

ص: 89

1- (1) على الاكبر.. سيدى، عمار جبار خضير / 17.

2- (2) ديوان ما رأيت إلا جميلاً، د. محمد الحلبي / 25.

قائلاً: "لا والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقر لكم إقرار العبيد"⁽¹⁾.

إن ترجمة استشهاد الإمام الحسين عليه السلام بحق إرادة ربانية فقد كان محتضناً أرض الطف كمسرح المأساة وسرى الحدث حيث رفرفت أرواح الشهداء من أرض كربلاء إلى عنان السماء وتعلمت البشرية دروساً كيف يصون الإنسان مبادئ ومعاني وتنوع الرؤى والحيثيات والمعطيات كون الإمام الحسين عليه السلام قبلةً للتأثرين في ملحمة الخالدة في واقعة الطف الكبرى أرض الشهادة والفداء⁽²⁾.

ويتجدد حزن الشاعر بتجدد ذكرى كربلاء، التي صارت نغماً يحلو للشاعر ترديده، لأنه يرى في وقفة الحسين صفحة من صفحات الاسلام المشرقة، التي لا تزال باقية، وعبر الشاعر صدام الأسدي *⁽³⁾ في قصيدته (الإمام الحسين عليه السلام وعنوان الشهادة)، عن أن الحسين عليه السلام عاش أمير القلوب وسيبقى لأنه أطلق العنان للدماء أن تروى أرض كربلاء، فتتحول من مكان مجذب إلى روضة مزهرة يانعة يقول:

هو أنت عنوان الشهادة سيدي بل أنت أعطيت الشهادة مولدا

عش في القلوب كما نراك حسيننا واترك جراحك للبرية معبدا

من أين أبدأ يا حسين وكيف لي ألقى دماءك في طريقك مشهدا

وسقيت قفراء الخراب كرامة ووقفت في درب المحال محدد⁽⁴⁾

ص:90

1- (1) تاريخ الطبري، ج 323/4، والإرشاد، الشيخ المفيد / 235.

2- (2) أمير المنبر الحسيني، محمد سعيد الطريحي / 45.

3- (3) * د. صدام فهد الاسدي: مواليد البصرة 1953 م عضو الاتحاد العام للأدباء في العراق، استاذ في كلية التربية جامعة البصرة، صدر له العديد من الدواوين الشعرية.

4- (4) عنوان الشهادة، د. صدام فهد الاسدي / 341.

وقد صور الشاعر خلود الإمام الحسين عليه السلام، وهزيمة خيول الفاتحين، وأن الإمام علي بن الحسين عليهما السلام هو الأمتداد العظيم الذي أخرس كل التقولات وهزم الأعداء بصبره، وكان تحولاً رائعاً بعد أن أراد الطغاة الفناء لهذا البيت:

إضرب لنا مثلاً على عمر الشعوب، وجدت زين العابدين

ما أكبر المحراب يصهل في خيول الفاتحين

ما أكبر الصلوات تسحق كل زيف الناكرين (1)

لقد تجلّى دور الإمام علي بن الحسين (السجاد) عليه السلام في قيادة مشروع الإحياء وثورة التصحيح بالارتقاء بمهمته الرسالية إلى استكمال هذا المشروع وزيادة هذه الثورة من خلال مدرسة علمية كبيرة بوجوده في المدينة المنورة التي هي البداية الثانية. ولكل هذا فإن الإمام وعددًا قليلاً من المخلصين الذين تضافرت جهودهم على نصرته استطاع أن يحقق نتائج قياسية ويترك أثراً عظيماً لا يقدر على تحقيقها أى زعيم أو قائد يمرُّ بظروفه، فدوره العلمى كان رائداً وعظيماً فى إحياء الرسالة المحمدية وتعميقها فى نفوس المسلمين (2).

وإذا ما أردنا أن نختم حديثنا عن كربلاء (مكناً) احتضن المأساة والألم الحسينى فبما رسمه الشاعر عبد الهادى الحكيم * (3) الذى اعتمد الحنكة والمهارة

ص: 91

1- (1) الحسين عليه السلام منقذ البشرية، د. صدام فهد الاسدى / 345.

2- (2) دائرة المعارف الشيعية، للشيخ محمد حسين الأعمى، ج 193/23.

3- (3) * د. عبد الهادى الحكيم: ابن السيد محمد تقى ابن السيد سعيد الحكيم، تلقى تعليمه الاولى والثانوى فى مدارس جمعية منتدى النشر فى النجف الأشرف، حصل على شهادة البكالوريوس من كلية الفقه فى النجف الاشرف فى اللغة العربية والعلوم الاسلامية بدرجة امتياز عام 1970 م، واصل دراساته العليا بكلية دار العلوم / جامعة القاهرة، وجامعة السابع من ابريل بليبيا، نال شهادة الدكتوراه فى الشريعة الاسلامية عن بحثه المعنون "عقد التأمين حقيقته ومشروعيته" لندن / المملكة المتحدة سنة 2001 والآن هو عضو فى البرلمان العراقى.

التصويرية في وصف رضيع الإمام الحسين عليه السلام وما آل إليه من ذبح وعطش وظلم، حين ذُبح بسهم في رمضاء كربلاء قائلاً:

ورضيع في جيده رقة البل لو ممزوجة بماء الجمان

ويخديه صفحة البدر وضاء تراءت وحمرة الأرجوان

ظَامِي مَرَّتَيْنِ: لِلبَّارِدِ الْعَذْبِ وَلِلثَّدِيِّ، لِإِزْتِضَاعِ الْحَنَانِ

الى ان يقول:

نَحْرُوهُ بِسَهْمِهِمْ فَأَرَأَوْا حُمْرَةَ الْوَرْدِ فَوْقَ غُصْنِ الْبَانِ

وَأَسَالُوا مَاءَ الطُّفُولَةِ وَاعْتَالُوا بِحَقْدِ بَرَاءَةِ الصَّبِيَّانِ

نَحْرُوهُ فَضَرَّجُوا الْغُنَّةَ الْعَذْبَةَ تَحْلُو بِصَوْتِهِ الْوَلَهَانَ (1)

كانت كربلاء مكاناً طارداً، والبحث في تلك الدلالات وأبعادها يعطى انطباعاً حياً للمعنى الحقيقي للمكان من خلال انسجام المفردة الشعرية البسيطة في إيصال الفكرة للقارئ. كما أنّ دلالة اسم كربلاء تخطّت المعنى المجسّد إلى معنى حى حاول الشاعر العراقي من خلاله أن ينطقها بما شهدت من مأس، فكانت رمزاً لا تنضب دلالاته.

من كل ما تقدم نجد أن أرض كربلاء ملئت أحاسيس ومشاعر الشعراء وتشربت في أذهانهم وضمائرهم ووجدانهم وسكنت في عيونهم ومحاجرهم وصار إذا ما ذكرت كربلاء فإنّ صور المكان هي الدماء، الرؤوس المقطوعة، وحرق الخيم، والاجساد المتناثرة، والرضيع المذبوح، والأسر، والدموع، والصراخ تحضر مع إيقاع الكلمة حينما تخرج من الفم.. معلنة أنها مكان طارد ولكن هل بقيت كربلاء ذلك المكان الطارد؟

ص:92

1- (1) مملكة الحب، عبد الهادي الحكيم، ترتيلة في ذكرى استشهاد عبدالله الرضيع / 166.

الفصل الثاني: كربلاء المكان الحسيني الجاذب (المكان المقدس)

أشارة

ص:93

عرجنا فى الفصل الأول على أرض كربلاء المقدسة بوصفها مكاناً طارداً موحشاً يصور القتل، والأشلاء، والجثث، والسبى، وقسوة الأعداء على بيت آل محمد صلى الله عليه وآله.

إن اسم كربلاء اشتهر بدءاً بهذه السمات وعرف بهذه الألوان، وتطرق فى الفصل الثانى للمكان الجاذب وهو المكان المقدس الذى غدت فيه كربلاء روضة من رياض الجنة، بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام فى واقعة الطف الخالدة، التى تحولت إلى محج لمحبى آل البيت عليهم السلام من المسلمين فى العالم.

إن الحقيقة التاريخية الثابتة التى توصل إليها المؤرخون والباحثون الأثريون، هى: أن أرض كربلاء قاحلة وغير أهلة للسكن، ولكنها تحولت بعد مدة ليست بطويلة فى أعقاب استشهاد الإمام الحسين بن على وأصحابه البررة عليهم السلام فى عام واحد وستين للهجرة، إلى منطقة مأهولة ومزدهمة بالزائرين والوافدين إليها، من كل حدب وصوب لغاية روحية وعاطفية سامية هى التبرك والتشفع بقبر الحسين الشريف عليه السلام.

لقد توافرت لهذه الأرض الأسباب الموجبة لأن تكون مكاناً مقدساً، بعدما حوت في جوفها جسد الحسين الشهيد عليه السلام آية من آيات الطهر والقدسية والبركة ما جعلها بمثابة قطعة من الجنة المخددة على الأرض، بدليل أنها أضحت تمثل معاني الإباء، والكرامة، والمبدأ، والعقيدة، وتجسد العلاقة الصميمية بقيم السماء والدين، والرباط الوثيق بالفضيلة، والسمو الروحي، فاستحقت بذلك أن تدخل التاريخ الإسلامي من أوسع أبوابه، وبات لتراب هذه الأرض قدسية وبركة لجميع عشاق الحسين عليه السلام ومواليه وشيعته في العالم الإسلامي (1).

ومنذ ذلك اليوم أصبحت كربلاء نقطة مضيئة في تاريخ المسلمين وقبلة للثوار والأحرار ومزاراً لكل المسلمين يتوافدون عليها من مشارق الأرض ومغاربها.

لن يشهد التاريخ مثيلاً لما حدث في كربلاء، فقد شهدت أرضها أروع ملاحم الإباء وأسناها، وتجددت على ثراها أنبل المواقف الإنسانية وأسماها، وخالطت تربتها أظهر الدماء وأزكاها، فتطرز اسمها بخيوط الشمس وحفت حول تاريخها النجوم لقد أصبحت كربلاء نقطة تحول مهمة في تاريخ المسلمين ونقطة انطلاق للكثير من الثورات والانتفاضات ضد الظلم والطغيان في العالم منذ أن رفع سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام راية الرفض بوجه السلطة الأموية الظالمة، وواجه ذلك الجيش الجرّار بنفر قليل من أهل بيته وأصحابه فجسدوا أروع دروس الإباء والبطولة، ولقد وقع هذا الفصل في ستة مباحث هي، المبحث الأول: كربلاء روضة من رياض الجنة، المبحث الثاني: كربلاء قبلة أنظار العالم، والمبحث الثالث: كربلاء مكان حسيني مزدهر، المبحث الرابع: المكان الحسيني رمزاً ثورياً، المبحث الخامس: لغة الشعر، والمبحث السادس: الصورة.

ص:96

مما لاشك فيه أن العروج على واقع كربلاء بعد واقعة الطف مسألة لا بد منها لغرض إطلاع القارئ على تحولات هذا المكان المقدس جراء الأوضاع السياسية.

فقد تشير المصادر إلى أن بنى اسد الذين كانوا يسكنون قريباً من كربلاء اقاموا رسماً لقبر سيد الشهداء عليه السلام، ونصبوا له علامة ورمزاً وبنوا سقيفة على القبر الشريف وعندما ظهر المختار بن أبي عبيدة الثقفي في الكوفة وأعلن حكومته الموالية لأهل البيت عليهم السلام وبدأ بالانتقام من قتلة الحسين عليه السلام في الكوفة حتى تم القضاء عليهم في معركة الخازر وقتل أميرهم عبيد الله بن زياد على يد إبراهيم بن مالك الأشتر، سارعت الشيعة لزيارة قبر الإمام الحسين عليه السلام والشهداء من أهل بيته وصحبه فظهر القبر الشريف وأصبح محطاً لأنظار الشيعة في كل مكان وخاصة في الكوفة، والمدائن، والبصرة فقام المختار بتشييد بناء على القبر الشريف واتخذ له قرية من حوله (1).

يا كربلا منى عليك سلامٌ متواصل ما دامت الأيامُ

لك في القلوب مكانة وجمالة من بعد بيت الله أنت إمامٌ (2)

وقد فسح العباسيون في بداية حكمهم المجال لزيارة قبر الحسين عليه السلام فأمر موسى والدة الخليفة المهدي العباسي، صرفت أموالاً على القائمين بالعناية بالقبر الشريف، وبقي الشيعة يتوافدون لزيارة القبر الشريف حتى جاء هارون العباسي خامس الخلفاء العباسيين، فضيق الخناق على الزوار، وقطع شجرة السدر، وكرب موضع القبر، وهدم ما حوله من

ص: 97

1- (1) ينظر: تاريخ كربلاء، عبد الجواد الكيلidar 264.

2- (2) ديوان الاشيقر، السيد محسن مصطفى الاشيقر/ 24.

وفى عهد ابنه المأمون بنى على القبر بناءً شامخاً بقي حتى سنة 233 هـ - وهى السنة التى تولى فيها الخلافة المتوكل العباسى الذى حذا حذو الرشيد فى عدائه لأهل البيت عليهم السلام، لا بل زاد عليه فعندما رأى أن زوار الحسين عليه السلام يتزايدون يوماً بعد يوم ويقصدون القبر من كل مكان ولم يقتصر الزوار على الشيعة فقط، بل امتد الى بقية طوائف المسلمين وأنّ محبة الإمام الحسين عليه السلام تغلغلت فى قلوبهم، أمر بهدم القبر الشريف، وما حوله من البيوت، ومنع الناس من زيارته، ثم حرث أرضه وأفاض الماء عليه، فحار حول القبر من كل جانب وكان الذى نفذ كل هذه الأعمال رجل من أصحاب المتوكل اسمه (ديزج) وكان يهودياً فكان يؤتى إليه بزائر قبر الحسين عليه السلام من قبل المسلحين المنتشرين على سائر الطرق فيقتله بأمر من المتوكل سنة 247 هـ - الذى أمر بتهديم القبر الشريف، يقول ابن الرومى:

بنفسى الألى كظّتهم حسراتكم فقدّ عزّلوا قبل الممات وحشروا

ولم تقنعوا حتى استثارت قبورهم كلابكم منها بهيمٍ وديزج (2)

ثم جاء بعده ابنه المنتصر بالله الذى شيد مرة أخرى الضريح المقدس وبنى على المرقد الشريف بناءً عالياً يرشد الناس إليه وشجع الناس على زيارته، كما أطلق أوقاف العلويين التى كان المتوكل قد صادرها وأحسن الى أهل البيت عليهم السلام، وقربهم وأجزل لهم العطاء مما شجع بعض العلويين على الأقامة

ص: 98

1- (1) ينظر: المصدر نفسه/ 264.

2- (2) ديوان ابن الرومى / 73.

بالقرب من القبر الشريف فى كربلاء وكان فى مقدمتهم إبراهيم المجاب بن محمد العابد بن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، وهو أول علوى استوطن كربلاء وكان ذلك عام 247 هـ -.

وبعد أن تداعى البناء الذى بناه المنتصر على قبر سيد الشهداء قام بتجديده محمد بن محمد بن زيد بن الحسن بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب عليه السلام، الملقب بالداعى الصغير حيث بنى قبة على القبر الشريف لها بابان ثم بنى حولها سقفين وأحاطهما بسور وذلك سنة 280 هـ -.

وعند قيام الدولة البويهية قام عضد الدولة عام 379 هـ - ببناء ضريح من العاج ذى أروقة وعليه قبة ومع قيام الضريح الجديد بدأ تشييد البيوت والأسواق حول القبر الشريف وقد أُحيطت المدينة بسور كبير وازدهرت كربلاء فى عهد عضد الدولة ازدهاراً واسعاً وتقدمت معالمها الدينية، والاجتماعية والسياسية، والاقتصادية، والأدبية.

وبقيت عمارة عضد الدولة البويهى حتى قام الوزير ابن سهلان ببناء سور جديد حول المرقد الشريف وأقام العمارة من جديد على القبر الشريف وبعد سقوط دولة البويهيين جاء السلجوقيون الى الحكم وقد أبدوا اهتماماً ملحوظاً بالعتبات المقدسة(1).

ومن بغداد عام 914 هـ - توجه إسماعيل الصفوى الى كربلاء لزيارة قبر الحسين عليه السلام، فأمر بتذهيب الضريح وأهدى أثنى عشر قنديلاً من الذهب،

ص:99

كما أمر بصنع صندوق للقبر من الفضة دقيق الصنع وقد تم نصبه عام 932 هـ - . كما فرش الحضرة الطاهرة بأنواع من المفروشات القيمة وقد اعتكف الشاه إسماعيل الصفوى فى حضرة الإمام الحسين عليه السلام ليلة ثم توجه لزيارة قبر الإمام أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام فى النجف الأشرف.

وفى العهد القاجارى تم تذهيب قبة الإمام الحسين عليه السلام ثلاث مرات، فقام السلطان محمد خان مؤسس الدولة القاجارية فى إيران بتذهيب القبة سنة 1207 هـ - .

أما التذهيب الثانى فقد حصل فى عهد السلطان فتح على شاه القاجارى، لأنّ التذهيب الأول كان أسوداً فكتب إليه أهالى كربلاء بذلك فأمر الشاه بقلع الاحجار الذهبية القديمة واستبدالها بالذهب الجديد كما أنه أهدى شبكة فضية الى المرقد الشريف وقد تبرعت زوجته بتذهيب المئذنتين.

أما التذهيب الثالث للقبة كان فوق الشباييك المطلة على داخل الروضة بسطر من ذهب ضمن الآيات القرآنية المكتوبة فى الكتيبة من حول القبة(1) لقد أصبح المكان جاذباً، مزهراً.

وفى عام 1216 هـ - تعرضت كربلاء والحرم الحسينى الطاهر لهجمة بربرية حيث قامت الجماعة الوهابية بقيادة سعود بن عبد العزيز الذى استغل ذهاب معظم أهالى كربلاء الى النجف الأشرف لزيارة ضريح أمير المؤمنين عليه السلام فى يوم الغدير الأغر، فحاصر المدينة ودخلها عنوة وقتل أكثر أهلها فى الأسواق والبيوت وكانت قوة كبيرة تقدر بنحو اثنى عشر ألفاً، وبعد قتلهم أكثر سكان

ص:100

1- (1) ينظر: مدينة الحسين، السيد محمد حسن آل كيليدار / 12.

كربلاء التفوا نحو خزائن القبر الشريف وكانت مشحونة بالأموال، والنفائس فأخذوا كل ما وجدوا فيها(1).

وأما في العصر الحديث فقد تعرضت كربلاء المقدسة إلى أفسى هجمة، بربرية جديدة من قبل قوات الرئيس العراقي حينذاك صدام حسين المجرم إذ تم الهجوم على المدينة، وتدمير البساتين، والأبنية، والمساجد، والحسينيات، والبيوت، حتى لم يعد لها أثر حيث حوصرت المدينة، وطلب من أهلها أن يتركوها باتجاه بحيرة الرزازة ورشقت برشقات متوالية من الصواريخ، ثم اشتد القصف مما اضطر السكان إلى مغادرة بيوتهم باتجاه البحيرة، وما أن امتدت حشود السائرين على الطريق مسافة طويلة حتى بدأت الطائرات تحصدتهم وتقتل الأبرياء والعزل، وكلما تقدمت قوات النظام كان ثوار كربلاء يتصدون لها بعمليات تعرضية جريئة وأوقعوا بها بعض الخسائر، وقد قُصف مرقد الإمام الحسين بن علي وأخيه العباس بن علي، عليهما السلام فضربت قبة العتبة العباسية والروضة الحسينية بالصواريخ وقذائف المدفعية بأمر من حسين كامل وقصف في 1991/3/11 مقام كف العباس الأيمن والدور السكنية التي حوله، ثم اتجه الجيش إلى قصف الصحن الحسيني ونسف باب القبلة، ثم اتجه النظام لاستخدام القصف المدفعي والصواريخ وقذائف الهاون من قبل الجنود الذين يختبئون في البساتين المجاورة لمركز مدينة كربلاء فكان القصف يشمل السكان اللاجئين في المرقدين وأصيب العشرات من اللاجئين بقصف الروضتين المطهرتين(2).

إن حادثة كربلاء زادت من تعلق المسلمين بآل البيت عليهم السلام، وجعلت

ص:101

1- (1) ينظر: تاريخ كربلاء، عبد الجواد الكيلidar / 267.

2- (2) ينظر: شاهد عيان ذكريات الحياة في عراق صدام حسين، جمانة كبة / 73.

كثيراً منهم يؤيدونهم تأييداً مطلقاً⁽¹⁾، لقد شهد المكان الحسيني تحولات عديدة بفعل الظلم وجور السلطة الحاكمة.

فهذه المأساة من أشهر حوادث التاريخ الإسلامي التي فجرت قرائح الشعراء وأمدتهم، بفيضٍ من الشعر الحسيني⁽²⁾، الذي مثَّل "صدي تلك الدماء التي سفكت بغير حساب"⁽³⁾ فصبغت أدب الشيعة بالحزن العميق⁽⁴⁾. فهذا الشاعر الوائلي تثر نفسه الأبية إزاء هذا الخطب الجلل، عندما استهدفت مدافع الجبن ضريح الإمام الحسين عليه السلام، وكذلك قيام نظام البعث الحاكم في العراق بقمع الانتفاضة الشعبانية، فاستهدفت مدافعه في كربلاء رمز الثورة المسجد الإمام الحسين عليه السلام، فيقول:

إن تهاوى الضريحُ والإيوان ما تهاوى الشموخ والعنفوانُ

إنما تهدمُ الحجارة والمضمون يبقى على المدى ويصانُ⁽⁵⁾

إن لثورة الإمام الحسين عليه السلام آثاراً مهمة في حياة الأمة الإسلامية، فإنها جعلت الإسلام يزداد تألقاً ونوراً⁽⁶⁾، قال المسيو ماربين: "إن الحسين قد أحميا بقتله دين جدّه وقوانين الإسلام، وإن لم تقع تلك الواقعة... لم يكن

ص: 102

1- (1) ينظر: الشعر السياسي من وفاة النبي إلى نهاية العصر الأموي دراسة وصفية ونقدية، د. حبيب مغنية، / 81.

2- (2) ينظر: دراسات في الشعر العراقي الحديث، سلمان عبد الهادي ال طعمة / 11.

3- (3) اثر التشيع في الأدب العربي، محمد سيد كيلاني / 90.

4- (4) الشعر الواله في النبي وآله، د. الشيخ أحمد الوائلي / 139.

5- (5) ينظر: أدب الشيعة حتى نهاية القرن الثاني الهجري، طه عبد الحسيب حميده / 152، وفن الرثاء في الشعر العربي العصريين الفاطمي والأيوبي / أطروحة دكتوراه / 62.

6- (6) ينظر: في رحاب الإمام الحسين / الشيخ فوزي آل سيف / 10

الإسلام على ما هو عليه الآن قطعاً⁽¹⁾.

قال الشاعر على الفتال في ذلك:

فالدين ظلّ من الشهادة ساطعاً وازداد في كلّ العصور سطوعاً⁽²⁾

بعد هذه الجولة في رحاب كربلاء تاريخياً نعود إلى موضوعنا هو كربلاء المكان الحسيني الجاذب في الشعر العراقي المعاصر، لنقرأ إبداع الشعراء المعاصرين وتصويرهم لهذا المكان الطاهر المبارك، وهي مكان مقدس وروضة من رياض الجنة.

ص: 103

1- (1) السياسة الإسلامية، نقلاً عن المأتم الحسيني مشروعيته وأسراره، / 100.

2- (2) هو ذا إذن، د. علي الفتال / 43.

المبحث الأول: كربلاء روضة من رياض الجنة

كربلاء مصدر إشعاع فكري منذ قرون موعلة في القدم، فقد أسهمت في تطور النهضة الأدبية والحركة الفكرية في العراق مساهمة تستحق كل إكبار خلال مراحل تاريخية مختلفة، وقد ضمت بين حناياها جمهرة من خيرة الشعراء والأدباء والمفكرين كانوا المصاييح التي تتوهج في سماء الأدب والمعرفة، وقد سايروا التيارات الأدبية المختلفة من خلال ندوات وأمسيات ومهرجانات شعرية، ساعد ذلك على خلق مناخ أدبي تتوافر فيه كل الشروط اللازمة لنمو الأدب.

ومن الأحاديث التي أظهرت الخصوصية المكانية لأرض كربلاء، من أنّها هي البقعة المباركة بجانب شاطئ الوادي الأيمن، في رواية للإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: "شاطئ الواد الأيمن الذي ذكره الله تعالى في القرآن هو الفرات، و البقعة المباركة هي كربلاء"⁽¹⁾. أعطيت كربلاء - حسب النصوص الواردة - مزايا عظيمة في الإسلام فكانت أرض الله المختارة، وأرض الله المقدسة المباركة، وأرض الله الخاضعة المتواضعة، وحرماً آمناً مباركاً، وحرماً من حرم الله وحرم رسوله

ص:104

1- (1) التهذيب، للطوسي، باب فضل الكوفة، ج 38/6.

ومن المواضع التي يحب الله أن يُعبد ويدعى فيها، وأرض الله التي في تربتها الشفاء.

وهذه الأرض المباركة ذات الفضل الطويل والشرف الجليل، لم تنل هذا الشرف العظيم في الإسلام إلا بالحسين عليه السلام، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: "موضع قبر الحسين عليه السلام منذ يوم دفن روضة من رياض الجنة"⁽¹⁾، وقال أيضاً: "موضع قبر الحسين عليه السلام ترعة من ترع الجنة"⁽²⁾.

العراق هو الموطن الأول للمسلمين من أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وموطنهم الأخير⁽³⁾، والشاعر يُعد بحق ترجماناً لوجدانه الفردي ووجدان أمته الجماعي⁽⁴⁾، فإن شعراء كربلاء لم يستطيعوا أن يتركوا الكتابة في هذا الغرض الشعري الذي يعبر عن صدق العاطفة، فضلاً عن أن للمكان أثراً كبيراً في شعراء المدينة، "فكل بقعة من مدينة كربلاء تحمل شيئاً من ذكرى آل البيت فهنا أقاموا خيامهم، وهناك ساحة جهادهم، وحتى هواء المدينة الذي استنشقه الشاعر ذكره بالإمام الحسين عليه السلام قال الشاعر على الفتال:

للآن عطر بخور التضحيات على أديمها فاح من نهرٍ ومن جُرْف⁽⁵⁾

فإلى كربلاء تهفو النفوس، وتطير القلوب ومع ذكرها تدمع العين وتهيج بنا العاطفة، هذا الشعور ليس من صنعنا نحن البشر، بل الله خلقنا من فاضل طينة

ص: 105

1- (1) كامل الزيارات، ابن قولويه / 456.

2- (2) المصدر نفسه / 456.

3- (3) ينظر: أدب العراق الحديث دور الأدباء الشيعة، صادق عبد الرضا / 43.

4- (4) الأدب العربي في كربلاء من إعلان الدستور العثماني إلى ثورة تموز 1958 م (اتجاهاته وخصائصه الفنية)، د. عبود جودة الحلبي / 148.

5- (5) هو ذا إذن / 84.

أهل البيت لنصبح بمشيئة الله الشيعة الذين قال عنهم الإمام جعفر الصادق عليه السلام: "شيعتنا خلقوا من فاضل طينتنا، يفرحون لفرحنا، ويحزنون لحزننا"⁽¹⁾.

تظل كربلاء خالدة؛ لأنها تحكى الشمم والكبرياء والموقف الإنساني الخالد، فقد ولد الإمام الحسين عليه السلام يوم استشهاده ليكتب في صفحات التاريخ مخلداً ولتصبح أرض كربلاء المكان الأكثر قدسية وروضة من رياض الجنة.

فالشاعر محمد حسين الصغير * (2) يؤكد علاقة القباب الذهبية بالإيمان فكان انطفاء سراج هذه القباب، في (كيف يطفى نور الله طغياناً) ثم إنَّها معلم للهداية تبقى أبد الدهر تستضيء بها كربلاء وذلك في قوله:

هذى (القباب) سراج لا انطفاء له وكيف يُطفى نورَ الله طغياناً

تهدى السماء نجوماً من أشعتها ويستضيء بها في الليل حيراناً

وتُحشدُ الأرضُ فيها الشهبَ سابحةً وتستطيلُ إليها وهي أكوانُ

ما زال فيها نشيدُ الحق مُطلقاً يصحوبه الدهرُ حيثُ الدهرُ سكراناً (3)

ص: 106

1- (1) شجرة طوبى، الشيخ محمد مهدي الحائري، ج 3/1.

2- (2) * د. محمد حسين الصغير: شاعر عراقي معاصر، ولد في مدينة النجف الاشرف عام 1940 م. التحق بالحوزة العلمية، وأكمل دراسته في البحث الخارج مرحلة الدراسات العليا في الحوزة للمرجع أبي القاسم الخوئي عام 1952 م حصل على جائزة الرئيس جمال عبد الناصر للدراسات العليا في جامعة القاهرة عام 1969 م أكمل دراسته العليا في جامعة القاهرة وجامعة بغداد وجامعة درم البريطانية. حصل على الدكتوراه في الآداب بدرجة الامتياز ودرجة الشرف الأولى عام 1979 م حصل على درجة الأستاذية عام 1988 م، كما أنه مؤسس الدراسات العليا في جامعة الكوفة، وقد حصل منها على مرتبة الأستاذ الأول عام 1993 م، كما حصل على مرتبة الأستاذ الأول المتمرس عام 2001 م.

3- (3) ديوان أهل البيت (عليهم السلام)، د. محمد حسين الصغير/ 187.

لقد تحولت القباب عند الشاعر من مجرد بناء إلى سراج إذ أنها تهدي الناس إلى سبل الرشاد والتقوى وهذا السراج أيضاً ليس كأى سراج بل هو امتداد للنور الإلهي الذي قال عنه الله، وَ اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ 1 ، فهو عصي على من يحاول إطفاءه، لأنَّ نور الله لا يُطفأ... وهنا يوجد تداخل رائع بين القباب الحسينية والنور الإلهي.

كما يؤكد الشاعر طالب الحيدري على قوافل الزوار التي تقد إلى كربلاء من أقاصى الشرق والغرب، يطوفون حول ضريح الإمام الحسين عليه السلام، ويلوذون به فهو الوسيلة إلى الله تعالى وهذا ما جعل كربلاء المقدسة روضة من رياض الجنة قائلاً:

تلفتت إليك أعناق الورى نحوك تنحو وعليك تُقبلُ

ومن أقاصى الشرق والغربِ معا قوافلُ إلى حماك ترحلُ

وفدٌ يعودُ غانماً وآخرٌ يحطُ فى مكانه وينزلُ

كانَ كربلاءَ فى قيامةٍ حيثُ الملايينُ أكفُ تسألُ

وحيثُ كعبةُ الولاءِ والهوى فيه الحسينُ والكتابُ المنزلُ

ضريحُ خيرِ الناسِ أمأً وأبأً هو المطافُ، أو هو المُقبلُ (1)

إن قضية الإمام الحسين عليه السلام فى كربلاء تأخذ مدى روحياً عند الشاعر، فإنها تزيد من هممة النشاط الوجدانى لديه، وتسحب الفكرة من أعماقه لصوغها بأحاسيس ومشاعر صادقة "لأنَّ الكلمة تحاكي فى إيقاعها معناها كما

ص: 107

1- (2) ملحمة كربلاء، المشعل، طالب الحيدري / 198.

يحاكى الهديل صوت الحمامة والخير صوت الماء" (1).

وقد عبر الشاعر محمد الحلبي الذي يرى القباب العالية المحاطة بأنفاس معطرة يضوع منها شذى الحياة، عن أن أرض كربلاء جنة لكونها تضم قبر ابن بنت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا ما جعلها روضة من رياض الجنة على مدى الدهر قائلاً:

وأرفعُ كفى إلى قبةٍ تضوعُ بأنفاسِهِ الزاكيَاتُ

كَأَنَّ مَلَائِكَةً مُحَدِّقِينَ يَطُوفُونَ فِيهَا طَوَافاً سَعَاءً

جَمُوعٌ تُصَلِّي عَلَيْهِ وَأُخْرَى تُعَطِّرُ بِالطَيْبِ كُلَّ الْجِهَاتِ

مَكَانٌ مِنَ الْأَرْضِ أُمَّ جَنَّةٍ يُضْمُّ لِسَبْطِ الرَّسُولِ رِفَاءً

أُحْسِنُ "الحسين" يرُدُّ السَّلامَ وَيَبْسُطُ كَفِيَّهُ بِالْمَكْرَمَاتِ (2)

في هذه الأبيات تداخل المكان في وجدان الشاعر الحسيني حتى غدا المنظور المادي والروحي يأتلفان مع بعضهما، فالمهرجان الملائكي الزاخر تحركه الملائكة صعوداً ونزولاً تسيحاً وصلابة وتنظيماً، ولم يعد الضريح مجرد منظور مادي بل صار المكان الملائكي الذي يبسط فيه الحسين كفيه بالمكرمات لزياره.

"وفي السلم الإبداعي للقصيد الحسينية أصبح التناسب بين الإيقاع والمعنى معياراً للحكم على رقى تجربة الشاعر، فكلما وازن الشاعر بين الإيقاع والمعنى فذلك دليل الموهبة" (3)، فثمة علاقة وطيدة بين اختيار الشكل والمضمون الذي

ص: 108

1- (1) فن الشعر، هوراس / 24.

2- (2) إمام الخلود، الشاعر الدكتور محمد الحلبي، حولية الكوفة، ع 3، لسنة 2013/232.

3- (3) دلالة الصورة الحسية في الشعر الحسيني، د. صباح عباس عنوز / 42.

يرتضيه الشاعر لأنَّ "الكلام الفنى ولا سيما الشعرى كلام مصوغ على أساس صوتى، ولا يكتسب تأثيره إلا بتنوع صور الأداء، ومن هذه الصور الاستعمال الأمثل للإيقاع، ذلك يعنى استغلال قيم الألفاظ الصوتية مضافاً إليها حسن التصرف فى بناء الجمل فضلاً عن بنائها العروضى" (1)، وفى المكان الحسينى نرى كثيراً من الشعراء يتناغم إيقاعهم مع معانيهم التى تنساب من أحاسيسهم الفياضة ومن عقيدتهم الراسخة وذويان مهجتهم بسبب وقفهم على أطلال آل البيت عليهم السلام، التى ذهب إليها الشاعر عبر زمنه النفسى وهو يغوص فى أعماق التاريخ متذكراً آل البيت عليهم السلام فى تلك الواقعة الأليمة.

ففى ذهن الشاعر الحسينى يتداخل معنى الخلود بمعنى الوجود، فإنَّ فعل الجور الخالد ينعكس بوجود الخلود العظيم الذى يحسه الوجود المكانى بالمأذنة الشريفة، وهذا ما وصفه الشاعر فليح الركابى قائلاً:

قالوا ترجل فارس موحد صه ياردى ان العظيم مخلدٌ

صه ياردى أن الحسين منائر رغم الطغاة وجورهم هو سرمدٌ (2)

وهنا يؤكد الشاعر الركابى الحقيقة السابقة وهى أن البريق المكانى بلغ بلا شك القدرة على الرؤيا عند الباغين.. وهنا أيضاً الوجود المتسامى الذى يتحد مع كل فجر قائلاً:

ذاك البريقُ بكر بلا فى أعين الباغين مضُّ

يا سيدى دفءٌ شذاك وكلكم للظلم رفضٌ

ص: 109

1- (1) أثر البواعث فى تكوين الدلالة البيانية، د. صباح عباس عنوز / 220.

2- (2) صراخ فى اروقة الصمت، د. فليح الركابى / 5.

أنت الذى منح الوجود تسامياً والفجر بض (1)

كما وصف الشاعر كاظم عبدالله العبودى * (2) المكان الحسينى (كربلاء) بأنه منائر تسطع فى عين الشمس وتبقى مدى الدهر خالدة فى قوله:

ظلت مدى الدهر عين الشمس مطلعها حتى عن الليل يجلو ساطعاً سُدفا

ظلت مناراً فما ضل السراة به ظلت مناراً ويهدى كل من جذفا

فما تمسك فى اركانها سلف إلا هى العروة الوثقى لمن خلفا

وما تيممت إلا قصد تُربتها أنمى سرى بى ركاب صوبها عطفاً (3)

وعبر الشاعر عبد الامير خليل مراد عن كربلاء بأنها اضحت اشعاعاً فكرياً، ومصدراً إيمانياً لكل المسلمين فى العالم، وهذا مما أعطاها دعماً معنوياً بقوله:

لو أننى خاصرتُ كربلاء

لشممت رىّ النحر فى زفيرها

منارةً من رفرِف

وجتةً غناء

إلى قوله:

هذا أبو الفضل... وذى علوقه

ص: 110

1- (1) المصدر نفسه / 5.

2- (2) * كاظم عبد الله العبودى مواليد قضاء الرفاعى محافظة ذى قار، شاعر وكاتب عضو اتحاد الأدباء والكتاب تخرج من معهد الصحة العالى ببغداد ومن مجاميعه الشعرية (عيون الهواشم أغلى وإكراماً لعيون ليلى ورؤى غادة كانت زهراء) ولديه رواية مطبوعة بعنوان (وابتسم المطر).

3- (3) وعيون الهواشم اغلى، كاظم عبدالله العبودى / 36.

سرعان ما وجدت كربلاء نفسها تؤدي دوراً حضارياً بارزاً ومتزايداً مع مرور العصور الإسلامية اللاحقة إذ ذاع صيتها لأهميتها الروحية والدينية والثقافية والعمرانية، كما أنها أصبحت معالم يقصدها المسلمون من شتى أنحاء المعمورة لزيارة أضرحتها وإقامة الشعائر والطقوس الدينية. فكربلاء مكان مقدس وإشراق حضارى تأوى إليه النفوس قبل الأجساد. وقد أكد الشعراء تحول المكان الحسينى الذى أصبح قبلة للمحبين وعشاق الحرية فى العالمين العربى والإسلامى.

امتازت أحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام بعد واقعة الطف، بالسَّعة في تعريف الناس بشرافة هذه التربة المقدسة وبما تحمل من خصائص، وذلك لاشتهار المكان بين الناس ومعرفتهم إياه، بسبب فاجعة مقتل الإمام الحسين صلوات الله عليه، ولتوجيه الناس إلى التحلى بالآداب واللياقة عند توجيههم لزيارة صاحب التربة ومشرفها، ولنقل الحالة المعرفية عند أهل الإيمان من مرحلة العلم بحقيقة الشيء إلى مرحلة العمل، فكان حملهم لهذه التربة كاشفاً عمّا توصلوا إليه من معرفة بها، فتقديسهم لها واستشفائهم بها وسجودهم لله عليها، دافعوا العلم بخصوصية هذه التربة، ومنها عن الإمام أبي جعفر الصادق عليه السلام قال: "خلق الله كربلاء قبل أن يخلق الكعبة بأربعة وعشرين ألف عام، وقدسها وبارك عليها، فما زالت قبل أن يخلق الله الخلق مقدسة مباركة، ولا تزال كذلك" (1).

ص:112

ولقد قدم مدينة كربلاء التاريخي، ولجمال مناظرها، ولطيب هوائها فقد سكنها الأشراف من الأمم السابقة، وأباؤنا القدماء، وقد خلف هؤلاء مواقع أثرية متعددة ومنتشرة في أرجاء المدينة كافة، منها ما تلفته العوامل الطبيعية، ومنها ما هو باق لحد الآن يشهد بحضارة الامم وريقيها التي سكنت هذه الأرض الطيبة(1).

إن الأثرية الساحقة من المسلمين وغير المسلمين في البلاد العربية والإسلامية وغير الإسلامية تعرف الشيء الكثير عن مدينة كربلاء المقدسة، لما لها من ماضي مجيد، وتاريخ تليد، ومكانة مرموقة، ومنزلة سامية، وقد أصبحت قبلة أنظار المسلمين ومحط رحال العلماء، ودار هجرة الأدياء والشعراء.

وهكذا أصبحت كربلاء بعد هذه الواقعة من المدن الإسلامية المقدسة والحواضر المعروفة، فقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يُعلي شأنها، ويجعلها مهوى أفئدة الملايين من المسلمين، ومقصد الجموع الغفيرة من الصالحين، وحبابها بنعمة دائمة لا تزول، واسمها يتردد على ألسنة المؤمنين يترنمون به، ويلهجون بذكره، ويهفو إليها البعيد والقريب بعد أن خصها البارئ الجليل بمقام كريم ومرقد عظيم، ذلك هو مرقد سبط الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، الإمام الحسين ابن عليّ عليهما السلام، فنُسبت إليه المدينة(2)، وقيل عن كربلاء مدينة الحسين عليه السلام، ومن هنا اكتسبت أرض كربلاء عامل جذب روى ومعنوى قوى جداً ظل يشد الناس المؤمنين إليها، وكل أولئك الذين باتت واقعة عاشوراء المفجعة تثير في نفوسهم كوامن الحزن واللوعة والأسى، وتستنهض همهم للتوجه إلى هذه الأرض، وشد الرحال إليها من كل حذب وصبوب لغاية التشرف والتبرك

ص:113

1- (1) أضواء على معالم كربلاء، محمد النويني، ج 32/1.

2- (2) ينظر: معالم إنسانية في نهضة الإمام الحسين، جعفر الحائري/ 65.

والتشفيع بزيارة روضة أبي الأحرار وأصحابه الصناديد، وسيد الشهداء الأبرار، وسليل رسول الله الإمام الحسين عليه السلام، فيما الكثيرون من هؤلاء المندفعين، والمتشوقين لزيارة قبره الشريف لم يكتفوا بزيارته بصورة عابرة، أو في خلال وقت قصير، بل تشبثوا بهذه الأرض، وفضلوا البقاء فيها لأطول فترة ممكنة، وحتى لآخر أيام حياتهم، ممن تمثلت أمنيتهم الغالية في ان يكون محياهم ومماتهم، بجوار قبر الحسين عليه السلام⁽¹⁾.

ويستثمر الشاعر الركابي الجانب الديني في مقارنة شمولية، تفصح عن التشكيل البنائي للنص وهندسته اللغوية، إلى درجة الرهافة الفنية وتكوينها الجمالي، فلا ريب أن ذلك يجعل هذا الجانب وسيلة أسلوبية فاعلة في خريطته الشعرية، كما في نص سيد الرفض، الذي تتواشج فيه الصور المجسدة لمضامين واقعا الإسلامى وتراثنا الخالد، ولعلّ السر يكمن في أن فرصة الحدث التاريخى الممتد من واقعة الطف، تتيح له أن يجعل نصه فى مناخ طقسى، رغبة بالتفجع والإحساس بالمأساة، التى تداعبها هواجس الماضى والحاضر⁽²⁾ قائلاً:

أيا سيدى

عدوت السنين

شربت الهموم

وأوقدت غيظك

سموت الرماح

ص: 114

1- (1) مقتل الحسين، محمد بحر العلوم / 196.

2- (2) د. فليح الركابى.. يفتح مسارب الكلام.. فى (منامات مستيقظة)، د. كريم حسن اللامى، مقال فى جريدة المشرق، تاريخ النشر 2013/8/4.

أقمت الصلاة

وأحييت فرضك

سموت كذكر

لأنك أنت الحسين

سيورق في الجذب روضك

لأنك أنت الحسين..

لقد كنت كلاً

ويبقون بعضك(1)

"فالشاعر يوظف وسائل تعبيرية فنية في البناء الشعري انحصرت في اللغة الموحية والصورة الفنية المدهشة والإيقاع النغمي والمفارقة التصويرية.. فضلاً عن توظيف الشخصية كمعادل موضوعي لتجربته الذاتية واستدعاء النصوص الغائبة وتضمينها في بنية القصيدة لأحداث نوع من التلاحم البنيوي بينهما"(2) كما في النص:

ياسادتي

شواهد تلك الرماح رجالهم

تدحرج الرؤوس في الازمنة

فاليوم كان البارحة

فاليوم كان البارحة(3)

ص:115

1- (1) منامات مستيقظة، سيد الرفض، د. فليح الركابي/72.

2- (2) التعامل الإشاري في منامات مستيقظة، علوان سلمان، جريدة المشرق، 2013/9/14.

3- (3) منامات مستيقظة، قراءة في منامات موحشة د. فليح الركابي/72.

فالشاعر يتعامل مع الرمز (الحسين) إشارياً من خلال بعض المسميات (الرماح وتدحرج الرؤوس..) ويكشف انفعالاً.. ويعبر عن تجربة في سياق موجٍ ومشع الدلالة.. كونه الناثر الذي ظل مستقراً في مخيلته ووجدانه باعتباره الرمز المنقذ الذي يفتقر له الواقع بسردية الحدث التاريخي بكل جزئياته وحيثياته لتتنامى عنده فاعلية الإحتواء الخالق للتوهج الإبداعي المبني على أفق مفتوح.

تعدّ القصيدة أنشودة لمعانى الدماء الثائرة الخالدة، والحياة الحقيقية والمبدأ الحر والنور المشرق، والرسالة الناصعة، وقد افتتحها بالعزيمة والعطاء والهمة والمجد السامي. إن كربلاء والحسين عند الشاعر الوائلي حياة لا تموت لأنها وُلدت لتبني وتبدع، وهي ثورة وعطاء لمستقبل زاهر بأيدي المكافحين والثائرين:

وأنت حياة لا تموت على المدى توالد في خلقٍ وتنشئ وتبدعُ

أبا الثورة الكبرى صليل سيوفها نشيداً بأبعاد الخلود مرجعُ

تُشير وإيماضُ القواضب مشعلٌ وتحدو بركب الثائرين فيتبع (1)

وإذا كان الشاعر عبد الرزاق عبد الواحد يرى كباقي الشعراء أن كربلاء تستلهم ضياءها من الحسين عليه السلام، فإنه يقر أن كربلاء كانت وفية للحسين حينما احتضنت جراحه وعطشه، وصارت تشع سناءً حسينياً وزفرات حسينية حتى توحد المشهد الحسيني بأرض كربلاء، فصارت أرض كربلاء موضع تقبيلٍ لما تحضنه من الجرح الحسيني العظيم. كما استطاع الشاعر أن يمنح الصورة رؤية بصرية وحركية في أن واحد، حيث جعل المنائر تتألأ ضياءً ونوراً والقاءً:

فَيَاسِيْدِي يَا سَنَا كَرْبَلَا يَا لَيْلِيْ فِي الْحَلَكِ الْأَقْتَمِ

ص: 116

تشعُ منائرُهُ بالصِّياءِ وتزفُّ بالوَجَعِ المُلهمِ

ويا عَطشاً كلُّ جَدْبِ العصورِ سيشربُ من وِردِهِ الزَّمَمِ

سأطبعُ ثغرى على موطنيك سلاماً لأرضك من ملثم (1)

إنَّ الحسين عليه السلام في شعر الشيخ أحمد الوائلي مفهوم منفتح ومُنطَلِقٌ في كلِّ زمنٍ وكلِّ جيلٍ يكافح من أجل عزته وكرامته، بل هو الأنشودة المغردة في حناجر الأحرار والكلمة المدوية التي تتردد على ألسنة الثائرين في العصر الحاضر، وهو أبٌ للحرية الذي قدم أغلى ما عنده في أرض الطفوف، وبسبب هذه التضحية أصبحت كربلاء قبلة أنظار العالم، كما يؤكد هنا وفاء أرض كربلاء للحسين عليه السلام لأنها احتضنت هدير الجرح وهو الدم العلوي الأبى، والبطولة الخالدة، لقد بنى الحسين مجد كربلاء بقيمته الإنسانية الثورية وكربلاء ما انفكت تترجمه بأصيْلِها وشفقها فيقول:

أيا كربلاء يا هديرَ الجراح وزهو الدمِّ العلويِّ الأبى

ويا سفر ملحمة الخالدين بغير البطولة لم يكتب

ويا صرح مجدِّ بنائه الحسين فأبدع في رصفه المعجب

سبيقى الحسين شعاراً على صعيدك والشفق المذهب (2)

إنَّ كربلاء الحسين عليه السلام عند الشيخ الوائلي ساحة للاندفاع نحو التضحية لا نحو الدموع التي تُبرِّد القلوب بعد اشتعالها فقط، فالحسين عليه السلام عنده نهضة نضالية لمعنى القوة والعزيمة.

ص: 117

1- (1) في رحاب الحسين، عبد الرزاق عبد الواحد / 5.

2- (2) سبيقى الحسين شعاراً، الشيخ أحمد الوائلي / 35.

وقد وصف الشاعر محمد الحلبي جموع الوافدين الى كربلاء رجالاً ونساءً، جموعاً وفرادى، كباراً وصغاراً، يجيئون شوقاً إلى كربلاء الحسين قانلاً:

يَشُدُّ الرِّحَالَ إِلَيْكَ الْأَنَامَ وَيَشْمَخُ قَبْرِكَ كَالرَّاسِيَاتِ
يَجِيئُونَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ تَسَابِقُهُمْ مَهْجٌ خَافِقَاتُ
رِجَالاً نِسَاءً صِغَاراً كِبَاراً جَمُوعاً فُرَادَى رُكُوباً مَشَاءً
يَجِيئُونَ شَوْقاً بِأَفْنَدَةٍ مِنَ الْحَبِّ تَجْهَلُ مَعْنَى الْأَنَاءِ
يَجِيئُونَ كَيْ يُعْلِنُوا أَنَّهُمْ عَلَى حَبِّ آلِ الرَّسُولِ الْهَدَاءِ
يَطُوفُونَ حَوْلَ الضَّرِيحِ طَوَافاً بِالسَّنَةِ لَمْ تَزَلْ ذَاكِرَاتُ
فَتَخْضَرُ أَرْوَاحُهُمْ بِالِدَعَاءِ وَتُمْسَحُ أَحْزَانُهُمْ بِالصَّلَاةِ
وَبِالْمَوْتِ تُسَكِّنُ كُلَّ الْقُبُورِ وَقَبْرِكَ مَمْتَلِئٌ بِالْحَيَاةِ
فِيَا سَيِّدِي يَا إِمَامَ الْخُلُودِ وَيَا مَدَدَ الرَّافِضِينَ الْأَبَاءِ
سَنَبَقِي نَزْوَرُكَ يَا سَيِّدِي وَيَرْغَمُ قَبْرَكَ أَنْفَ الطَّغَاةِ (1)

لقد رسم الشاعر محمد الحلبي هذا التوافق الحركي المتناسق بين حركة الزائرين الوافدين إلى كربلاء، وبين حركة المكان الحاضن لهم يأتون من كل فج عميق، تسابقهم مهجهم الخافقة بحب الحسين، وتضم حركتهم كل أنواع المتحركين، من رجال، نساء، صغار، كبار، فرادى، جموع، مشاة، ركوب، والحركة الثورية فيهم متسارعة لا تترك مكاناً لحركة الأناة، والخوف، الإحباط، بل إنهم يتحركون باتجاه الإعلان عن حركتهم، التي تبلغ ذروتها بالطواف حول الضريح الطاهر.

ص: 118

إن حركة هؤلاء الزائرين تتلقفها حركة المكان الكربلائي المقدس، حيث تفيض القداسة والبركات فتمنح حياتهم خضرتها وريبعها ويمحو حركة الحزن التي فيضها المكان.. إن التناسق بين الزائرين والقبر الشريف يبلغ مداه، (مداه الحركي) فيما يشير الشاعر إلى أن الحركة (لون الحياة) هي اللون الذي يمتلئ به المكان الحسيني خلافاً لحالات السكون التي تخيم على قبور الناس. وأنه يؤكد حقيقة لا جدال فيها، وهي أن الإنسان ينتهي بالموت ويسكن قبره إلا أن قبر الإمام الحسين عليه السلام ممتلئ بالحياة لكثرة زائريه، لذا سوف تبقى كربلاء مكاناً جذاباً أبد الدهر. وأن هذا التحول المكاني في الشعر الحسيني المعاصر في العراق كان إيجابياً لأن الإمام قبلة لعشاق الحرية.

إن التركيز على عنصر المأساة التي وقعت في كربلاء أدى إلى إختزال تعاليم هذه المدرسة الفكرية العظيمة بعنصر المصيبة الفاجعة التي حلت بالحسين وأهل بيته وأصحابه وغابت عن أنظارنا الأهداف التي سعى إليها الحسين عليه السلام من وعى النهضة الى تحقيقها حتى خيل للبعض أن النتائج (الموت والسبي..) التي حصلت في كربلاء هي الأهداف التي سعى الإمام الحسين لتحقيقها من أول الأمر.

إن موضوع المكان الحسيني يتميّز بالثراء، وكثرة التفاصيل، وغزارة الموضوع، وتنوع المفصلات المؤثرة فيه، الأمر الذي يحتم على الشعراء التنوع الشعوري، فالشاعر وإن كان مقلداً في البناء والشكل الفني، فإنّه من المستبعد أن تتشابه استجاباته العاطفية للمواقف المؤثرة في واقعة الطف، مع استجابات غيره من الشعراء، لاسيما أن الأمر يتعلق بمعتقده الديني. وقد تجلّى في نصوص الشعراء تحولات المكان الحسيني الجاذبة المشرقة.

المبحث الثالث: كربلاء مكان حسيني مزدهر

وحيث إن أرض كربلاء قد سبقتها الألفاظ الإلهية فكانت حاملة للتشريفات النبوية والرسالية ما جعلها الربوة المقدسة، وطوى، والجانب الأيمن، وروضة من رياض الجنة. امتازت تربة كربلاء بميزات عديدة منها تشريفية وتفضيلية اختصت بها هذه التربة، لذا فإنها مقصد أهل البيت عليهم السلام، ومقصد المؤمنين في الالتماس للفيوضات الالهية، ونزول البركات الربانية.

شغل المكان من دون سواه إحساساً بالمواطنة، وإحساساً آخر بالزمن وبالمحلية حتى تحسبه الكيان الذي لا يحدث شيء من دونه، فوجد فيه بعض الشعراء تاريخ بلادهم ومطامح شخوصهم فكان واقعاً ورمزاً لشرائح وقطاعات مُدنٍ وقرى وكيانات نتلمسها ونراها أو كياناً مبنياً في المخيلة ولهذا نجده قد احتل حيزاً في اللغة شأنه شأن أى عنصر من عناصر الإبداع الفنى لمفردات اللغة الشعرية.. حيث زخر شعرنا العراقى بدلالات مكانية متنوعة وفي أساليب عديدة ومختلفة وإذا أمعنا النظر في القصائد التي ذكرت أرض كربلاء لوجدناها تعكس لنا رمزاً قدسياً متأصلاً ومتجدداً، فالمكان يتخذ في الشعر محاور دلالية ورموزاً فكرية،

وأبعاداً وعلائق متداخلة القيم الى جانب كونه مميزاً بالخصائص الفنية، وقد يتجاوز مفهومه الحقيقي على الأرض من خلال تلك التعبيرات المتبادلة مع المحدود مما يقربه من الأفهام، وينطبق فيه التجسيد على العديد من الأغراض الاجتماعية والدينية والسياسية والأخلاقية(1).

فمن سمو التاريخ الذي حرص عليه الشاعر محمد حسين الصغير في تطاوله الأنجم الزاهرة الى استنشاء الذكرى به حين فاض البهاء وصبغ فجر الأفق بدماء أبتت الطريق الرسالي سالكاً خالياً من الشوائب العبثية الرذيلة، وموشحاً ليقيم الفضيلة:

سما عظماً تاريخك الأنجم الزهرا وفاض بهاء تستضيء به الذكرى

وفاض جهاداً.. ضمخ الأفق فجره دماء بها الإسلام قد أدرك الثأرا(2)

لقد كان الإبداع واضحاً حيث أظهرته الصورة الحسية الصادقة للشاعر محمد حسين الصغير وهو يقف متصاغراً أمام الإمام الحسين عليه السلام ليراه رمزاً خالداً ذا إباء وشموخ يسر كل الناظرين المتأملين لعظمته، فكانت الصورة مشبعة بفيض الوجدان بقوله:

هذا بقاؤك بالخلود مرصع في كل منعطف إباؤك يصدعُ

يا سيد الشهداء هذى صرختي ضاقت أسى ولفييض عفوك تطمُع

ما كدت اكتب في شغافٍ همسة إلا ذوت وبجمر قلبي تهجعُ(3)

ص:121

1- (1) ينظر: حقيقة الاثر الغيبي في التربة الحسينية، السيد نبيل الحسنى / 10.

2- (2) ديوان أهل البيت، عندما تتمم عيون المغفرة، د. محمد حسين الصغير / 58.

3- (3) المصدر نفسه / 60.

لقد كانت الصورة تعبيرية إيحائية، فضلاً عن الصورة الحسية التي كانت مرسومة ببناء فني فيه تماسك اللغة وهدف الموضوع.

أظهر الشاعر أن الخلود يطأطئ رأسه للحسين عليه السلام لفعله الإنسانى المجيد فى طف كربلاء حين كانت هذه الأرض مسرحاً لأبشع جريمة عرفتها الإنسانية.

أما الشاعر محمد الحلى فى قصيدته نشيد الوفاء يرسم بعض التفاصيل الكربلائية التى أظهرت أن الحسين عليه السلام جعل أرض كربلاء مدرسة للبطولة والرجولة.

أبا الأحرار هل أبقيتَ مجداً عظيماً لم تُذِلْ - هـ ارتقاء

وقفتَ ترى حياض الموتِ طفلاً تعانقهُ وتحتضنهُ انحناء

وذقتَ مرارة الخذلان جهراً فلم تخذلُ بما خضتَ الإباء

وقد أبكاكَ أن تغدوا سبيلاً لمن قتلوكَ أن يردوا الشقاء

فأية رحمةٍ سكتنُ جموحاً وأئى جموحٍ قلبٍ ما أفاء

فلو أن البطولةَ من حروفٍ فأنتَ ملكتها ألفاً لياً ()

لقد اقتنص الشاعر محمد الحلى من بين صور البطولة فى كربلاء صورة قلماً اقتنصها الشعراء وهى مما لم نجد لها شبيهاً فى كل البطولات وهى بكاء المقتول على قاتليه شفقة منه عليهم.

إن الصفة البارزة عند الإمام عليه السلام هى الإباء عن الضيم حتى لقب عليه السلام ب - (أبى الضيم) وهى من أعظم ألقابه عليه السلام ذيوماً وانتشاراً بين الناس، كان المثل الأعلى لهذه الظاهرة. فهو الذى رفع شعار الكرامة الإنسانية،

ورسم طريق الشرف والعزة، فلم يخنع، ولم يخضع لقرود بنى أمية، فأثر عليه السلام الموت تحت ظلال الأسيّة.

لقد علّم أبو الأحرار عليه السلام الناس نُبْلَ الإباء ونبل التضحية، وقد كانت كلماته عليه السلام يوم الطف من أروع ما أُثِرَ من الكلام العربى فى تصوير العزة، والمنعة، والاعتداد بالنفس، فكان يقول عليه السلام:

(ألا- وَإِنَّ الدَّعَى ابْنَ الدَّعَى قَدْ رَكَزَ بَيْنَ اثْنَتَيْنِ، بَيْنَ السَّلَّةِ وَالذَّلَّةِ، وَهَيْهَاتَ مِنَّا الذَّلَّةُ، يَا بَى اللّهِ ذَلِكَ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ، وَحِجْرُ طَابَتْ وَطَهَّرْتُ، وَأُنُوفٌ حَمِيَّةٌ، وَنُفُوسٌ أَبِيَّةٌ، مِنْ أَنْ تُؤْثِرَ طَاعَةَ اللُّثَامِ عَلَى مَصَارِعِ الكِرَامِ)(1).

وقف عليه السلام يوم الطف كالجبل الصامد، غير حافل بتلك الوحوش الكاسرة من جيوش الردّة الأموية. وقد ألقى عليهم وعلى الأجيال أروع الدروس فى الكرامة وعزّة النفس وشرف الإباء قاتلاً: (وَاللّهِ لَا أُعْطِيكُمْ بِيَدِي إِعْطَاءَ الذَّلِيلِ، وَلَا أَفْرَارَ الْعَبِيدِ...)(2) وقد تفوق الإباء الحسينى على المكان فتدفق شجاعة وتضحية وهذا ما وصل إليه الشاعر جاسم بديوى قاتلاً:

دنا منك الفرات كسير عين وقبّل ما تدوس ونزّ رملا

هناك غسلت وجه الموت حياً وكان بلا يدين وكنت وصلا

لأنك زرت قبرك مذ جراح تطوف بك الجراح فصحت أهلا

لأنك قد قتلت الحرب مر مطأطأة الرماح عليك خجلى

ص:123

1- (1) نشيد الوفاء، محمد الحلبي / 27. (2) مقتل الحسين للمقرم / 280.

2- (2) معالم المدرستين، السيد مرتضى العسكري، ج 10/3.

ومنك قد ابتدأت فصرت بدءاً نهائياً يزيد اذا اضمحلالاً (1)

لقد صارت كربلاء شعلة وهاجة أنارت درب الثائرين في تاريخنا الماضي، وهي شمس هدى لن تنطفئ تبير وتضىء المستقبل، فعلى الرغم من حرب الحاقدين وبغى الظالمين ونصب الناصبين العداء لأهل البيت عليهم السلام، فإنّ هذه الثورة المباركة التي كبرت لها الدنيا وخشعت لها الإنسانية وتوارثتها الأجيال جيلاً بعد جيل ومن بلد الى آخر، أخرجتها بثوبها الجديد قيمة إنسانية كبرى وقدوة حسنة وكنزاً عظيماً من دروس الإباء والشموخ والصبر على تحمل الصعاب والتضحية في سبيل الله ومبادئ الإسلام كربلاء مدرسة الروح الإسلامية الثورية التي خرّجت الأبطال والمضحجين لله وللإسلام المحمدي العلوي النقي، وبهذا كانت كربلاء الخلود والانتصار.

يؤكد الشاعر عبد الأمير خليل مراد الحقيقة الظاهرة للعيان التي تفصح أنّ ما حصل في كربلاء المقدسة، إنما هو انتصار الدم على السيف، وانتصار الفضيلة على الرذيلة.

أنا الذي اختصرت عالمي

بالرفض فاجتزت القرون مسيحاً آخر

يتلو من فوق الصليب

أبجدياته الجديدة

الأبجديات التي تعلمنا تقاويم الماضين ونذر الآتين

وهو يصرخ في وجوههن

ص:124

1- (1) غيوم من قصب، جاسم بديوي / 48.

البقاء لنا ولإعدادنا الموت

هكذا قال لنا الله

الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ

ذلك لأنّ الدم دائماً يعلو على السيف

وهو بشارة الحرية الباقية

إذ يتدلى الرأس

على الرمح

كأنه الشمس...

نعم... إنّه الشمس (1)

شاعت الإرادة الإلهية أن تجعل مشاهد رموز كربلاء وملحمتها الخالدة مركز إشعاع لقيم السماء، يستلهم منها طلاب الحقيقة والكرامة روح الاستقامة والثبات على الصراط المستقيم، وبذلك تغلبوا على جميع محاولات الصد عن سبيل الله وشرعه القويم، فكانت كربلاء مناراً يهتدى بها المسلمون وغيرهم.

ص: 125

المبحث الرابع: المكان الحسيني رمزاً ثورياً

يعدُّ التاريخ منبعاً ثراً من منابع الإلهام الشعري، الذي يعكس الشاعر من خلال الارتداد إليه روح العصر، ويعيد بناء الماضي وفق رؤيا إنسانية معاصرة، تكشف عن هموم الإنسان ومعاناته وطموحاته وأحلامه، وهذا يعني أن الماضي يعيش في الحاضر، ويرتبط معه بعلاقة جدلية تعتمد على التأثير والتأثر، تجعل النص الشعري ذا قيمة توثيقية، يكتسب بحضورها دليلاً محكماً، وبرهاناً مفحماً على كبرياء الأمة التليد وحاضرها المجيد، أو حالات انكسارها الحضاري ومدى انعكاسه على الواقع المعاصر. بمعنى آخر، يستلهم الشاعر أوجه التشابه بين أحداث الماضي، ووقائع العصر وظروفه إن سلباً أو إيجاباً، وهو في هذا كله يطلق العنان لخياله لكي يكشف عن صدى صوت الجماعة، وصدى نفسه في إطار الحقيقة التاريخية العامة التي يبحث عنها، أو الموضوعات التاريخية الكبرى، التي تشكّل حضوراً بارزاً في تاريخ الأمة من دون الخوض في جزئيات صغيرة.

لم تكن كربلاء واقعة تاريخية وحسب، إنما معركة حضارية تجسدت فيها وتلخصت كل تجارب البشرية من آدم إلى يوم استشهاد الحسين ولاحت منها كل معاني الحياة وفلسفتها ورسمت للمستقبل خطوطه ووضحت للأجيال أهدافها،

حيث كانت أعظم معركة فى التاريخ بين الحق والباطل. لقد شحنت كربلاء إرادة الأمة بالعزيمة الراسخة بما بلورت من الأحاسيس الخيرة فى الإنسان، ذلك لأنّ لهذا الإنسان مخزوناً كبيراً من العقل والإرادة والعاطفة، وهو غالباً ما يرحل عن هذه الدنيا قبل أن يفيد من هذا المخزون الضخم.

إن من أهداف رسالات السماء، ومصلحى البشر إثارة دفائن العقول، وشحذ الإرادة والعاطفة وتحريكهما واستخراجهما من باطن الإنسان إلى واقعه، وهذا ما فعلته ملحمة كربلاء بالضبط، فقد كانت هى الطليعة والقدوة لجهد الإنسان فى تفجير مخزونه الإرادى والعقلى والعاطفى، ففى زيارة الإمام الحسين عليه السلام نقرأ عبارات مثل: (السلام عليك يا قتيل العبرات، وأسير الكربات)(1)، فملحمة كربلاء ما زالت تستدر دموع الناس عامة وخاصة الموالين، ومجالس العزاء كانت وما تزال تقام على مدار أيام السنة لاسيما فى شهر محرم الحرام، كما أن ذكر الإمام الحسين عليه السلام أصبح على كل لسان وفى كل مكان ومناسبة. لقد قام الإمام الحسين عليه السلام ثائراً، وتحول مع مرور الزمن إلى ثورة بل إلى مفجر للثورات فى ضمير الإنسان، ولم يعد عليه السلام ذلك القتيل على رمضاء كربلاء، ولم تعد عاشوراء تلك المدة المحدودة من الزمن، فلقد أصبح الإمام عليه السلام رمزاً للثورة(2).

وهكذا فقد تحول الإمام الحسين عليه السلام من شخص إلى رمز، ومن رمز إلى مسيرة، ومن مسيرة إلى حقيقة ثورية، وحينما نقول إنه عليه السلام كان ثورة، فهذا يعنى أن كل قلب سيتفجر بالثورة عندما يرتبط بينوع الإمام عليه السلام،

ص:127

1- (1) ينظر: بحار الأنوار، للمجلسى، ج 225/98.

2- (2) ينظر: الإمام الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة، للسيد محمد تقى المدرسى / 45.

فحينما يذكر عليه السلام تقفز إلى الأذهان فكرة الشهادة والبطولة والفداء وكل معاني العمل من أجل الله تعالى والمستضعفين والمحرومين في الأرض، وكلما تجددت ذكرى عاشوراء تفتحت أبصارنا، وتفجرت طاقاتنا، إذ أن ملايين البشر على امتداد الأرض يتحولون في يوم عاشوراء تحولاً ثورياً يغذيهم بمعاني الثورة خلال السنة كلها.

منذ أربعة عشر قرناً مضت وإلى الآن نجد الناس يستمدون من ثورة الإمام الحسين عليه السلام معاني الثورة والاندفاع والتضحية، مما يدل على أن هذه الملحمة قد تحولت إلى مسيرة، والإمام عليه السلام إلى ثورة، وهذا حدث مهم في حياة الناس.

إن الحسين عليه السلام يشكل رمزاً ثورياً ضد الظلم والاستبداد فلم يعد رمزاً دينياً فقط بل رمزاً لبطل قومي، ثورى يستلهم الشعب ثورته وتضحيته من خلال إعادة ذكره. لهذا نرى أن كثيراً من القصائد والأغاني والأشعار الحسينية لها أبعاد وأهداف سياسية (1) وكذلك أصبح المكان الكربلائي رمزاً وتحول من صحراء إلى رمز للفداء.

ولنتأمل شعر الدكتور محمد حسين الصغير وهو يخاطب المتلقى ويركز على الصورة الحسية لأرض كربلاء التي أصبحت رمزاً للتضحية والفداء، ثم يعمد إلى الإستعارة لرسم صورته حين جعل التربة الكربلائية تفيض دماءً ناطقة فجعل نطقها هو الدماء التي عليها وهنا يؤكد الشاعر على أن المكان الكربلائي لم يعد مجرد مكان جامد تحكمه أبعاد الطول والعرض بل صار كائناً حياً ناطقاً بكل ما

ص:128

1- (1) ينظر: الإمام الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة، للسيد محمد تقى المدرسى / 45.

حفلت به أرض كربلاء من سمات وبطولات ومواقف:

قف في ربي الطفّ وانشدُ رسمَ من بانوا فإنها في جبينِ الدهرِ عنوانُ

وأستلهم التربةَ الحمراءً ناطقةً بها الدماءُ الزواكى فهي تبيانُ

حتى إذا نزلوا في (كربلاء) سرت للحرب فيهم مغاويرٌ وفرسانُ

تذرعوا الصبرَ، فالأبدانُ أضحيةٌ واستشعروا الموت، فالأرواحُ قربانُ (1)

ثم يرسم الشاعر محمد حسين الصغير مشهداً حياً ضاجاً بالخيل والسيوف والموت في ساحة الطف التي ترفل بالتضحية والعطاء قائلاً:

البيدُ بالخيلِ .. والبطحاءُ حافلةٌ بالمشرفيةِ والآفاقُ حُسنانُ

والارضُ ترملُ بالأبطالِ زاحفةً إلى المنايا.. ووادي الطفِّ ميدانُ (2)

ويقف مظفر النواب على جدث الحسين ليعيش معالم الثورة في صورة خلابة، إذ يشم في ترابه عبق السماء المشع في الألباب، ويسمع هول المعركة، ويرى الرأس المحزوز والخيام المحروقة، ومع ذلك يقبلُ قدسية وجنتيه باعتزاز ويراه بكل المرايا وكل الأبعاد المؤدية للثورة شامخاً كالعلم فيصدق قائلاً:

... "لأنّ ضريحك عاصمة الله فيه"

ومن المسك للروح أجنحةٌ وفضاء

كأنى أعلو ويجذبني أن ترابك

هيئات يعلى عليه..

وبعض التراب سماء تضىء العقول..

ص: 129

1- (1) ديوان أهل البيت، د. محمد حسين الصغير / 187.

2- (2) ديوان أهل البيت، د. محمد حسين الصغير / 188.

ليس ذا ذهباً ما أقبله..
بل حيث قبل جدك من وجنتيك..
ودرّ حليبُ البتول..
لم يزل همماً للقتال ترايبك..
أسمع هول السيوف..
ويوشك قفلُ ضريحك أن يتبلّج عنك..
أراك بكل المرايا على صهوة من ضياء..
وتخرج منها، وأذهل أنك أكثرُ منا حياةً..
أست الحسن بن فاطمة وعلي؟ لماذا الدهول؟!
لدى الرأس منك إمام الزمان، عهد
تطيل وقوفك ضد يزيد الى الآن..
لله ما بتاريخنا من مغول..
وعنه انحدار السيول..
إننا في زمان يزيد كثير الفروع
وفي كل فرع كربلاء (1)

لقد أبدع الشاعر مظفر النواب حين قال (لأن ضريحك عاصمة الله فيه): إنها جملة ذات تركيز عالٍ ومفهوم عميق في جعله كربلاء رمزاً ليس كمثلها رمز، إن العاصمة هي المكان الذي يضم كل المواقع الرئيسية التي منها تتحرك المواقع

ص:130

الأخرى، لأنها المالكة والمسيطرة والموجهة وغير ذلك مما يؤهلها لأن تكون عاصمة.. إن معالم عاصمة الله عاصمة المطلق، والواجب الوجود، ومن له الأسماء الحسنى، والذي صفاته عين ذاته.. إذن فأى رمز شامخ يمثله ضريح الحسين عليه السلام حينما يكون الضريح عاصمة الله.. إن هذا الرمز يحتوى كل شيء، ولا ينحصر فى شيء، ولا يسبقه شيء ولا يتأخر عنه شيء... ولأن كربلاء هى ما يضم ضريح الحسين.. فإن أرض كربلاء هى بلا شك أرض عاصمة الله..

لقد كانت هذه القصيدة رسالة إلى الإنسانية جمعاء بأن عشاق الحسين يقبلون روحاً تعيش فى أروقة الضريح لا يقبلون حديداً. وأن كربلاء تحولت رمزاً ثورياً بفضل جسد الإمام الشريف.

وكانت كربلاء تقفز الى وجدان القصيدة وتتجدد صورتها عند الشاعر تراوده فى كل حلم ولو كان عن وعى، وما زالت تنبئ بالموت والمأساة وبشهادة البطولة وذبح الطفولة، والحسين عليه السلام نجم يضاء بالدماء المجبولة بطين الشهادة.

إنّ واقعة كربلاء لم تكن موقعةً عسكرية انتهت بانتصار وانكسار بل كانت رمزاً لموقف أسمى لا دخل له بالصراع بين القوة والضعف، بين العضلات والرماح بقدر ما كانت صراعاً بين الشك والإيمان بين الحق والظلم"[\(1\)](#)، إنّ الرمز هنا هو "الحسين" الذى لولاه ما كانت كربلاء وقد جعله الشاعر فليح الركابى درساً، ومصحفاً يرتل على مر الدهور بقوله:

تساقطت الرؤوس

ص:131

فكنت لها الدروس

أيا سيدى تعلمت الدنا منك الثبات

فيزيد مات

وألف ألف يزيد فى المهملات

وبقيت أنت الحياة

أيا من لبست القلب درعاً

لا داحس تشبه يومك

أبدأ ولا البسوس

يا وترها

تحطمت برأسك الفؤوس

وعلوت أئقفها

فيا أعلى الرؤوس

وقد صرت مصحفنا

على مر الدهور

ترتله النفوس (1)

وقصيدة الصخرة والندى للشاعر حسب الشيخ جعفر يصور فيها أن استشهاد الإمام الحسين عليه السلام على أرض كربلاء هو رمز لكل شهيد فى سبيل قضية نبيلة حيث أصبح راية تلتفت حولها الجموع، فحينما استقر به المطاف:

ص:132

رأساً وحيداً مترباً مقطوع

فى طبق من ذهب يضوع بالمسك والحناء

رأى وجه أمه الزهراء

مبلاً طوال ليل الموت بالدموع

ورففت حمائم بيضاء

تؤنسه طوال ليل الموت كالشموع (1)

إن الشعراء الذين ذكروا كربلاء فى أشعارهم كُثر، فقد وردت كربلاء بمضامين كثيرة عبر الشعراء فيها عن حبهم وتقديسهم هذه التربة الطاهرة، فهم يرون أن كربلاء أصبحت رمزاً حسينياً بوجه الظلم والطغيان وقد ازدادوا تمسكاً بالنهج الحسينى حين أصبح المجتمع نهياً للحركات الهدامة التى تحاول تخريب مادة الإسلام الحقيقية.

ص: 133

1- (1) أشياء حذفها الرقابة بدون تاريخ أو سند طبع، حسب الشيخ جعفر / 181.

الفصل الثالث: تحولات المكان الحسيني بعد واقعة الطف

إشارة

ص:135

يعد المكان أحد أهم العوامل، إن لم يكن أكثرها إحتواء لمضامين التجربة، مما يجعله أكثر العناصر صلة بالنفس، لذلك لا يظهر المكان في الشعر شيئاً معزولاً، مفرداً أو تكويناً مجرداً، أو بناءً أجوف، وإنما يظهر بكونه ممارسة ونشاطاً إنسانياً مرتبطين بالفعل البشرى ويحمل من بين ما يحمله من مواقف وعواطف وخلجات ومشاعر وانفعالات الكائن الإنساني، ويجسد الأفكار بكل تفاصيلها الصغيرة والكبيرة المعلنة والمختفية الواقعية والمتخيلة، والمحملة والممكنة للإنسان عبر تاريخه العام والخاص" (1).

ولما كان المكان يخضع خضوعاً مطلقاً للحدث، لأنّ الحدث لا بد أن يقع في مكان ما في الأرض، فقد وجد الشعراء أنفسهم يرتبطون بالأمكان التي يعيشون فيها، وإذا ما شطت بهم هذه الأمكنة، اعتزلوا الناس، وشعروا بالذل والوحدة، وقد تعددت الأماكن الحسينية بعد واقعة الطف الأليمة فكانت هناك أماكن عديدة حينما تمرّ الرؤس والسبايا تترك أثراً مشرقاً يكون له تأثير في نفوس الشعراء والمحبين.

وقد أثرى تحول المكان موضوعات القصيدة الحسينية فذكروها كما مر بنا مكاناً منفراً لأنه مكان قتل وأشلاء ثم صوروها مكاناً جاذباً للزائرين حين أصبحت

ص: 137

1- (1) ينظر: إشكالية المكان، / 293.

منائراً وقياباً تستظل بها النفوس طالبة الشفاعة والرحمة من رب العالمين(1).

وفى هذا الفصل نحن بصدد دراسة تحولات الأماكن الحسينية الأخرى بعد واقعة الطف. وقد أقتيد المتبقيون من آل البيت عليهم السلام فى قافلة سبايا إلى الكوفة ومنها إلى الشام، وكان السبايا من آل بيت النبى صلى الله عليه وآله والبعض الآخر منهم من أزواج وأولاد الشهداء الآخرين أخذت نساء بنى هاشم إلى الشام ومن هناك أعدن إلى المدينة، أما النساء من غير بنى هاشم فقد أطلق سراحهن بواسطة أقاربهن أثناء مرورهن بالكوفة والتحقن بقبائلهن وقد تحدثت المصادر عن السبايا باسم "الأسرى" أيضاً.

ومن البديهي أن سبى بعض أهل البيت منافٍ لقوانين الحرب عند المسلمين، وهو أيضاً تجنٍ على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إلا أن بنى أمية اجترحوا ذلك العمل انطلاقاً مما يكتونه من حقد على عترة النبى صلى الله عليه وآله وسلم، وكانت رؤى الشاعر محمد الحلى فى صورة الحشود السائرة لقبير سبط رسول الله صلى الله وآله وسلم الإمام الحسين بن على بن ابى طالب عليهما السلام، وهى تحمل فى قلوبها كربلاء لتجدد الحب والولاء لذلك المؤسد فى الضريح، صورة مركبة يتداخل فيها الجانب الحسى والنفسى باتجاه الصورة الحسية، فالتفاعل النفسى الذى يؤخر الصورة هو الشعور بعدم رد الجميل والوفاء للإمام الحسين بكل ما قدمه، ولو كان المنظر يحتوى على الدماء والتحدى والاعتراف والبعد والحب والقلوب التى هاجت فى الصدور لتترف حول قبة الحسين عليه السلام:

وفاءً ما أقلُّ له الوفاء وإن خُضنا لذكراه الدماء

حشودُ السائرين لِسبَطِ طه تُيَمِّمُهُ صباحاً أو مساءً

ص:138

1- (1) ينظر: إِبصار العين فى أنصار الحسين عليه السلام، الشيخ محمد بن طاهر السماوى/133.

مَشَتْ رَايْتَهَا بِالْحُبِّ نَشْوَى مُجَدِّدَةَ لِبَيْعَتِهِ الْوَلَاءِ

مِنَ الْحُبِّ الَّذِي فِيهَا قُلُوبٌ تُرْفَرُفُ حَوْلَ قُبَّتِهِ انْتِشَاءً

إِذَا مَا كُلُّ قَلْبٍ حَارَّ صَدْرًا فَإِنَّ قُلُوبَنَا فِي كَرْبَلَاءِ (1)

فكر بلاء هذه المدينة التي شهدت صراعاً بين قوى الخير المتمثلة بالحسين عليه السلام وأصحابه، وبين قوى الشر المتمثلة بيزيد وزمرته، فبقى اسمها مرتبطاً بالحسين من يوم استشهاده إلى يومنا هذا، وسيبقى مرتبطاً به عليه السلام إلى ما شاء الله...، ومما لا شك فيه أن مرقد الإمام الحسين عليه السلام قد أكسب هذه المدينة قدسية خاصة، وجمالية خاصة، ومشاهد متفردة، وبهذا فقد عُني الشاعر على الفتال بوصف مدينته كربلاء. ومن ذلك مشهد شروق الشمس على قباب هذه المدينة قبة الحسين وأخيه العباس عليهما السلام، وغيرها من القباب التي تتوشح ببريق يسحر الناظرين ويزيدها جمالاً شعاع الشمس في الصباح قال:

مدينتي مدينتي مدينة ال - قباب قد وشحها الذهب

ففجرها كأنه الياقوت وال - - مرجان قد صيغ من اللهب

وشمسها تداعب القباب في الص - باح والقباب تلتهب (2)

فتحولات المكان الحسيني عند الشعراء لها أصداء واسعة المدى، إذ يصف الشاعر كربلاء وهي أرض مخضبة بدماء سيد الشهداء وفوقها الجثث والأشلاء المقطعة مرة، وأخرى يصفونها روضة يوضع منها عقب الإمامة والشهادة تحوى القباب الشامخة. وقد وقع الفصل في مبحثين هي: الدخول إلى الكوفة، الطريق إلى الشام.

ص: 139

1- (1) يا حسين، د. محمد الحلبي / 22.

2- (2) تجليات الفتى يوسف، د. علي الفتال / 75-76.

إن أول الأماكن التي ساقوا إليه سبائا آل البيت عليهم السلام بعد واقعة الطف هو (الكوفة) وهي، بالضم: الرملة الحمراء المستديرة، أو كل رملة تخالطها حصباء، ومدينة العراق الكبرى، وقبة الإسلام، ودار هجرة المسلمين، مصرها سعد بن أبي وقاص.. ويقال لها: كوفان، ويفتح، وكوفة الجند، لأنه اختطت فيها خط العرب أيام عثمان، خطها السائب بن الأقرع الثقفي (1).

والكوفة "مدينة مشهورة في العراق، قيل سميت كوفة لاستدارة بنائها. وفي حديث سعد، لما أراد أن يبني الكوفة قال: "تكوفوا في هذا الموضع أي اجتمعوا فيه، وبه سميت الكوفة" (2).

وقيل: كان اسمها قديماً "كوفان" ومن كلامهم "تركتهم في كوفان" أي في رمل مستدير (3).

ص:140

1- (1) مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي / 54 والقاموس المحيط، الفيروز آبادي، ج 427/2.

2- (2) تاريخ الكوفة، السيد أحمد البراقى / 145.

3- (3) مجمع البحرين، للطريحي / 87.

ولم تكن الكوفة معروفة بهذا الاسم قبل تعميرها من قبل العرب المسلمين، وليس في موقعها ما يشير إلى أنها كانت في يوم من الأيام مستوطناً من المستوطنات العربية أو العراقية القديمة، وإنما كان موضعها جزءاً سهلياً من الضفة اليمنى للفرات الأوسط وإلى الجهة الشمالية الشرقية من مدينة الحيرة، ويدعى سورستان.

والكوفة مدينة جميلة تقع على نهر الفرات، وعلى مسافة اثني عشر كيلومتراً من مدينة النجف، ومئة وستة وخمسين كيلو متراً من بغداد، وستين كيلومتراً جنوبي مدينة كربلاء، وأرضها سهلة عالية، ترتفع على سطح البحر - 22 متراً وشاطئها الغربي أعلى من الشرقي بستة أمتار تقريباً، مما يجعلها في مأمن من الفيضانات قديماً وحديثاً، وكلما سرنا غرباً ارتفعت الأرض عن سطح البحر تدريجاً لتصل إلى ستين متراً ونصف المتر، ثم تنحدر انحداراً شديداً نحو الجنوب الغربي لتمتد إلى بحيرة مالحة ضحلة عرفت ببحر النجف غرباً⁽¹⁾.

كانت الكوفة صحراء واختار الصحابيُّان الجليلان سلمان الفارسي وحذيفة ابن اليمان، موقعها سنة (17) للجيش الإسلامي أيام خلافة عمر بن الخطاب لذلك سميت (كوفة الجند)، أي مجمع الجيش وبنيت سنة (22 هـ -) بالآجر في عهد ولاية المغيرة بن شعبة على سبعة محلات لكل قبيلة، واتخذها الإمام علي عليه السَّلام سنة (36 هـ -) بعد معركة الجمل عاصمة للخلافة الإسلامية واتجهت إليها أنظار العالم الإسلامي، وأصبحت مدينة علمية وتجارية في عهده عليه السَّلام، حتى قامت الخلافة العباسية سنة (132 هـ -) فاتخذوا الهاشمية لهم، ثم بغداد، فذبلت نظارة الكوفة حتى سنة (580 هـ -)⁽²⁾.

ص: 141

1- (1) الأخبار الطوال، أبو حنيفة الدينوري | 253.

2- (2) ينظر: تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، ج 2/274 وابن خلكان، ج 2/454.

توافدت القبائل العربية على الكوفة من كل مكان، وبدأت بها حركة الإعمار يذكر ياقوت الحموي نقلاً عن الشعبي: أن مساحة مدينة الكوفة بلغت في العصر الأموي ستة عشر ميلاً مربعاً وثلث الميل، شيدت عليها خمسون ألف دار للعرب من ربيعة ومضر، وأربعة وعشرون ألف دار لسائر العرب، وستة آلاف دار لسائر المسلمين، وأخذت رقعتها تمتد في أوائل العصر العباسي غرباً باتجاه النجف، وشمالاً باتجاه الحيرة، وانتشرت حولها كثير من الضياع والقرى.

وكان أول الوافدين عليها بعد العرب هم الفرس، والنصارى، السريان، ويهود نجران(1). وكان عدد الفرس كما يقول البلاذري: أربعة آلاف ممن قاتلوا في معركة القادسية وجلولاء(2). وكان لهم نقيب يقال له (ديلم) أو دهقان فأطلق عليها (حمراء ديلم) لأنّ العرب كانت تسمى العجم الحمراء.

أما السريان فقد سكنوا الكوفة، حيث كانوا يسكنون الديارات التي كانت قائمة في أطراف الحيرة والنجف، وتوثقت صلاتهم بالمجتمع الإسلامي الجديد، وتعاطوا التجارة والصيرفة، يضاف إلى ذلك هجرة جماعات من النبط سكان البطائح المجاورة فانضموا لسكانها العرب القادمين من الجزيرة، ثم توالى الهجرات.

وأصبحت الكوفة منذ تأسيسها محطاً للقبائل العربية، وسكنها أشرف العرب من قبائل اليمن وحضرموت، وقسمت عند تأسيسها إلى سبعة أحياء، خصص كل حي منها لقبيلة معينة، مثل قبيلة بنى أسد، والنخع، وكندة، ومزينة، وتميم، وجهينة،

ص:142

1- (1) ينظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، ج 4/493.

2- (2) ينظر: فتوح البلدان، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري / 125.

وبقيت هذه الأحياء قائمة حتى حكم عثمان بن عفان، وحينما قدم الإمام على بن أبي طالب عليه السلام إليها بعد موقعة الجمل سنة (36 هـ -)، أجرى تعديلات في توزيع أحيائها، وظل هذا النظام معمولاً به حتى أوائل القرن الرابع الهجري(1).

وبدأت الكوفة تزدهر وتمتد تبعاً لاتساع نشاطها التجاري والاقتصادي وصارت قبلة أنظار العرب وزعمائهم واتخذت لنفسها سمة الزعامة والقيادة في فترة عرفت من أخصب مراحل تاريخها على الإطلاق، وكان للكوفيين، فضلاً عن ذلك، تأثير في الحياة السياسية والعقلية والاجتماعية والاقتصادية، وأخطر من ذلك كله أن الكوفة أثرت في الفتوحات الخارجية، وأدت دوراً خطيراً في تلك الفتوحات، حيث حددت علاقاتها بالأمصار الأخرى واتخذت لونهاً خاصاً(2).

إن مسير ما تبقى من الركب الحسيني بعد فاجعة الطف، وما رافقها من مصائب وآلام وآثام، ابتداء من كربلاء وأحزانها المروعة ومروراً بالكوفة وغصصها الخائفة وانتهاءً بالشام. لقد كان تعامل الأعداء مع النساء في هذا الركب في منتهى القساوة والفظاظة وكأنهم يحاولون الانتقام منهن، ويطلبون بثارات بدر وحنين(3).

وحملت عقائل النبوة وحرائر الوحي سبايا إلى الكوفة ومعهن الأيتام وقد ربطوا بالحبال، وحملوا على جمال بغير وطاء، وقد عزفت أبواق الجيش، وخفقت راياتهم، وكان المنظر رهيباً تهلع منه القلوب، وعند مجيء علي بن الحسين من كربلاء إلى الكوفة، ومعه النسوة وقد أحاط بهم الجنود، وقد خرج الناس ينظرون إليهم، وكانوا على جمال بغير غطاء، جعلت نساء أهل الكوفة يبكين ويندبن، وكان علي

ص: 143

1- (1) ينظر: تاريخ الكوفة، السيد أحمد البراقى / 146.

2- (2) تاريخ اليعقوبى، أحمد بن أبي يعقوب، ج 2/ 277.

3- (3) السيدة زينب عليها السلام رائدة الجهاد في الإسلام، الشيخ باقر القرشى / 134.

ابن الحسين قد أنهكته العلة، وفي عنقه الجامعة، ويده مغلولة إلى عنقه، وهو يقول بصوت ضعيف: (إن هؤلاء سيكون وينوحون من أجلنا فمن قتلنا)(1).

وهنا انبرت بنات الرسالة وسليلاات بيت النبوة ليشاركن فى المشروع الحضارى الذى يسعى لإخراج الأمة من عتمة الظلمة الفكرية والإعلامية الأموية، من خلال الوقوف فى وجه كل المقولات التى سعى الأمويون لترويجها، كان لزينب بنت على عليهما السلام فى كربلاء والكوفة والشام دورٌ مهمٌ فى كشف خطر المشروع الأموى.

وقد حظى هذا الدور الرسالى لسليلاات الوحى بإهتمامٍ بالغ من الشعراء الذين تناولوا المشهد الحسينى وكتبوا فيه الكثير الكثير وتناولوه من مختلف الزوايا فقد عرض الشاعر طالب الحيدرى مسيرة الحزن التى مر بها آل بيت الرسول صلى الله عليه وآله، وجسد قضية الأمة الإسلامية الإنسانية تجسيدا صادقا، فهو عاناها وعبر عن هذه المسيرة بحرارة العاطفة وصدق الانفعال، واستطاع أن يجعلنا نفكر فى هذه المسيرة الأليمة، وأن نتتاب نفوسنا ثورة على الأوضاع المهيمنة فى عصرنا الراهن.

يا آل بيت رسول الله أدمعنا على مصائبكم نورٌ يُغذينا

لأنها حِمٌّ تنصبُ محرقة - فيها الحقائق - يخشاها أعادينا

من "السقيفة" و "الشورى" بدايتها وزادها ما جرى فى "الطف" تمكيننا

وسوف تبقى قوافيها توجُّنا ما أشعلت دمننا الظامى مأسينا

مسيرة حزنٍ لا تخفى على أحدٍ تكلمت بالذى نُخفى مآقينا(2)

ص:144

1- (1) نور الأبصار فى مناقب النبى المختار صلى الله عليه وآله وسلم، الشيخ بن حسن مؤمن الشبلنجى / 276.

2- (2) ملحمة كربلاء، مسيرة الحزن، طالب الحيدرى / 191.

وبسبب هذه المسيرة المحزنة التي كان أوجهها في طف كربلاء "فقد اختطّ مسارٌ جديدٌ عرف بأدب الطف في الربع الأخير من القرن العشرين على يد مجموعة من الشعراء المعاصرين، مغايراً لما كان عليه أدب الطف في القرون الثلاثة الأخيرة الذي سار على وتيرة واحدة في الشكل والمضمون، ولم يتميز فيهما إلا في بعض المحسنات اللفظية أو البديعية"⁽¹⁾

واستحضر الشاعر كذلك في قصائده لأهل البيت عليهم السلام التراث الشعري العربي في أبهى صورته، وكل تلك الصور المعبرة يقدمها وهي تحمل نفسه الشعري الخاص ومصطبغة بموسيقى عذبة، ففي قصيدة عشق الحسين يقول الشاعر:

واصدح بلحن هواك وانشد معلنا أنا عاشق السبط الشهيد بكربلا

واسجد على أرض يضوع بتربها أرج النبوة والولاية والعلال⁽²⁾

فقد بين الشاعر قضية ولائه بكل وضوح وسلاسة في قالب موسيقي يأخذ بالألباب لقد قدم الشاعر في هذين البيتين النتيجة على السبب باعتبارها أمراً مفروغاً منه لأهميتها عنده فبعد أن أعلن عن ارتباطه الروحي بالحسين عليه السلام مقدماً بصيغة الأمر (اصدح) في البيت الذي يليه قدم المبرر لذلك الولاء ببيان أهمية التربة وقداستها التي اكتسبتها من ذلك الجسد الذي يمثل امتداداً للرسالة المحمدية وولاية أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام وشموخ الحسين عليه السلام وعزته في معركة كربلاء⁽³⁾.

ص:145

1- (1) ينظر: مقدمة ديوان الوائلي، ج 10/1.

2- (2) ديوان في رحاب كربلاء، قدوة الشهداء، عبود الحلبي / 22.

3- (3) في رحاب كربلاء.. لحن للولاء، دراسة نقدية في ديوان الحلبي، على حسين يوسف، المركز الخبري لشبكة الإعلام العراقي.

يعد التاريخ منبعاً ثراً من منابع الإلهام الشعري، الذي يعكس الشاعر من خلال الارتداد إليه روح العصر، ويعيد بناء الماضي وفق رؤية إنسانية معاصرة، تكشف عن هموم الإنسان ومعاناته وطموحاته وأحلامه، وهذا يعني أن الماضي يعيش في الحاضر، ويرتبط معه بعلاقة جدلية تعتمد على التأثير والتأثر، تجعل النص الشعري ذا قيمة توثيقية، يكتسب بحضورها دليلاً محكماً، وبرهاناً مفحماً على كبرياء الأمة التليد وحاضرها المجيد، أو حالات انكسارها الحضاري ومدى انعكاسه على الواقع المعاصر، أي يستلهم الشاعر أوجه التشابه بين أحداث الماضي، ووقائع العصر وظروفه سلباً أو إيجاباً، وهو في هذا كله يطلق العنان لخياله لكي يكشف عن صدى صوت الجماعة، وصدى نفسه في إطار الحقيقة التاريخية العامة التي يبحث عنها، أو الموضوعات التاريخية الكبرى، التي تشكّل حضوراً بارزاً في تاريخ الأمة من دون الخوض في جزئيات صغيرة.

كوفان يا واحة غناء يرفدنا تراثها فيض هطال من الديم

أشرفت ما بين بر فاح منيبه بالطيبات وشطآن من الكرم(1)

سلك موكب السبايا من كربلاء المقدسة إلى الشام طريقاً طويلاً مرت بالمدن التالية من كربلاء إلى الكوفة جنوباً من ثم إلى القادسية. بعدها شمالاً إلى تكريت والموصل، ثم غرباً عبر جبل سنجار، ثم منطقة الجزيرة في الشمال السوري، وبعدها إلى حلب، حماة، بعلبك في لبنان وصولاً إلى دمشق في سوريا.

ونلاحظ أنهم اختاروا الابتعاد عن الخط المباشر من كربلاء إلى دمشق عبر الصحراء نظراً لوجود السباع، وخطورة الطريق وندرة المياه. كما أن المرور عبر المدن والعمران يوفر لجيش الطاغية الراحة وإبراز سلطته من خلال عرض السبايا(2). والمناطق التي مرت بها سبايا آل البيت عليهم السلام هي: اقسام، وباب الساعات، والباب الصغير والبطن، والبيضة، وحفرة المنحر، ودير الراهب، والرهيمة، وزبالة.. الخ(3).

الدخول إلى الكوفة

تحرك موكب سبايا أهل البيت عليهم السلام من كربلاء المقدسة نحو مدينة الكوفة، في الحادي عشر من المحرم 61 هـ، وهو يقطع الصحارى، حاملاً الذكريات الموحشة والمؤلمة لليلة الفراق والوحشة، التي قضوها على مقربة من مصارع الشهداء، وهم على جمال بغير وطاء ولا غطاء. ففزع أهل الكوفة،

ص:147

1- (1) البحور الزاخرة في مدح العترة الطاهرة، السيد على الحيدري/179.

2- (2) ينظر: الإرشاد، الشيخ المفيد / 231.

3- (3) الحسين في طريقه إلى الشهادة، على بن الحسين الهاشمي / 87.

وخرجوا الى الشوارع، بين متسائل لا يدري لمن السبايا، وبين عارف يكفكف أدمعاً ويضمّر ندماً. دخل السبايا عليهم السلام إلى الكوفة أسارى، وأمر ابن زياد أن لا يخرج أحد من داره مسلحاً، ونشر عشرة آلاف فارس وراجل في الأزقة والشوارع والأسواق لنلاً يتحرك أحد من شيعة أمير المؤمنين على عليه السلام، ثم أمر بإعادة الرؤوس التي سبقت إلى الكوفة والسير بها أمام السبايا، والدوران بهم في أزقة الكوفة وأسواقها، وحين رأى الناس ذرية رسول صلى الله عليه وآله والرؤوس على الرماح وعقائل النبوة على إبلٍ بلا أقتاب ولا أستار ارتفعت أصوات الناس بالبكاء والنحيب عند ذلك تكلمت زينب الكبرى وأختها أمّ كلثوم وفاطمة بنت الحسين والسجاد عليهم السلام على الترتيب بقلوبٍ موجعة وأكبادٍ ملتهبة وأصوات حزينة اجتذبت مشاعر السامعين، حتى أن جنود ذلك الجيش الخاسر ندموا على فعلتهم، لكن بعد فوات الأوان(1).

وكان للنساء اللواتي اصطحبهن الإمام الحسين عليه السلام دور كبير في ثورته، وهو الإعلان عن تلك الثورة العظيمة والصدع بها، وبيان مظلومية الإمام، وكيفية قتله، وبهذا تتكامل النهضة الحسينية، ولولا ذلك لبقيت هذه النهضة محصورة في زمان ومكان محددين(2)، ولم يكتب لها أن تأخذ الدوى في ذلك الزمان كما هي وقفة السيدة زينب عليها السلام عقيلة بنى هاشم في الكوفة، وكيف أنها بينت للناس حال أهل البيت وحقهم المغصوب، فقد "جاهدت بكل ثقلها من الشجاعة المحمدية والبلاغة العلوية والفصاحة الفاطمية في محاربة الظلم... وذلك لا يوجد إلا في آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم

ص:148

1- (1) ينظر: ينابيع المودة لذوى القربى، القندوزى، ج 78/3.

2- (2) ينظر: معالم إنسانية في نهضة الإمام الحسين، جعفر الحائري / 65.

الذين آتاهم الله تبارك وتعالى من مخزون علمه ما لم يؤتته غيرهم وأودع في قلوبهم ينابيع الحكمة"⁽¹⁾، وبهذا يشير الشاعر على الفتال قائلاً:

ووقفتِ أنتِ بكوفة الخجلى على شَمِّ الرواسى وهى منكِ تراجفُ

حتى إذا ما الحق بان تراجعوا فتراشقوا بالذنب ثم تأسفوا⁽²⁾

فقد أخزتِ العقيلة زينب قتلة الحسين فى الكوفة⁽³⁾ وفعلت مثل ذلك مع يزيد فى قصره؛ إذ أنها خطبتُ ببلاغةٍ وشجاعةٍ قائلة "أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء فأصبحنا نساق كما تُساق الأسراء أن بنا على الله هواناً وبك على الله كرامة..."⁽⁴⁾ هكذا أراد الحسين عليه السلام من العقيلة زينب عليها السلام أن تكون "وأن لا تظهر أمام الأعداء بمظهر الضعيفة المغلوبة على أمرها لكى لا يشمت بها الأعداء"⁽⁵⁾، إن دور زينب عليها السلام "دورٌ طليعىٌّ مهمٌ جداً"⁽⁶⁾.

وقد كتّى الشاعر الفتال السيدة زينب عليها السلام بقوله (بنت من سن الفصاحة)، وكتّى التلّ الزينية بقوله (تلّ الخلود)، قائلاً:

وقفتُ على تلّ الخلود بقامةٍ فرعاء تستمرى الهدى بخطابها

ص: 149

1- (1) حياة الإمام الحسين عليه السلام، باقر شريف القرشى، ج 3/344.

2- (2) هو ذا إذن، د. على الفتال / 115116.

3- (3) ينظر: الملهوف على قتلى الطفوف، على بن موسى بن جعفر بن طاووس / 201.

4- (4) مشير الأحزان، نجم الدين الحلبي / 80، وطريق الكرام من الكوفة إلى الشام، عبد الله الخطيفي / 180 وما بعدها.

5- (5) معالم إنسانية فى نهضة الإمام الحسين، جعفر الحائري، ج 4/184.

6- (6) فى رحاب كربلاء، د. عبود جودى الحلبي / 63.

هي بنت من سنّ الفصاحة مؤمناً فتناثرت منها على أعتابها(1)

لقد كان للسيدة زينب سلام الله عليها وقفة صارمة وجريئة في وجه الظالمين عند سبها في الكوفة وهذا ما دعا الفتال الى القول (تل الخلود) فقد خلدت وفتتها عبر التاريخ.

ولم يزل المشهد الكربلائي منذ سنة إحدى وستين للهجرة يتعاضم أهميّة وشأناً عاماً بعد عام، ويتسامى قدراً وقداً ويزيد ذكره ولا يبدي ويمتدّ عزاء الحسين عليه السلام انتشاراً في شرق الأرض وغربها.

تقرعين الخصوم بالمنطق الفص - ل فيأتي الدليل تلو الدليل

ازأرى فالزئير عندك إرث ومزاج الأسود إرث الشبول(2)

وقد استعار الشاعر الوائلي لمنطق السيدة زينب عليها السلام وخطابتها زئير الأسد ليوحى لنا بالقوة والجرأة فضلاً عن الشجاعة في مقارعة الخصوم وإدانتهم وليعطي للحق صوتاً مدوياً يسكت الجبابرة والطغاة ويخيفهم.

وصدح الشاعر مظفر النواب معبراً عما جرى من أحداثٍ بشعة في أرض الكوفة من حمل رأس الحسين عليه السلام وسبى النساء والأطفال بعد واقعة الطف ويستلهم هذه الصورة المؤلمة ليراها مرة أخرى واقعاً ملموساً على أرض العرب.

قتلتنا الردة يا مولاي كما قتلتك بجرح في الغرة

هذا راس الثورة

يحمل في طبق في قصر يزيد

ص:150

1- (1) ديوان هو ذا أذن، د. علي الفتال / 124.

2- (2) ديوان الشعر الواله في النبي وآله، د. أحمد الوائلي / 112.

ويزيد على الشرففة يستعرض... ويوزعهنّ كلحم الضأن...

لجيش الردّة..

ويصبح نداء الثورة مشتعلًا

ونداء لملك الثوار أن يظهر من جديد(1).

مازالت المذبحة قائمة ومازالت نماذج في الأضلع الحمراء التي رُضت في أرض كربلاء ونماذج من الرضع الذين لم يجدوا حتى مثل الحوراء زينب التي كانت تمسح عن وجوه أيتام الحسين.. ومازال الحديد.. ولكنه ذو ثقل آخر خلف قضبان السجون وسرايب المعتقلات... كل هذا يحدث ولكن أنصار الحسين عليه السلام لم يفكروا لحظة في أن يغيروا مسار الطريق أو يساوموا أو يبيعوا القضية بدرهيمات الطاغية يزيد.

ويوم توارى الحسينُ

رأينا خيولاً ملطّخةً بالخطايا

رأينا سكاكينَ بيضاء... بيضاء...

تولّد خلف دموع السبايا!(2)

لقد كانت الكوفة مكاناً جديداً، وقد تحول المكان من مكان معركة إلى مكان رئاسي، وقصر فخم فيه إدارة الدولة التي أمرت بقتل الإمام الحسين عليه السلام، فلاقوا أشكال الاضطهاد من إعدام، وإحراق، وسجن، وعذاب، وقطع لسان، وإقصاء عن الوطن، والأهل(3)، وتحول وضع الأسرة النبوية إلى مأسورة

ص:151

1- (1) وتريات ليلية، مظفر النواب / 21 23.

2- (2) الحسين لغة ثانية، تنبؤات، جواد جميل / 15.

3- (3) ينظر: مقدمة وتزودوا من حب آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) قصائد خالديات في حب

تحت سلطة أبناء الطلقاء، فكانت القصيدة باكية حزينة تصف الرؤوس المقطوعة، وما دار في تلك الملحمة الخالدة على أرض كربلاء المقدسة.

كما تقف الشاعرة ناهضة ستار* (1) على وصف موقف بطلة كربلاء عقيلة بنى هاشم وفخر المخدرات السيدة زينب عليها السلام التي شهدت واقعة طف كربلاء بمصائبها وكانت الصوت الإعلامي لتلك الفاجعة، يتحرك النص الشعري عند الشاعرة وفق منظومة سردية صورية، تكسر فيها الرتبة التعبيرية.

بدأت وحين كلامها بدأ الكلام وعلى جفاف الوقت أمطرها الغمام

فتجمع الوجع الإمام بجملته رفقا بها يا أيها الوجع الإمام

يعقوب أدمعها إشارة نهضة فازت بيوسفها إذا اعتق الغرام

في حينها عرفت ان المسار سينجلي وبأنها شمس إذا انسكب الظلام

نطقت وكان الجرح ينزف حرفه فتأبجدت لغة سيحملها الحمام

ويحيلها مطراً تساكب وحيه كقصيدة جرحاً ستكتبها السهام

أصغت لهذا النص كل بلاغتي فتعثر المعنى وأعجزني المقام

فرايتها معنى يفيض جلالاً وريادة أنثى على قدر تقام

ص:152

1- (1) * ناهضة ستار: تولد العراق 1967 م عضو اتحاد الأدباء والكتّاب العرب والعراقيين منذ عام 1993 م دكتوراه في النقد الادبي والمناهج الحديثة، أستاذة النقد والأسلوبية في كلية الآداب/جامعة القادسية، صدر لها: رؤيا الكلام/شعر/منشورات اتحاد الأدباء في العراق عام 2001 م بنية السرد في القصص الصوفي /دراسة عن اتحاد الكتاب العرب /دمشق 2003 م.

حتى إذا أكتملت دلالة حرفها وتفاقم المعنى ليعتقها الكلام

جاءت مكربلةً تصولُ بحرفها لتباهل الدنيا وينكتب السلام (1)

رسمت الشاعرة بكل جمال شخصية السيدة زينب عليها السلام وهي التي حين نطقت كان نطقها هو بداية انبعاث الصوت الإنساني الثائر ورغم الوجد والفقد والنزف فكانت بصلابتها ووضاحتها شمس الحقيقة التي كشفت ظلام التزييف وتنزل خيراً عظيماً فلا خير أكبر من كشف الضلالة وإضاءة الطريق أمام الناس...

لم تكن واقعة كربلاء مجرد حدث عابر في حياة السيدة زينب عليها السلام بقدر ما كانت عنواناً تدخل منه إلى العديد من المواقف التي عبّرت من خلالها عن صرخة الضمير علّها بذلك تنقذ ما تبقى منه في عقول المسلمين التي تلوّث وتدنّست برذائل الخبث الأموي، لهذا خاطبها الشاعر جواد جميل ب - (زينب البطولة) قائلاً:

أه يا زينب البطولة خلى الصبر رمحاً على خيامك يعلو

ودعى الدمع جمرهً ولهيباً من كوى الغيب كل أن يطلُّ

فطريق الخلود صعبٌ وفيه يفتح المرء جرحه أو يذلّ (2)

وبقصيدة أخرى يصف فيها رحلة مأساة كربلاء بكل جراحاتها وآهاتها وما جرى فيها من ذبح بوحشية أمام النساء والأطفال، ولم يكتف أفراد الجيش الأموي بذلك بل عمدوا إلى قطع رؤوس أنصاره وحرق المخيم الذي كانوا يستريحون فيه، وهي رحلة تخللتها الكثير من المآسى والآلام التي تحملتها نساء الإمام الحسين

ص: 153

1- (1) إلى سيدة الحزن العظيم، ناهضة ستار / 16.

2- (2) ديوان الحسين لغة ثانية، ودعيني، جواد جميل / 33.

عليه السلام وأطفاله ونساء وأطفال بقية أنصاره قائلاً.
واحمليني لكربلاء خيالاً بجناحٍ من عبرة.. وخشوعٍ
حيث نحر الحسين ينتظر الماء، ويهفو لرأسه المقطوع
وجراحاته تننُّ، فيبكي ألف كونٍ، على الصدى الموجوع
والشفاء المخصّباتُ نجومٌ شاحباتٌ من الظما والجوع
وتمنى "الفرات" لو طهرته قطرة من دماء نحر الرضيع
يا عيونى أين البكاء؟ ففيضى هذه كربلاء وهذا شفيعي
هذه كربلاء.. وهذى الخيولُ الجردُ تعدو على التريبِ الصريعِ
هذه كربلاء.. وهذا رسول الله يبكي فى ساعة التوديع (1)

كما يقف الشاعر ضياء الأسدى على معاناة السيدة زينب عليها السلام فى طف كربلاء وما تحملته من صبر وقهر وهى أسيرة فى أيدي الأعداء، على الرغم من أنها من بيت أنزل الله فيهم قرآنه وهم الصفوة المنزهة من قبل الله تعالى وهم الوجود الإلهي على الأرض، حيث أشار إلى ذلك بقوله (حسبها من أهل بيت شمسهم...):

وله زينبُ تشكو ذلّها وهُموماً عاينتُ منها المَحالا
صبرتُ واحتسبتُ ما نالها فى سبيل الله تلقاه نوالا
حسبها من أهل بيتِ شمسهمُ فى مدى التاريخ لم تغرب زوالا
جَنَّهُمُ فى الطفِّ ليلٌ وهُمُ بالحسينِ الطُّهرِ قد جَنُّوا حَبالا

ص:154

فاشهدى يا ليلة الضوء هوىً نضراً يبتكر الرؤيا جمالاً(1)

أمر ابن زياد جنده بالتوجه بسبايا آل البيت عليهم السلام إلى الشام إلى الطاغية يزيد بن معاوية، وأمر أن يكبل الإمام زين العابدين عليه السلام بالقيود، وأرکبت بنات الرسالة الإبل الهزل تنكياً بهن، وليحظى عند سيده يزيد بالمنزلة الأرفع، والمكان الأقرب. وفي أبيات قريبة من القلب للشاعر د. عبود الحلبي يقول فيها:

يارواىى الطف فيضى بالحنين

واسطعى فى ظلمة الليل الحزين

ودعى يا كربلاء

ركب خير الشهداء

واهتفى فى كل حين

يا حسين يا حسين يا حسين(2)

وبهذا أصبحت الكوفة المكان الثانى الذى توجه إليه سبايا آل البيت عليهم السلام بعد كربلاء، فكانت الكوفة مكان معاناة لعقائل الوحي ومخدرات النبوة والإمامة وجميع ضروب المحن والبلاء أيام مكثهن فى الكوفة، فقد عانين مرارة السجن، وشماتة الأعداء، وذل الأسر. إذن فالكوفة هى المكان الثانى الذى نزل فيه الشعراء ليكتبوا فيه حبههم للآل البيت عليهم السلام ومواساتهم لهم وحننهم لما عانوه وقاسوه فى مصيبتهم.

ص:155

1- (1) ديوان ذاكرة الصمت والعطش، الليلة الآخرة، ضياء الاسدى / 8.

2- (2) فى رحاب كربلاء، د. عبود الحلبي / 61.

المبحث الثالث: الشام مكان حسيني طارد

وصول سبايا الإمام الحسين عليه السلام إلى الشام

إنَّ النهضة الحسينية لها أبعاد كثيرة وأبعادها غير محصورة في زمان أو مكان معين إنما تمتد على امتداد بقاع الأرض وربما يكون هذا مضمون الشعار الذي يرفع تحت عنوان (كل أرض كربلاء وكل يوم عاشوراء)، كأنه ليس حدثاً تاريخياً أو حدثاً انتهى كبقية الأحداث التاريخية الأخرى، فيجب أن تمتد رسالة الحسين عليه السلام ويجب على المسلمين أن يستلهموا الدروس والعبر لأنَّ قضية الأمام الحسين عليه السلام عطاء متجدد في كل مجتمع وينسجم مع كل زمان ومكان فهذه النهضة المقدسة ينبغي أن يرافقها إعلام يتخذ صوراً شتى، فالأدب الحسيني مضمون كبير يتسع للشعر والنثر والخطابة⁽¹⁾.

ولعل أول من بدأ بهذا الأمر سيدتنا زينب عليها السلام إذ أنها ما أن بذل الإمام عليه السلام دمه الشريف ودم أصحابه في أرض كربلاء دفاعاً عن الإسلام

ص:156

1- (1) أهمية ادب الطّف في النهضة الحسينية، أزهار مهدى الحسيني / 10.

حتى بدأت مهمة الإعلام والأدب الحسيني، فبدأت زينب عليها السلام تخاطب ضمائر الناس جميعاً في ذلك الزمن (1)، وفي هذا الزمن قيس الله لخطب زينب عليها السلام أن تصل إلى كل المجتمعات ولعل الخطباء الحسينيين لهم الدور البارز في إيصال رسالة الإمام الحسين عليه السلام للجماهير وتأثيرها في المجتمع.

تقدّم رأس الحسين عليه السلام رؤوس الكوكبة التي خلّفت أجسادها في صحراء الطف، وراحت القافلة تخترق الصحارى متوجهة إلى دمشق. وسارت خلف الرأس الشريف زينب عليها السلام بطلة كربلاء، وقد تسلّمت مهام الثورة الحسينية ضدّ الطغاة، وهي مهمّة الجهاد بالكلمة لا بالسيف. فالتحق ركب النساء والأطفال برفقة الإمام السجاد عليه السلام، الذي وضعت بيده السلاسل، وجمعت إلى عنقه وحملوا جميعاً على أكتاف الإبل التي كانت بغير وطاء، فالتحقوا بموكب الرؤوس الذي سبّقتهم في المسير، وراحوا يسرون سواءً إلى جنب رأس الحسين عليه السلام نحو الشام، بناءً على الأوامر التي صدرت من يزيد بن معاوية إلى ابن زياد.

وصل موكب الحزن والأسى إلى دمشق عاصمة الأمويين، ومركز قيادتهم وبؤرة الحقد والعداء. وقد اتخذ يزيد التدابير اللازمة لصرف الأفكار والأنظار عن الواقع والحقيقة، محاولاً بذلك تغطية الأمور وتمويه الحقائق، فأمر بتزيين البلدة بأنواع الزينة، ثم الإعلان في الناس عن وصول قافلة أسارى وسبايا، خرج رجالهم عن الدين فقضى عليهم يزيد وقتلهم وسبى نساءهم ليعتبر الناس بهم ويعرفوا مصير كل من يتمرد على حكم يزيد!

ومن الواضح أن الدعاية والإعلام لها دورها في تمويه الحقائق، وخاصة على

ص: 157

السذج والعوام من الناس، وحيء برؤوس الشهداء يتقدّمها رأس الحسين عليه السلام، إلى بلاط يزيد وأدخلت عليه، وكان بيده قضيب فأخذ يضرب به فم الحسين عليه السلام ويردد الأبيات(1):

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل

لأهلوا واستهلوا فرحاً ثم قالوا يا يزيد لا تُشَل

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل

لست من خندف إن لم أنتقم من بنى أحمد ما كان فعل(2)

فى وصف دقيق للشاعر حازم الحلى للمنظر المؤلم لحال السيدة زينب سلام الله عليها حين سيقّت مع نساء بيت رسول الله صلى الله عليه وآله سبانيا من الكوفة إلى يزيد فى دمشق فى موكب بربرى وحشى أظلمت له السماء من رؤية بنات رسول الله سبانيا والسياط تتولى على ظهورهن لمجرد بكائهن على قتلاهن.

فقدت أهلها الذين حموها ثم سيقّت إلى دمشق سبية

أوجعتها السيات تلهب ظهراً وهو ظهرٌ... لطفلة علوية

والحبال التى تشدّ يديها تأكل اللحم من يديها الطرية

وقد رافق وصول سبانيا آل البيت عليهم السلام إلى دمشق أيضاً حملة إعلامية مضللة، تقول: "إن أولئك السبانيا خرجوا عن الخليفة الشرعى يزيد فقتلهم وحيء بنسائهم وأطفالهم، وأشاعوا ذلك بين الناس وأمروهم بإظهار الزينة والفرح"(3).

ص: 158

1- (1) أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البَلَدُرى / 222.

2- (2) تاريخ دمشق، ج 370/60، ومختصر تاريخ دمشق ج 274/25.

3- (3) الركب الحسينى من المدينة إلى المدينة، محمد جعفر الطبسى / 210.

كذبوا ليس يُقتل المبدأ الحرّ ولا يخدع النهى التّضليلُ

كذبوا لن يموت رأى لنور الشّمس من بعض نوره تعليلُ

كلُّ عرق فرّوه لهو بوجه الظّلم والبغى صارمٌ مسلولٌ (1)

فالشاعر يظهر التّضليل الإعلامي الذي مارسه الأمويون، حيث أعتد الإعلام الأموي على الكذب والنفاق في تضليل الراي العام وإشاعة ثقافة الخوف بين الناس من خلال التّطويل يارهاب الدولة وجبروتها في معالجة حالات الثورة والمواجهة للنظام بوسائل القمع والترهيب الوحشية.

قصر يزيد (الشام مكان طارد)

اتفق أرباب المقاتل على أن الجيش الأموي ساروا بينات الرسالة وصبية الحسين عليه السلام من كربلاء يوم التاسع عشر حيث تم سيرهم إلى الشام تسبقهم الرؤوس على الرماح، ساروا بالعقيلة زينب الكبرى سلام الله عليها والتحق ركب النساء والأطفال بصحبة الإمام زين العابدين عليه السلام الذي قيّد بالسلاسل الحديدية، وقد حملوا جميعاً على أقتاب الإبل العجاف التي كانت بغير وطء في هذا الطريق قرابة عشرين يوماً حتى بلغوا الشام (2).

وفي إرسال الرؤوس والسبايا إلى الشام بعث عبید الله بن زياد برأس الحسين عليه السلام فدير في سكك الكوفة، ولما فرغ القوم من الطواف به في الكوفة، ردوه إلى باب القصر فدفعه ابن زياد إلى زجر بن القيس ودفع إليه رؤوس أصحابه وسرحه إلى يزيد ابن معاوية وأنفذ معه أبا بردة بن عوف الأزدي، وطارق بن أبي

ص: 159

1- (1) حديث الجراح، أحمد الوائلي / 23.

2- (2) تاريخ دمشق، لابن عساکر، ج 370/60.

ضبيان في جماعة من أهل الكوفة حتى وردوا بها على يزيد بن معاوية بدمشق، ثم إن عبيد الله بن زياد بعد إنفاذه رأس الحسين عليه السلام أمر بنسائه وصبياناه فجهزوا وأمر بعلى بن الحسين عليه السلام فغل بقيد الى عنقه، ثم سرح في أثر الرؤوس مع محقر ابن ثعلبة العايد، وشمر بن ذى الجوشن، فانطلقوا بهم حتى لحقوا بالقوم الذين معهم الرأس الشريف(1).

وبدأ التحول بالشام على أثر خطب الإمام السجّاد عليه السلام وكلماته في المناسبات المختلفة، وكذلك عقيلة أهل البيت عليهم السلام... وتيقظ الناس وتنبهوا، وحتى جند يزيد ومن حوله... وبذلك تبين جانب من السرف في أخذ الإمام عليه السلام الأهل والعيال معه إلى العراق(2).

بربك كيف وجدت القيود تقصر لله درب السفر

وكيف لقيت حشود الشام ترتل باسم النبي السور

وتقرع حول بنيه الدفوف وترقص رقصة عيد الظفر

فرحت تلقنها دينها وتوقظ منها عمارة البصر

وكيف جعلت الصبايا الصغار حزاماً بقصر يزيد انفجر

قلبت الشام على رأسه ولوحت من كل جرح شر

غزوت أمية في دارها وجلت بها وقصمت الظهر(3)

ص:160

1- (1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج 2/74، عوالم الإمام الحسين، الشيخ عبد الله البحراني/414، رياض القدس، أبو الفرج عبد

الرحمن بن رجب الحنبلي، ج 2/292

2- (2) المصدر نفسه /75.

3- (3) أبا القيد، جابر الجابري /22.

معنى خربة: الخراب: ضد العمران، والجمع أخربة: خرب، خرباً، فهو خرب وأخربه وخربة. والخربة: موضع الخراب(1)، أما فى الموروث الشعبى فإنّ الخربة: مكان مهجور تركه أهله بدون سقف يظله ولا باب يحميه ووضع يزيد الطاغية زينب عليها السلام والعائلة فى هذه الخربة وذلك لقربها من القصر الأموى.

أمر يزيد بالنسوة أن ينزلن فى دار مستقلة جانبية معهنّ أخوهنّ علىّ بن الحسين عليه السلام فأفرد لهم داراً تتصل بدار يزيد، لا يكنهم (يحميهم) من حر ولا برد، فأقاموا به حتى تقشرت وجوههم، وكانوا مدة إقامتهم فى البلد ينوحون على الحسين عليه السلام ثلاثة أيام بلياليها بنات النبى فى خربة الشام، خربة لا تقيهم حر النهار وبرودة الليل، فى مكان اختير لشماتة الطاغية يزيد، وحال النساء فى هذه الخربة يبكى حتى الصخور من عظمها، فلا تسمع إلا إلى صرخات وأنات، ومع سكون الليل تتجسد مصائب كربلاء بتفاصيلها المؤلمة على قلوب الحرم ويبكى الأيتام، وتعاد كربلاء ومصيبة السبى بأعظم صورها على مخيلتهم، فتتحول هذه الخربة إلى مأتم للحزن والنياح على سيد الشهداء..(2).

وقد صور الشاعر طالب الحيدرى ما عاناه بيت الرسول صلى الله عليه وآله فى مسيرهم:

رجع الصدى ينساب فى البداء والليل وحش مرعب الأصداء

ورؤى النهار المر تبدو قصة لا تنتهى مبحوحة الأنباء

ص:161

1- (1) معنى كلمة خرب فى معجم المعانى الجامع، والمعجم الوسيط.

2- (2) مقتل الحسين، للخوارزمى، ج 76/2، عوالم الإمام الحسين.

والركب ينتهب الرمال وفي حشا ذراتها نار من الاحشاء

وعلى الهزيمة والظليع تساندت أشباح اسرى سيرت بحذاء

بالزجر بالشتم البذى بضربة من سوط ذنب أو عصا رقطاع(1)

هكذا فقد انتهت المسيرة بانتصار الفضيلة على الرذيلة، انتصار الكلمة الحرة المسؤولة على كلمة الشر والنفاق والشقاق، انتصار المظلوم على الظالم، العفو والسماحة والإباء على الغدر والحقد والارتكاس، وبقي الإمام الحسين مناراً يقتدى به الأحرار في كل زمان ومكان، في حين أن يزيد أضحى مضرباً لأمثال المكر والخداع والوقيعه، التي يلجأ إليها الطغاة دائماً للتحكم بالرقاب والتصرف بالبلاد حتى على حساب أشلاء الأبرياء ودماء الأوصياء بعد الخطبة التي ألقتها زينب وفضحت فيها يزيد وقلبت الأوضاع ضده، اضطر لوضع أهل البيت في خرابة لا سقف لها، ومكثوا فيها ثلاثة أيام ينوحون ويلطمون على الحسين.

إن عطر الولاية لكربلاء المقدسة بعالم العشق الإلهي المكمل بأريج الدم الزكي في تذكر دم الحسين الطاهر، ثم إلى خربة الشام من أجل التشفى بدمعة رقية بنت الحسين عليه السلام.

إن الحسين عليه السلام الذي نزع دمه في كربلاء، ليس دمعاً تذرّف ولا آهةً تطلق ولا حكايةً تروى فحسب، فالحسين دستور حياتي متكامل، وأنّ استشهاده عليه السلام فوق ثرى كربلاء يأمرنا أن نأخذ جميعاً من مناهجه الدروس والعبر من القيم ومناهج تطور الفكر الإنساني نحو إرساء عالم متحضر متآخٍ لدحر الظلم والإرهاب الأسود مستلهمين ذلك من مواقع وسلوك ومنهج ثورة الأمام الحسين

ص:162

1- (1) ملحمة كربلاء، ماذا يقول الشعر، طالب الحيدري/53.

ومن مصادق جهاده المحمدى النقى الذى رفض الظلم من أجل الحق(1)، وعبر عن هذا المعنى الشاعر الحسينى السيد زكى الياصرى * (2) قائلاً:

تَاهَتْ بِوصفِ جلالِكَ الْبُلغَاءُ وَتَحَيَّرَتْ فِي كُنْهَكَ الْعُلَمَاءُ

إِنَّ الْحَضارَةَ يَا حُسَيْنَ وَمَا حَوَتْ مِنْ كَرِبلائِكَ نورها وضَاءً(3)

هنا يؤكد الشاعر التحول المكاني لكربلاء من أرض تسكنها عسلان الفلوات إلى منبع للحضارات وهى المكان الذى يفيض نوراً فينير حضارات العالم.

لاشك أن الإمام الحسين عليه السلام له مكانة كبيرة فى الفكر الإنسانى بشكل عام والفكر الإسلامى بشكل خاص، فهو حفيد رسول الله محمد صل الله عليه وآله وسلم، وابن على بن أبى طالب عليه السلام، حوى على القيم والشمائل التى تربي عليها لذا، فلأرض كربلاء الفخر والعزة أن يصرع عليها مثل الإمام الحسين، وهى الحاضنة لجسده الشريف وقد جعل منها الشاعر مكاناً يعادل كل الأرض وهذا ما عبر عنه الشاعر عمر الحديثى *(4):

يا كربلاء أَلَا اسْتَدَى ففِيكَ فتيّ ثقلُ الوجود زهى أن فيه يُخْتَزَلُ

ص: 163

-
- 1- (1) الأسس الفكرية للإصلاح السياسى فى نهضة الإمام الحسين بن على عليهما السلام، أحمد عدنان عزيز الميالى / 96.
 - 2- (2) * زكى الياصرى النجفى: الولادة والنشأة كانت فى مدينة النجف الاشرف فى المحلة المعروفة بالعمارة التى كانت تعرف فى الماضى بعمارة المؤمنين وهو من الشعراء المعاصرين وله مجموعة كبيرة من القصائد فى آل البيت والإمام الحسين خاصة.
 - 3- (3) ديوان الافراح الحسينية، زكى الياصرى / 34.
 - 4- (4) * الشاعر عمر محمد سعيد الحديثى: شاعر عراقى سليل اسرة دينية معروفة فى الانبار معروف تعلقها بأهل البيت! وللشاعر الحديثى اسهامات شعرية تحاور نهضة الحسين عليه السلام.

لوعادلوکِ وکُلَّ الأرضِ کَفَّتْهُمُ آمالَ معیارِها، السَّبْطُ البها کَفِلُ

هذا الحُسينُ، دَمُ الثَّوارِ مَدَّ خُلِقَتْ فِي سِتِّ أَيامِها الأکوانِ یَکْتَمِلُ (1)

إن دوافع الإصلاح السياسي في نهضة الإمام الحسين عليه السلام بشكل أساس؛ هو إدراك الإمام الحسين عليه السلام أن خلافة معاوية ويزيد لا تتسجم وتتلائم مع الملامح العامة للقيادة الإسلامية (2)، فقد عم الظلام وانتشر الجهل ولا بد من نجم يظهر ليضيء لهذه الأمة فكان الحسين كما عبر عنه الشاعر عارف الساعدي * (3) قائلاً:

ولما استفاق الظلام ودبت مدائنه الرثة الكادرة

نهضت وأرقدت سبعين نجماً يظلمون أنجمنا الزاهرة

وأنت الوحيد الذي في يديك قناديل أروقة الآخرة

فأسرجت، روحك وسط الظلام ولألأت في الليلة العاشرة (4)

وهكذا أصبحت كربلاء في شعر الشعراء الذين كتبوا في واقعة الطف رمز المواجهة بين الحنفية البيضاء، والشرك المتلصص، بين الحق الخالص الصريح، والباطل المدنس المزخرف، بين الشجاعة والبطولة والتحدى، وبين التذبذب

ص: 164

1- (1) يا كربلاءً ألا اشتدّي، عمر سعيد الحديثي / 21.

2- (2) الأسس الفكرية للإصلاح السياسي في نهضة الإمام الحسين بن علي عليهما السلام، أحمد عدنان عزيز الميالي / 96.

3- (3) * الشاعر عارف حمود سالم الساعدي: ولد عام 1975 في بغداد، رئيس رابطة شعراء الشباب في بغداد/ الرصافة سابقاً، وعضو الرابطة المركزية للشعراء الشباب في العراق والاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق / 1999.

4- (4) رحلة بلا ألوان، عارف الساعدي، قناة كربلاء الفضائية.

والإنطواء.. وأصبح الإمام الحسين عليه السلام في شعرهم كما هو في كل وجوده الشريف لواءً منشوراً حين سل سيفه بوجه المنحرفين والفاستدين(1).

وقد عبر الشاعر السيد مرتضى القزويني في المعنى نفسه من أن نهضة الإمام الحسين عليه السلام هي الطريق الوحيد لخلص الأمة من الإنحراف والفساد قائلاً.

أحييتَ دينَ الله يا بنَ محمدٍ وغديتَ دونَ الدب عنه وجوداً

وسللتَ سيفك في وجوه طالما اتخذت لها طيش الهوى معبوداً(2)

إن الشعراء الذين ذكروا كربلاء في أشعارهم كثر، فقد وردت كربلاء بمضامين كثيرة عبر الشعراء فيها عن حبهم وتقديسهم لهذه التربة الطاهرة.

وفي الأحوال كلها فإنّ الشاعر العراقي في استقراءه كربلاء قد تقنن في استعمال الألفاظ اللائقة لمقام هذه الأرض الطاهرة. فالشاعر "قد يستعمل كل حيل اللغة من البساطة الكاملة إلى البلاغة المعقدة فيذكي حرارته أناً من خلال الإيجاز وأناً من خلال الإطناب، وطوراً من طريق حذف التفضيلات وطوراً من طريق التكرار"(3)، ليضفي على المتلقى الكثير من الإثارة والمتعة.

وللدكتور حازم الحلبي * (4) وقفة دامية مع الطفلة رقية بنت الحسين عليهما السلام التي كان دورها الأبرز في خربة دمشق جوار عروش الظالمين من بني أمية،

ص: 165

1- (1) كربلاء رمز المواجهة، شبكة الامامين الحسنين للفكر الاسلامي، مقال نت / 49.

2- (2) قد سال قلبي، السيد مرتضى القزويني / 54.

3- (3) الشعر كيف نفهمه ونتذوقه، اليزابيث درو، ترجمة د. محمود إبراهيم الشوش / 87.

4- (4) * الدكتور حازم سليمان الحلبي: شاعر عراقي مغترب من مواليد 1952 يعمل رئيس هيئة في مجلة اوراق فراتية.

وكانت صرختها سلام الله عليها هزت بها اركان السلطان الأموي فكانت بحق (كلمة حق عند سلطان جائر).

صعدة من بنى النبي بها طيبُ حسين ونفحة أحمدية

طفلةٌ أثقلت عليها الليالي حرمتها من بسمه أبوية

ثم زادت أن عرضتها لأقسى الظلم من شر زمرة وحشية

فقدت أهلها الذين حَمَوْها ثم سيقت الى دمشق سبية

أوجعتها السياط تُلهب ظهراً وهو ظهرٌ... لطفلةٍ علوية

والحبال التي تشدُّ يديها تأكل اللحم من يديها الطرية

هزها شوقها لوجه أبيها سألت: أين صاحب الأريحية

أين ذاك الأب الحنون الذي يلثم منها خدودها الوردية

لم تنزل تذكر الصلاة التي كان ليؤدى نهاراً وبكرةً وعشيةً

عنده إذ تقوم وهو يصلى تسمع الجهر والصلاة الخفية

قلتم سافر الحبيب أما عاد وهل تلك سفرةٌ أبدية

وأثوا يحملون رأس أبيها فوق صحنٍ فيا لها من هدية

شخصاً شهقةً وألقت عليه جسداً سارعت إليه المنية

هذه صورةٌ ستبقى مع التاريخ رمز الفضائح الأموية(1)

لقد تعلمنا من كربلاء الحسين كيف نصحى من أجل مبادئنا ومن أجل ديننا، فالشعر الكربلائي بما فيه من الجانب العاطفي فإنه ينهض بكل ما يتسع له مفهوم الأدب من تحريك عواطف الناس وتنبههم لواجباتهم، فلو استوعبت الشعوب الرسالة الحسينية وفهمت معانيها ومضامينها لما بقي الاستكبار العالمى

ص: 166

يلح على نهب ثروات الشعوب وعلى انتهاك مقدساتهم كما يحصل في العراق وأفغانستان وفلسطين وكل بقعة يستضعف بها المسلمون(1).

لقد شع من كربلاء شعر وفير أقرّ أنّ قداسة الإمام الحسين عليه السلام المثل الأعلى في ضمير الأمة ووجدانها، هي التي أسبغت على كربلاء كلّ هذه القداسة وهذه الرمزية في الزمان، ونشرت كربلاء على كلّ الأرض عنواناً لميدان انتصار دم الحقّ على سيف الباطل، فكانت كلّ أرض كربلاء.

ذهبوا وأنت بقيت والسيّاف صبّت عليه اللعنة الأسيافُ

ذهبوا وأنت بقيت ثاراً صارخاً والثورة الحمراء والأهدافُ

دولٌ تهاوت تحت رجلك وانطوت ليظلّ يخفق بندك الرفرافُ

هزوك فاهتزوا ومن أعماقهم ذابوا وهاهو غيثك الوكافُ

طوداً تطلّ على الحياة محلّقاً ترنو العيون إليه والآنفُ (2)

وبما أن الشاعر أي شاعر "يُعد بحق تُرجماناً لوجدانه الفردى ووجدان أمته الجماعى" (3)، فإنّ الشعراء لم يستطيعوا أن يتركوا الكتابة عن كربلاء التي شهدت مصرع سيد الشهداء على أرضها، فضلاً عن أن للمكان الحسينى أثراً كبيراً في الشعر العراقي المعاصر، "فكل بقعة من مدينة كربلاء تحمل شيئاً من ذكرى آل البيت فهنا أقاموا خيامهم، وهناك ساحة جهادهم" (4)، ويظل الشعر واللغة في

ص: 167

1- (1) مجلة الولاية، وصول سبايا الإمام الحسين عليه السلام إلى الشام، عدد 59، 2011/12/26.

2- (2) ملحمة كربلاء، لولا عطاء الخالدين، طالب الحيدري / 109.

3- (3) في نظرية الأدب من قضايا الشعر والنثر في النقد الحديث، عثمان الموفى / 163.

4- (4) الأدب العربي في كربلاء من إعلان الدستور العثماني إلى ثورة تموز 1958 (اتجاهاته

سباق مع الزمن، فمن قائل إنّ الشعر أساس اللغة وهو الذى يحملها لأنه بدأ شفويّاً قبل نشوء اللغة ويظل النص الشعري من المستويات المعرفية الراقية شأنه شأن النثر والموسيقى، فضلاً عن ذلك كانت الصورة معبرة من مكان مقفر وارض معركة إلى روضة من رياض الجنة نورها الإمام الحسين عليه السلام بدماء طاهرة زكية.

فقد هزت كربلاء ضمائر الشعراء وأججت مشاعرهم منذ أن شهدت أرضها أروع ملاحم الإباء وأسناها وتجسدت على ثراها أنبل المواقف الإنسانية وأسماها وخالطت تربتها أظهر الدماء وأزكاها فاستلهموا المعانى السامية والمبادئ العظيمة التى أصبحت شعاراً لكل إنسان يرفض الظلم والطغيان وينشد الحرية والكرامة. ولو أخذنا هذا الموضوع إحصاءً لضاقت به أضخم المجلدات وأوسعها لكثرة الشعراء الذين تناولوا ملحمة كربلاء فى أشعارهم على مدى عصور التاريخ.

كان لكربلاء وما وقع فيها من أراقة دماء وقطع رؤوس نصيبٍ وافرٍ عند الشاعر اديب كمال الدين الذى أكد من خلال صورته استمرار النهج الحسينى إلى ابد الأبدين بقوله:

ثم قامت الملائكة والجن

وجهنم والجحيم

ثم قام الأنبياء والأولياء

حين تدحرج الرأس المثقل

ثم قامت السماء

ص:168

ثم قام حملة العرش

استمر الرأس يتدحرج

على الأرض

إلى أبد الأبدین!⁽¹⁾

إن كربلاء عند هذا الشاعر دائمة البقاء وإن ما جرى فيها ليس إلا إنتصاراً للقيم والمبادئ والإرادة الحرة التي خطها الإمام الحسين بدمه الطاهر.

ويرى الشاعر أحمد الوائلي أن الدم الحسيني يتجدد في كل عام، وإن الخلود والبقاء جاء عن طريق الدم الطاهر الذي أصبح نبراساً ومناراً للثورات العظيمة في العالم:

يا دماً كلما تشيب الليالي يجتليه الزمان وهو جديدٌ

ماردٌ يحمل الحسين حساماً كلما مرّ بالوجود يزيدُ⁽²⁾

لقد أصبحت ثورة الإمام الحسين عليه السلام نبراساً ومناراً للثورات، ومدرسة لكل من أراد من ثورته هدفاً مقدساً، تلك الثورة التي خرج من اجلها وتحمل ما تحمله من الويلات.

ويلوح الشاعر السيد طالب الحيدري إلى أن كربلاء صارت مزرعة للمجد غرس فيها الإمام الحسين عليه السلام غرسة المجد، هذه المزرعة التي كان ربيعها الدم الحسيني طرحت بيادر من ثمار المجد للأجيال:

يا لوحةً بدمٍ حُطَّتْ مواسمها ويا ربيعَ العطايا الحُمُرِ والخُضْرِ

ص: 169

1- (1) المصدر نفسه / 22.

2- (2) الدم الثائر، د. الشيخ أحمد الوائلي / 27.

زرعت في "كربلاء" المجدّ فارْتَعَتْ بياضُ ترفدُ الأجيالَ بالثمرِ(1)

إن تأثير قضية الإمام الحسين عليه السلام تتجاوز زمانها ومكانها، وهي "قد أنتجت حركة فكرية ثقافية واسعة تطل مختلف جوانب المعرفة والحياة، كما قدمت منظومة مناقبية جديدة، تنبثق من روح المسؤولية والالتزام الأخلاقي، وتجلى ذلك في أخلاقيات معسكري الحادثة، حيث معسكر الإمام الحسين وأنصاره الذين دافعوا بعز وفداء وأخلاقية عالية عن الدين والمصلحة العامة، في مقابل من في المعسكر الآخر الذين سيطرت عليهم الأنا والمصالح والانتهازية على حساب ضمائرهم ودينهم وأمتهم"(2):

إنما المجد للذين يضحون بغيانٍ لأجل آخر باق(3)

يعرض الشاعر سلمان هادي آل طعمة * (4) صورة مشابهة لصور من سبقوه من الشعراء وهي الحج للقبر الشريف، ذلك المكان الذي يتوافد إليه الزائرون من مختلف بقاع العالم، وقد تضمن شعره قول الإمام الحسين عليه السلام: "من زارني في حياته زرته بعد مماته"(5).

تباهى الكون فيه إذ تجلى وأخنى ليله ومحا نهاره

ص: 170

1- (1) ملحمة كربلاء، القربان، السيد طالب الحيدري / 130.

2- (2) نحو قراءة فلسفية اعمق لخطاب النهضة الحسينية، د. محمد سعيد الامجد، شبكة الإمامين الحسينين عليهما السلام للتراث والفكر الإسلاميين، النت.

3- (3) ملحمة كربلاء، الشعلة الخالدة، طالب الحيدري / 33.

4- (4) * السيد سلمان بن السيد هادي آل طعمة ولد في كربلاء سنة 1935، ونشأ بين ظهراني أسرة علوية عريقة تعرف بالسادة (آل طعمة) المتفرعة من قبيلة (آل فائز)، نشر المئات من البحوث والدراسات والمقالات في الصحف والمجلات العربية والعراقية.

5- (5) الدروع الواقية، للسيد بن طاووس / 75، وتهذيب الأحكام، ج 6، ح 48/40.

فمن زار الطفوف وساكنيه خطى من فيض حبههم إمارة

ويا مثوى يحجج إليه خلق تبارك من سعى فيه وزارة

والجدير بالملاحظة أن الشعراء لم يتركوا صغيرة أو كبيرة من المشهد الكربلائي إلا كانت مادة لشعرهم، فهذا الشاعر آل طعمة يصف العباس بن علي بن أبي طالب عليهما السلام ب - (ساقى عطاشى كربلاء)، الذي كان لصولته في الوغى في طف كربلاء صدى في تحديه الجيش الأموى البغيض ونزوله الى المشرعة لجلب الماء للنساء والأطفال لا يهاب أحداً منهم.

جرى القضا وأى خطب قد جرى فهدّ من ساقى عطاشى كربلا

حام على ورد المنون ثائراً وجرّد العضب وأوقد الوغى

لاقى خميساً مادّت الأرض له وماله حامٍ سوى سمر القنا

لم انسه يدعو اخاه السبط هل من شربة أسقى بها على الظما؟

خاض غمار الموت وهو ضاحك وعبس القوم وفروا مذ سطا(1)

العباس أخو الإمام الحسين عليهما السلام وقائد جيشه، حيث هرب منه أكثر من أربعة آلاف عسكري من جيش يزيد بن معاوية لما توجه للإتيان بالماء لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يجرؤوا على الاقتراب منه(2).

فكانت كربلاء بقعة طاهرة ولكن زيد في طهارتها وعظمتها وأهميتها عندما أريق دم الحسين فيها ذلك القتل المضرّج بالدماء يشكو الخذلان وقلة الناصر كما رآه الشاعر آل طعمة في قصيدته (أبا العقيدة) قائلاً:

ص:171

1- (1) المصدر نفسه / حامى الضعينة / 125.

2- (2) العباس رجل العقيدة والجهاد، السيد محمد على يوسف الاشيقر / 135.

قف بالطفوف محجة الثوار واستوح ثورة قائد الأحرار

أفديه من بطل يقود جحافلاً غراء يومض عزمها كالنار

هذا الحسين مخرج بدمائه ظمآن يشكو قلة الأنصار

وهوى كليث الغاب لا ينتابه خور ولا جزع بيوم النار

وحواسر صرعى القلوب حرائر يبكين قتلى الطف في المضمار⁽¹⁾

وكان لعقيلة بنى هاشم نصيب كبير في المأساة التي حدثت على أرض كربلاء حيث "كانت زينب صوت الحسين، وصولته.. ودم الحسين، وديمومته.. وشخص الحسين، وشخصيته.. وبصر الحسين وبصيرته.. كانت هي الحسين في قالب امرأة"⁽²⁾.

في الشام كانت زينب عليها السلام غريبةً وأسيرةً.. وكانت مظلومةً ومكظومةً.. وكانت محرومة ومهزومةً.. ولكنها لم تكن أبداً مهزومة، ولذلك فقد مدت قامتها كأنها الطود، ورفعت صوتها كأنه الرعد، وصرخت في وجه الطاغوت قائلة: كد كيدك واسع سعيك فوالله لا تمحو ذكرنا ولا تميم وحيناً⁽³⁾. فكانت صورة الشاعر آل طعمة لعقيلة بنى هاشم مطابقة، حيث وصف موافقها الأبية السامية في عرصة كربلاء التي ساندت ثورة الإمام الحسين عليه السلام بكل صلابة قائلاً عنها:

وقاست خطوباً وهي مهزومة الحشا كما هضم المظلوم والمتحيف

مصاب غدت تبكى العيون له دمأ وكل محب دمه متوكف

ص: 172

1- (1) ديوان المديح والرثاء في محمد وآل بيته النجباء، ابا العقيدة، سلمان آل طعمة/ 84.

2- (2) السيدة زينب الكبرى عليها السلام من المهدي إلى اللحد، للسيد محمد كاظم القزويني/ 68.

3- (3) أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين، ج 617/1.

لها فى عراض الطف أسمى مواقف يذل لها جيش العدو ويرعف

ففى كربلا قد ساندت ثورة الإبا فلم تخش من جور ولا تتخوف

أت زنب للشمر تشفى غليلها لتجره طوراً وأخرى تعنف(1)

فى الحقيقة لم أعر على قصيدة للشاعر الدكتور محمد حسين آل ياسين يذكر فيها كربلاء فى التسعينات، وبعد سؤاله دلى على هذه القصيدة فى ديوانه (آل ياسين) التى كتبت فى سنة 1988 م حيث يرى فيها أن الإمام الحسين عليه السلام دمعة حرى دائمة الحضور فى العين والقلب والوجدان، حيث لم تنزل الفجيجة توجع القلب قائلاً:

لم تنزل دمعة الفجيجة حرى ذل من قال لا تليق الدموع

كربت فاستقام من كل عين سكبتها على الخدود شفيح

لا يعيب الباكين دمعة حزن إنما العيب دمعة وخنوع

وأفصت مضاجع مترفات سحنة الفوز ينتضيها ضجيع

وأصمت صحيفة أذن اللاهين تسرى بهديها وتذيع

وغزا عين اللئام من الق - - د على أذرع السبايا سطوع(2)

ويرى الدكتور محمد حسين آل ياسين الارتباط العاطفى بين الامام الحسين عليه السلام وبين الشاعر.. فالدموع أقوى أنواع الارتباط لأنّ الدموع لا تنزل من الجفون إلا إذا كانت جوارح الإنسان تعتلج وتحتدم فى داخله حزناً وعشقا، ولكن

ص:173

1- (1) ديوان المديح والرثاء فى محمد وآل بيته النجباء، عقيلة بنى هاشم، سلمان آل طعمة/118.

2- (2) ديوان آل ياسين، الحسين الخالد، د. محمد حسين آل ياسين / 261.

فى هذه الأبيات اعتذاراً عن نزول الدموع ناسياً أن أول من بكى الحسين عليه السلام هو رسول الله صلى الله عليه وآله، وعلى عليه السلام.. وقد التفّت الشاعر محمد الحلّى إلى ذلك، وبين فى أبياته المكان الحسينى فى قوله (لتربته) أى المكان الذى أستشهد فيه الحسين عليه السلام والذى نبى نقتديه رجالاً ونساءً:

شربنا فى محبته كؤوساً يلدُّ الشاربون بها ارتواء

وأدمج فى جوانحنا هيامَ رضينا من حلاوته البلاء

لقد أبكى رسولَ الله طفلاً فما أدنى لمقتله البكاء

وما أدنى إذا كنا فداءً لتربته رجالاً أو نساءً(1)

إن تحولات المكان التى حصلت بعد واقعة الطف الخالدة لم تكن لشهادة أصحاب الحسين عليه السلام، بل كان ذلك لوجود ابن النبى صلى الله عليه وآله الإمام الحسين عليه السلام، إن الأمر الذى لا ينكر هو أنه كان لدماء الشهداء الزكية فى واقعة طف كربلاء أثر وتمهيد لفضح الدولة الأموية فيما بعد، إذ لو لم يكن الإمام الحسين عليه السلام صاحب كربلاء، لما كانت كربلاء التى نعرفها اليوم، ولا فاجعة عاشوراء التى تأخذ بمجاميع قلوب المؤمنين خاصة وأحرار العالم عامة.

إن واقعة كربلاء بعظمتها الفريدة من كل وجهة، وبكل أبطالها وبطولاتها، إنما استمدت خصائصها من الخصائص المنحصرة بصانع ملحمتها الإمام أبى عبدالله الحسين عليه السلام، فكانت الحدث التاريخى الذى لا يرقى إليه أى حدث تاريخى آخر فى مستوى تأثيره.

ص:174

فقد رافقت المأساة الحسينية في كربلاء روح الشاعر العراقي عبر العصور فجسدها أحياناً بالتوجع بذكرها ووصف أحداثها وقد غلب هذا التوجه على الشعراء الرواد لاسيما في القصيدة العمودية حيث استخدم الشعراء واقعة الطف (كربلاء) بوصفها نموذجاً متميزاً للتضحية في سبيل القيم وذلك لتحريك الضمير الإنساني وحثه على السير في شارع القيم وبظل مبادئ الحسين عليه السلام، هذا الى جانب استلهاها في قصائد المناسبات الثورية بوصفها النموذج الأول من نوعه في قدرته على إثارة وعي المنتفضين ضد القهر، قهر السلطة أو المستعمر وعلى حد سواء.

الفصل الرابع: التشكيل البصرى فى تحولات المكان فى الشعر الحسينى

اشارة

ص:177

الشعر من أقدم الآثار الأدبية عهداً لعلاقته بالشعور، ومادته الخيال، والخيال غداؤه الحسّ والعاطفة وإثارة النواحي الجمالية وعواطف القارئ وتحريكها من خلال تشكيل صور مشحونة بالإيحاءات واللعب على تنوعات اللغة والشكل والإيقاع، وعلى مدى الشعر العربي الحديث كان للشاعر العراقي التميّز الجلى فى هذا الميدان، فكان فى الصدارة من ناحية التجديد والتعبير ومن ناحية إضاءة زوايا محرمة فى تفاصيل العمل الأدبى.

وفى العصر الحديث مرت القصيدة العربية بعدد من التغيرات بداية، بكسر نظام القافية على يد عدد من الشعراء العرب منهم بدر شاكر السياب، ونازك الملائكة فيما عرف بعد ذلك بالشعر الحر الذى أخذ مساحة واسعة من الإنتشار بعد منتصف القرن العشرين.

ثم جاء بعده نوع جديد من الشعر هو قصيدة النثر التى انتشرت على يد جيل ممن عرفوا بالشعراء الحداثيين منهم: أدونيس، أنسى الحاج، محمد الماغوط، حلمى سالم وغيرهم.

وفى التسعينات من القرن العشرين كانت الأشكال الشعرية إلى جانب قصيدة النثر مع ظهور جيل جديد من الشعراء الشبان الذين كتبوا فى الأشكال

الشعرية كافة، وكتبوا شعرهم معتمدين على التفاصيل اليومية والحياتية وهو ما لاقى معارضة من بعض النقاد الذين سموه بالشعر المعاصر في أخريات القرن العشرين لأنّ الفنان المبدع والمتلقى يعيشان معاً، ويتصف هذا الفن بعدد من الصفات منها خروجه عن الأوزان المعهودة، أو كسر نظام القافية وهذا ما اعتدنا عليه منذ عصر الرواد، فليس الشكل سوى صورةٍ للمضمون الذي أخذ يتغير منذ بداية القرن العشرين حين ابتدأت بنية القصيدة تتغير وتتجدد من الشعر الغنائي الخالص إلى الشعر الدرامي فقد عرف شعرنا الحديث القصة الشعرية، والدراما الشعرية في بعض أعمال خليل مطران، وأحمد شوقي، والأخطل الصغير وشعراء المدرسة الإبداعية في مصر ومنهم على محمود طه، وصالح جودت، وغيرهم، "فكان الخروج عن الوزن فيما بعد نتيجةً للمؤثرات الثقافية والاجتماعية من جهة، ولتطور بنية القصيدة العربية من جهة أخرى، وسمى ذلك الشعر مسميات منها الشعر الحر، والشعر المنطلق، والشعر الجديد، والشعر الحديث"⁽¹⁾.

إذا كان الأدب العربي يمثل الحياة الدائمة للغة العربية، فإنّ الشعر يمثل روح هذه اللغة ويستمر الرافد الأعظم والأسمى في رقيها وشموخها وازدهارها فيشع سناءً متقدماً منوراً مسالك هذا الارتقاء ومواطنه نحو الكمال في جمالية منبعثة من خلال الحرف العربي، ويصب عميقاً في بحر اللغة العربية ليتحفها بمنايع الندى المشرق ويجري في عمق بلاغتها وبيانها ومن خلال رشاقة كلماتها واشتقاقها بعضها من بعض فتكتمل حلتها القشبية بالقصائد المقفاة أو قصيدة التفعيلة الحرة أو من خلال قصائد النثر المعاصرة التي تعد في دور البناء والتطوير على أيدي الشعراء الشباب سابقاً.

ص:180

" والتشكيل البصرى فن من فنون التصوير أو مبدأ من مبادئ التصوير الفوتوغرافى أو التشكيلى ويمكن الحديث عن التشكيل البصرى فى فن القول، كالتشكيل البصرى فى فن السّعر: وقد أنجزت بكلية الآداب جامعة الملك سعود، منذ أربع سنوات أطروحة دكتوراه فى موضوع (الشعر الحديث وتشكيله البصرى)، أنجزها الباحث: محمد سالم الصفرانى هى مجموعة أدوات فنية لها أثرها الجمالى فى بنية النص الشعري/ أثر التشكيل البصرى فى إنتاج الدلالة الشعرية / أثر التشكيل البصرى فى توليد الصورة الشعرية" (1).

والتشكيل البصرى: هو رؤية العين الناقدة للنص الشعري فضلاً عن عمل المتخيل النقدي فى قراءة النص، وبذلك يكون الناقد قد بصر وتخيّل بدقة كل ما فى النص من أسرار وخفايا فنية " وهذا النوع من الأشكال تحكمى وآلى لا يسعه تقديم دلالة ذات قيمة فنية، فالشكل المسبق المفروض على المضمون يمارس قمعاً وتسلاً على المضمون الذى يريد أن يتشكل فىأتى الشكل المسبق ليحد من تشكله بصرامة؛ لذا كان لابد للمضمون من مخرج من تسلطية الأشكال المسبقة والقوالب الجامدة فكان التشكيل البصرى النابع من المضامين والعائد إليها هو البديل والملاذ، فالشكل سابق على النص ومفروض عليه، أما التشكيل البصرى فطارئ ومبتكر.

وقد كانت أحكام الشكلانيين على الشعر تعتمد على شيئين هما: الجودة والمفاجأة" (2). ويقول فيكتور شكولوفسكى فى حديثه عن الشعر: " إن من واجب

ص: 181

1- (1) الشعر الحديث وتشكيله البصرى، جريدة الرياض، مؤسسة الإمامة الصحفية، ع/ 14024، سنة 2006 م.

2- (2) فضاءات التشكيل والشكل، د. محمد الصفرانى، جريدة الرياض/ 6.

الشاعر أن يخلقه جديداً، وأن يخلقه غريباً، وإذا نظرنا إلى تطبيق الشكلانيين الروس لمبدأى الجدة والمفاجأة حكمنا أن الأمر نسبي" (1).

كما نلاحظ من خلال تتبعنا للأشكال الشعرية وتحولاتها المكانية والفنية أن ذلك مرتبط بثقافة الشاعر، ورهافة حسه، ونضج وعيه الفكرى "إن الثقافة البصرية تهدف من خلال التشكيل البصرى إلى تجسيد الإدراك الحسى للعالم لا إلى خلق التصورات عنه؛ وذلك من خلال دعوة المتلقى إلى التبصر فى المعطى البصرى للنص فى غياب أى محفزات لتصور غير بصرى.

وهى المخرج من المتمركز حول الصوت والتلقى السمعى "والتسلط" الناتج عن ثقافة الأذن فتثقافة الأذن ثقافة السمع والمحافظة، إنها ثقافة الوثوقية والتقليد، ثقافة الأذن على الدوام ثقافة سلطة، أما العين فلما لها من قوة على شبكيته ولما لها من قدرة على تعدد منظوراتها وزوايا نظرها تجعل الثقافة التى تعتمدها ثقافة نقدية وقد ميزت الثقافة البصرية تمييزاً مفيداً لقراء الشعر بين المخيلة المقيدة والمخيلة الحرة؛ الأولى: مخيلة سماعية عضلية تثور بالضرورة حتى لو كان الإنسان يقرأ لنفسه وهى واحدة، تقريبا لدى كل القراء الأكفاء. والثانية: بصرية وتتوسع بين شخص وآخر أو بين نمط ونمط، مما يجعل الثقافة البصرية هى المحفز الرئيس للتشكيل البصرى فى الشعر العربى الحديث" (2).

إن تحولات المكان فى الشعر الحسينى فى العراق هى تحولات بصرية فى الشكل لا سيما بعد أن تطور شكل القصيدة العربية وأصبحت تكتب بأشكال عديدة، والتشكيل البصرى عموماً فيه أشكال عديدة كونه من الموضوعات

ص: 182

1- (1) التشكيل البصرى فى الشعر العربى الحديث، د. محمد سالم الصفرانى / 13.

2- (2) فضاءات التشكيل والشكل، د. محمد الصفرانى، جريدة الرياض / 7.

النقدية التي ظهرت حديثاً إذ "يعانى التشكيل البصرى فى الشعر العربى الحديث ندرة وفقراً فى المفاهيم النقدية الإجرائية نظراً لقلّة الدراسات السابقة من ناحية وعدم شموليتها من ناحية اخرى، ولذا فإنّ دراسة التشكيل البصرى تتطلب منا مواجهة التشكيلات البصرية وجهاً لوجه من أجل اكتشاف القوانين العامة التي تتمظهر من خلالها، والأنماط الرئيسة لتجلياتها؛ حتى تتمكن من وصفها بمفاهيم نقدية ذات طبيعة إجرائية عامة صالحة لدراسة التشكيل الأدائى الشفهى التي تنظر إلى التشكيل البصرى على أنه عضو حيوى فى نصوص الشعر العربى الحديث"⁽¹⁾.

ولهذا هناك أمور عديدة تشترك فى التشكيل البصرى، وهو عنصر أساس فى الشعر الحسينى لأنه شعر منبر ومباشر ويشير العاطفة فى نفس المتلقى.

أما التشكيلة البصرية فهي التي تعود القارئ الى "تعيين الجنس الادبى وتجعله يتبنى استراتيجية خاصة فى قراءة النص بحسب ما يقرر ذلك الدكتور محمد الماكرى"⁽²⁾.

وفى هذا الفصل سنتناول التشكيلات البصرية فى تحولات المكان فى الشعر العراقى الحسينى الذى صور لنا تحولات المكان وتغيراته وقد وقع فى مباحث هي: المبحث الأول الشكل الشعري المقفى، والمبحث الثانى: الشكل الشعري الحر (قصيدة التفعيلة)، والمبحث الثالث قصيدة النثر.

ص: 183

1- (1) التشكيل البصرى فى الشعر العربى الحديث، د. محمد سالم الصفرانى / 13.

2- (2) ينظر: الشكل والخطاب، مدخل لتحليل ظاهراتى، محمد الماكرى / 5.

عرف الشعر العربي عبر عصوره المختلفة أنماطاً من الخطاب الشعري، اختلفت في أطرها ومحتواها. وكان الشعر العربي القديم قد استقر في شكله الذى اصطلح على تسميته بالشعر العمودى، أو الشعر التقليدى المقفى. هذا المصطلح مأخوذ من مصطلح النقد القديم فى وصف هذا النمط من الشعر بأنه يتبع عمود الشعر. وقد أرجع النقاد القدماء مقومات عمود الشعر إلى سمات متعددة منها ما يتصل باللفظ من حيث جرسه ومعناه فى موضعه من البيت، أو ما يخص تصوير المعانى الجزئية وصلة بعضها ببعض فى بنية القصيدة، أو مشاكلة اللفظ للمعنى، وما إلى ذلك من قيم استمدها النقد القديم من تلك السمات التى وقف عليها فيما بين يديه من قصائد.

وقد ثار بين قدامى النقاد العرب كثيرٌ من مسائل الخصومة حول عمود الشعر وما تفرع عنه من دلالات نقدية. وأهم ما يميز هذه القصيدة العمودية التزامها عمود الشعر وأنها تسير على سنن وتقاليد القصيدة العربية منذ الجاهلية؛ هذه القصائد العمودية التى يسميها النقد الحديث بالقصائد التقليدية، كانت تسير

على نمط شعري محدد في بحورها وأوزانها متبعة تلك الأوزان التي قنتها الخليل بن أحمد الفراهيدي، كما تلتزم قافية موحدة وحرف رويّ موحداً، ويأتي البيت فيها مكوناً من صدر وعجز ومصارع في أول القصيدة(1).

والشعر العربي عبر عصوره المختلفة له أنماط من الخطاب الشعري اختلفت في أطرها ومحتواها وكان الشعر العربي القديم عقب محاولاته الأولى التي لم تصل إلينا قد استقر في شكله الذي اصطلح على تسميته بالشعر العمودي.

والشعر العمودي: هو الشعر الذي سجلت به أقدم القصائد التي وصلتنا فقد كان هذا النمط الشعري هو النمط الوحيد الذي سجلت به القصائد العربية في عصورها الأولى ولم تظهر غيرها إلا في العصر الحديث بعد ظهور المدارس الحديثة المتحررة من الوزن والقافية وما زال العديد من الشعراء في العصر الحديث يميلون لاستخدام هذا اللون من الشعر(2).

وأبرز من كتبوا هذا الشعر إذ تعددت الأسماء وتنوعت العصور التي استخدم فيها هذا اللون من الشعر وأبرزهم: امرؤ القيس، وعنترة بن شداد، ويعد هذان الشعراء من أعظم شعراء العصر الجاهلي، ومن شعراء العصر الإسلامي والعصر الأموي حسان بن ثابت، جرير، ومن الشعراء العباسيين البحتري، والمنتبي. ومن شعراء الأندلس ابن زيدون، وأبو البقاء الرندي، وفي العصر الحديث أحمد شوقي، محمود سامي البارودي(3). ومن الشعراء العراقيين المعاصرين محمد مهدي الجواهري، الدكتور أحمد الوائلي، والدكتور محمد حسين آل ياسين، وغيرهم.

ص: 185

-
- 1- (1) الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر، د. عبد الحميد جودة السمار / 45.
 - 2- (2) الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر، د. عبد الحميد جودة السمار / 48.
 - 3- (3) ينظر: الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار، الدكتور جودت الركابي / 33.

لغةً: العمود عمود البيت وهو الخشبة القائمة في وسط الخباء، والجمع أعمدة وعمد، وعمود الأمر قوامه الذي لا يستقيم إلا به، والعميد: السيد المعتمد عليه في الأمور أو المعمود إليه(1).

اصطلاحاً: هو طريقة العرب في نظم الشعر لا ما أحدثه المولدون والمتأخرون أو هو القواعد الكلاسيكية للشعر العربي التي يجب على الشاعر أن يأخذ بها، فيحكم له أو عليه بمقتضاها(2)، كما يُعرّف كذلك بأنه: مجموعة الخصائص الفنية المتوفرة في قصائد فحول الشعراء التي ينبغي أن تتوفر في الشعر ليكون جيداً.

ويُعرّف أيضاً بأنه: التقاليد الشعرية المتوارثة أو السنن المتبعة عند شعراء العربية، فمن سار على هذه السنن، وراعى تلك التقاليد، قيل عنه: إنه التزم عمود الشعر، واتبع طريقة العرب، ومن حاد عن تلك التقاليد، وعدل عن تلك السنن قيل عنه: إنه قد خرج عن عمود الشعر، وخالف طريقة العرب.

وعلى الرغم من أن موضوع كربلاء قد تناوله الشعراء من مختلف المدارس إلا أن الشعر العمود كان النمط الشعري الأعم والأغلب في كتابات الشعراء، وذلك اعتقاداً منهم أن شعر العمود هو أقدم أنواع الشعر وأكثرها أصالة، ومن الشعراء العراقيين المعاصرين الذين اعتمدوا أسلوب الشعر العمودي هو الشيخ الدكتور أحمد الوائلي الذي جعل من الحسين عليه السلام ملاذاً لمن يضلّ عن

ص: 186

1- (1) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، والفيروز آبادي، القاموس المحيط، مادة (عَمَدَ).

2- (2) ينظر: معجم النقد العربي القديم، أحمد مطلوب، ج 133/2.

جادة الصواب، وتختلط عليه مفردات حياته بصورة لا يفرق فيها بين صادرة وواردة، بين ما يعطيه وما يأخذه في تعامله مع نفسه ومع الناس، وحرى بالحسين عليه السلام أن يكون مناراً للتائهين في غمار الدنيا التي تسلب من الضعفاء نفوسهم قبل كل شيء، فنلاحظ تحول المكان الحسيني من صحراء مجدبة إلى رياض وعطور فواحة.

حرى بمثلك أن يخلدا وأن يصبح البطل المفردا

ضربت لنا مثلاً في الإباء يعلمنا النبل والسؤدا

تعلمنا كيف يحيى وكيف يموت الفتى شامخاً أصيداً(1)

فمع الحسين عليه السلام يُكتسب الوجود معناه، فالإيمان بقضية ما يعنى العيش من أجل تلك القضية، والاستعداد للموت والتضحية من أجلها، فلا بد من وجود معنى "فاللا-معنى يحرم الحياة من الامتلاء وبالتالي فهو يعادل المرض، فالمعنى يجعل الكثير من الأشياء ممكنة التحمل، وربما يجعل كل شيء محتملاً...."(2)، يرى طالب الحيدري أن المعانى مخلدة في شخص الإمام الحسين عليه السلام، فهو عطاءً لدنيا المجد، مَثَلٌ أنموذجاً فريداً في الخلود ما زال صوته مدوياً في مسامعنا منذ استشهاده عليه السلام وحتى يومنا هذا قائلاً:

فديتك بالنفس من ثائر وأقصى المنى أن أكون الفدى

أبى تلفع بالمكرمات وبالعز والتضحيات ارتدى

ص: 187

1- (1) ديوان الوائلى من قصيدة (حديث الجراح)، ج 41/1.

2- (2) ذكريات أحلام وتأملات، كارل غوستاف يونغ، ترجمة ناصر السعدون مراجعة د. سلمان الواسطي وردت في النص (وبالتالى)، والأصح أن يقال: (ومن ثم) / 330.

ولم يرَ أفضل من أن يموت بين اللهازم مستشهداً

تجرّع كأس الردى باسمًا ولم يعطِ أعداءه مقوداً

أبى أن يمد يداً للثام وقد مدّها للمواضى يداً(1)

وقد حاول الشاعر الوائلي من خلال مخاطبته الإمام الحسين عليه السلام أن يصوغ فكرته في الأبيات اللاحقة، التي أكدت بقاء الذكرى الحسينية خالدة في ضمير ألوان الزمن على الرغم من تباعد الحقب بوصفها درساً متجدداً ومستمرّاً باستمرار الصراع بين الخير والشر، فالشاعر أراد إيصال هذه الفكرة وهو "لا- يحاول أن ينفس عن عاطفته فحسب، بل يحاول أن يؤديها في نوع من الأداء كفيّل بأن ينفعل به متلقية" (2)

يا دماً شابت الليالي عليه وهو للآن في الرمال جديداً

يحمل الطف والحسين حساماً كلما مرّ بالوجود يزيد

وإذا عرس الخنوع بجيل وانحنى منه للمذلة جيداً

صاح بالرمل من صداه دوى فإذا الرمل فارسٌ صنيداً

هكذا أنت كلما افتقر الجي - ل لعزم فمن دماك الرصيد

صرخة لم يضع صداها وإن حاول تضييعها الضجيج الشديد(3)

ويعبر الشاعر فليح الركابي بأروع الكلمات ليشبه أرض الطف (كربلاء) بأرض مكة المكرمة ومن يطوف حول الضريح الطاهر للإمام الحسين عليه

ص: 188

1- (1) ملحمة كربلاء، سلام عليك، طالب الحيدري / 21.

2- (2) وظيفة الأدب، بين الالتزام الفني والانقسام الجمالي، د. محمد النويهي / 26.

3- (3) ديوان الشعر الواله في النبي وآله، أحمد الوائلي / 99.

السلام، كما يصف حنينه اليها وهي روضة من رياض الجنة:

وعاودني الحنين إلى رياضٍ وأرضِ الطف مكة أو تكاد

فذاك السبط يسكنها أميراً وبايعت النفوس ولا ارتداد

طوى كل الدهور وكان فجراً ويبقى الوتر فيها والعماد

هي النفس الأبية قد تسامت وفوق الشمس كان لها مهاد

هلموا باتباع السبط سعياً به طاف الحجيج ويستزاد(1)

وفي قصيدة أخرى يقدم الشاعر الركابي الشكل البصرى هو الشكل الشعري التقليدي يصف فيها حاله حين وفد على الإمام الحسين عليه السلام زائراً بقلب ظامئٍ ملهوف يطوف بضره كما يطوف الحجيج حول بيت الله الحرام.

وفدّت عليك بقلبٍ ظمى تباركَ يومك من ملهم

تباركَ يومك يوم الإبا يلوذُ به كلُّ أنفٍ حمى

فطفتُ بروضك طوف الحجيج ولبيتُ باسمك كالمحرم

تحجُّ اليك الوفود فمن تقى صدوقٍ ومن مُجهم

سلام عليك على منحرجٍ يجرّ السيوف ولم يُلثم

سلام على أضلع حانياٍ شربن الصهيل ونزف الدم

سلام على إصبع شع في الأع - - صر الخاويات ورغم العمى

الى قوله:

شددنا الرحال برغم النباح لأنك فيض من الزمزم

ص: 189

1- (1) منامات مستيقظة، منام في حضرة السفينة، فليح الركابي / 5.

لأنك أنت الطهور وركن الحطيم تبارك من منعم (1)

إن الشكل البصرى المقفى هو المطلوب فى هذا المقام لأن المنبر الحسينى يحتاج إلى شعر مباشر وخطابى حتى تزداد اللوعة فى نفس المتلقى وأن التحول المكانى واضح فى هذا الشكل الشعرى فالمكان أصبح روضة من رياض الجنة تحج إليه الملايين كل عام.

ويصف الشاعر جابر الجابرى من خلال القصيدة العمود تضحيات الإمام الحسين عليه السلام فى طف كربلاء التى قومت الأمة بأن جعلتها لا ترع للباطل مهما كانت التضحيات كبيرة قائلاً.

فمضينا نملاً الدنيا هدى ونعم الكون خيراً وسلاماً

ثم أعلننا بأننا أمة تقتدى العنق ولا تعطى الزماماً

يا ولى الأمر هبها صرخة بين شديك جحيماً وضراماً

ملئت ظلماً وقد راقبتها كيف تبدو مرة الطبع زواماً (2)

والشاعر الجابرى يصور مدى الظلم والحيث الذى لحق بآل البيت عليهم السلام فى كربلاء الذى تقام حتى أصبح لا يطاق، فالزمن ظلم والمكان تحول إلى زؤام وقسوة على النفوس.

يا ليلة وقف الزمان بها وجلاً يدون أروع الصور

وقف الحسين بها ومن معه جبلاً وهم كجنادل الحجر

ص: 190

1- (1) المصدر نفسه، وفادة وطواف، د. فليح الركابى / 81.

2- (2) لهم الشعر، جابر الجابرى / 18.

ما هزهم عصف ولا رعشت أعطفهم في داهم الخطر⁽¹⁾

استطاع الشاعر طالب الحيدري اختزال أجواء واقعة الطف في صورٍ اعتمدت السرد البصري للوصول الى أكثر من جانب، بغية الكشف عن الموقف الأكثر التصاقاً بمعاني البطولة والإنسانية التي جسدها الإمام عليه السلام من خلال وقفته تلك.. وإن التحولات المكانية كانت تؤثر للتحولات الزمانية، وأن أولئك الجماعة الصالحة كانوا جبالاً في وجه عاصفة العدو الغاشم وأن كربلاء بفضلهم أصبحت قبلة العالم فضلاً عن ذلك أن التشكيل البصري كان تقليدياً وفق نظام القصيدة العربية المعروفة.

و"كربلاء" له في كل ناحية في كل خارطة نُصِبَ وتمثالُ

هنا الخلودُ هنا أسنى مظاهره هنا اختصارٌ لمعناه وإجمالُ

في كل عامٍ ويومٍ الطفِ يبعثنا تلمُّنا فيه آلامٌ وآمالُ

حيثُ البطولة في صمتٍ تعلمنا كيفَ النزيفُ وكيفَ الجرحُ يختالُ

وكيفَ فردٌ يحامي عن عقيدته في كلِّ عضوٍ من الاعضاء رتباً⁽²⁾

إنَّ الإمام الحسين عليه السلام أعطى الحياة نهجاً جديداً من خلال إغناء الفكر الإنساني بمعاني الإسلام الجهادية (الفداء - التضحية - الصمود الشهادة)، كما علمنا كيف نؤمن بقضيتنا وندافع عنها، إذ إنَّ الدم الذي أريق على أرض كربلاء أسرج شعلة ما تزال متوقدة، فكان الشرارة التي انطلقت بها الثورات في العالم أجمع وترسمت خطاه عليه السلام، ونلمس فيها من مبادئ الإمام الحسين عليه السلام،

ص: 191

1- (1) المصدر نفسه / 22.

2- (2) ملحمة كربلاء، من قصيدة (بكم جننا)، طالب الحيدري / 139.

وهذا جزء من فكر الشاعر الواصل الذي أراد توصيله بشكل بصرى تقليدى.

وعلمنا أن الفداء فريضة إذا افتقر العيش الكريم إلى الفدا

لمحت رسوم المجد بيضاء حرة على كل عضو منك قطع بالمدى

فأكبرت فيك الدم أسرج شعله بقلب ظلام الليل حتى تبدا(1)

والشاعر محمد الحلبي له أن يعبر عن أحاسيسه وخلقاته، وما يعنى له من أفكار ورؤى وخيالات، وما ينفعل به وجدانه من أحداث، وما يعايشه في مختلف جوانب الحياة، فهو يرى للتاريخ في كربلاء جيباً تعلوه غرة ساطعة، هي رمز نهضة الحسين عليه السلام، وللکفاح سجلاً في صفحاته شعله وضاءة هي ذكرى جهاد الحسين عليه السلام، وللمثل العليا دروساً قاسية تستوحى من مصرع الحسين عليه السلام، وللإنسانية الكاملة مبادئ عرفت أصولها بتضحية الحسين عليه السلام:

أبا الأحرار هل أبقيت مجداً عظيماً لم تذلله ارتقاء

وقفت ترى حياض الموت طفلاً تعانقه وتحضنه انحناء

وذقت مرارة الخذلان جهراً فلم تخذل بما خضت الإباء

وقد أبكاك أن تغدوا سبيلاً لمن قتلوك أن يردوا الشقاء

فأية رحمة سكنت جموحاً وأى جموح قلب ما أفاء

فلو أن البطولة من حروف فأنت ملكتها ألفاً لباء(2)

ص: 192

1- (1) إيقاع الفكر، أحمد الواصل / 42.

2- (2) نشيد الوفاء، محمد الحلبي / 2.

يشير الدكتور عبود الحلبي إلى منزلة السيدة زينب عليها السلام بنت أسد الله الغالب على بن أبي طالب عليهما السلام، وقد وصفها بـ (اللبوة) إشارة إلى ما قامت من صروح النهضة الفكرية، ونشرت الوعي الديني في وقت تلبدت فيه أفكار الجماهير وتحدّرت وخفى عليها الواقع، وذلك من جرّاء ما تشهده وسائل الحكم الأموي من أن الأمويين أعلام الإسلام وحماة وقادة، فأفشلت مخططاتهم وأبطلت وسائل إعلامهم، وأبرزت بصورة واقعهم المملوث بالجرائم والموبقات وانتهاك حقوق الإنسان بعد واقعة طف كربلاء:

لابنة الطف في الجنان مقامٌ ليس يرقى إليه إلا الإمام

جدها المصطفى عليه من الل - - - صلاة كثيرة وسلام

إنها لبوة وكان أبوها أسداً في الحروب ليس يضام

جاءت الطفّ كي تشيد صرحاً دونه كل ما بناه الظلام

نصرت يوم كربلاء أخاها بلسان يكلّ عنه الحسام

لم يزل صوتها يرنّ شجياً فسل الشام لو أجابتك شام (1)

تفاعل الشاعر محمد الحلبي بإخلاص مع الإمام الحسين عليه السلام، إذ استطاع أن يجمع الدم والدمع ليصنع ملحمة خالدة ظلت مشاهدتها تتكرر طوال قرون عديدة لتكون سلاحاً يصنع النصر ضد الطغاة، فيهوى لواء الجبن ويرف لواء الحق، إن الأشكال البصرية المتعينة التي يتوسل بها التشكيل اللغوي للقصيدة

ص: 193

1- (1) ديوان في رحاب كربلاء، قصيدة أم المصائب زينب عليها السلام عقيلة بني هاشم، عبود الحلبي / 45.

كأحد استراتيجيات التوصيل والتلقى استجابة لتطور الذائفة الجمالية في ظل معطيات العصر وإنجازاته"⁽¹⁾:

ألفَ عامَ دِماكَ تَهْتَفُ جَهراً أَلْفَ هِيَهاتَ أَنْ تَكُونَ ذَليلاً

أَنْتَ حَرَزْتَنَا فَصارَتْ دِمانا عِنْدَ ذِكرِكَ مِنْ دِماكَ بديلاً

فَتَقَبَّلْ يا رَبُّ مِنا عِزًّا بِمُصابِ أُبكى شِجاءَ الرَّسولِ"⁽²⁾

إن الإمام الحسين رمز للشهادة والانتصار وقد استهتت حولت المكان الى روضة من روضات الجنة يقصدها المسلمون من مختلف بقاع الأرض.

فالكثير من الصور التي رسمها الشاعر محمد الحلبي لا يقصد بها استدرار الدموع بقدر ما كان يعنى بها بثَّ لهيب العزائم في النفوس، فرسم لنا صورة الدماء المتدفقة بأرض الطف بمثابة النور له مصدر ينبثق منه الضوء ليجلو الظلام، فالشكل البصرى خطابي مباشر لأنَّ النور له متطلبات الذكرى:

دماءُ الحُسينِ بأرضِ الطُفوفِ أضاءت لكل الأنام المدى

وحسبى إلى الآن هذى الدماءُ تُتيرُ دِمانا بنورِ الهدى"⁽³⁾

وينادى الشاعر الدكتور عبود الحلبي كربلاء المقدسة بحزن عميق، ودموع همالة ويطلب منها توديع سبط الرسول صلى لله عليه وآله ويؤكد على انتصار الدم على السيف بقوله:

ودعى يا كربلاء سبط الرسول بالبكا حزناً وبالدمع الهمول

ص: 194

1- (1) ينظر: قراءات أسلوبيية في الشعر الحديث، د. محمد عبد المطلب - دراسات أدبية / 35

2- (2) الصرخة، د. محمد الحلبي / 22.

3- (3) دماء الخلود، د. محمد الحلبي / 15.

واهتفى فى كل حين يا حسين يا حسين يا حسين(1)

ويتطلع الشاعر عبود الحلى إلى شموخ كربلاء وعلو شأنها، والبطولات التى حدثت على أرضها، وكيف أصبحت مصدر إلهام وعبر لكل طلاب الحق والعدل وليس عبرة ودمعة فقط بقوله:

الله يا كربلا كم أنت شامخة كل البطولات فى معناك تختصر

أنت الشعار لمن يحمى عقيدته ومنك يا كربلا تستلهم العبر(2)

يرى الشاعر مهدي جناح الكاظمي*(3)(الحسين) هو ثورة والأبعاد السياسية للثورة الإنسانية العظيمة، وللنخبة المثقفة التى تنهل من مدرسة كربلاء العظيمة.

هذى دماؤك يا حسين قوائل السيف مقتول ونحرك قاتل

فى كل أرض كربلاء نزيها منها النفوس الظامئات نواهل(4)

يقترن دور العقيلة زينب عليها السلام فى التاريخ الإسلامى بواقعة كربلاء، فكما أن للحسين عليه السلام حقاً على المسلمين، كان لعقيلة بنى هاشم حق على المسلمين الى يوم الدين، فلولا شهادة الحسين عليه السلام، ولولا وجود من يبلغ رسالته التى أطلقها فى عاشوراء لما كان من بعده قيم إيمانية ولا سلام ولا صلة

ص:195

1- (1) ديوان فى رحاب كربلاء، قصيدة روابى الطف، عبود الحلى / 64.

2- (2) المصدر نفسه / 61.

3- (3) * مهدي جناح الكاظمي: ولد فى مدينة الكاظمية المشرفة سنة 1950 م، له ديوان مطبوع فى سنة 2003 م عنوانه "تعلمت من الحسين".

4- (4) ديوان تعلمت من الحسين، مهدي جناح الكاظمي / 2.

تربط الإنسان بالدين. كما مما لا شك أن للسيدة زينب عليها السلام مزايا وصفات ميزتها عن النساء وجعلتها سيدتهن والنموذج المتعالى فى سماء المجد والبطولة والافتخار، فهى السيدة التى فاقت الفرسان فى عزيمةهم والصناديد فى شكيمتهم، إنها المرأة الحية، اليقظة، التى أبان عن عزمها وصلابتها لحظة بدأ الطغيان، لذا فقد وصفها الشاعر محمد الحلى بأنها كأمها فاطمة الزهراء فصاحةً وكأبيها قوةً وبأساً قائلاً.

إنى لأبكى حينَ أذكرها وما أبكى عليها مُسْفِفاً أرثيها

فهى التى فى كربلاء تكلمتُ بلسانِ فاطمةٍ وبأسِ أبيها

يا دمعُ تبكىنى عُيونُ المصطفى تبكى عليها والذبيحِ أخيها(1)

إن فى هذه الأبيات حضوراً مكانياً بل إن هذا الحضور المكانى كان حضوراً لفاطمة وعلى والمصطفى وزينب والحسين عليهم السلام أجمعين.

لقد أسهمت التحولات الشكلية الشعرية فى تعميق الأسى فى نفس المتلقى المشارك وكان تحول المكان الحسينى عنصراً رئيساً فى بناء القصيدة، وقد تحول الشاعر معها نفسياً تبعاً لأستجابته لمصيبة الإمام الحسين عليه السلام.

يرى الشاعر عبد الباقي عبود* (2) أن العشق الحسينى الذى يعد أطروحة إنسانية للرسالة المحمدية يحمل دلالات التضحية والتفانى فى عاشوراء، وأن عشاق الإمام الحسين عليه السلام يتوافدون عليه من دون انقطاع أو ملل:

ص:196

1- (1) ما رأيت إلا جميلاً، د. محمد الحلى / 24.

2- (2) * عبد الباقي عبود التميمي: شاعر من مواليد العراق البصرة الفاو 1951، الشهادة بكالوريوس اداب قسم اللغة العربية، جامعة البصرة 1973، عضو اتحاد الأدباء والكتاب فى البصرة.

من جرّب العشق فليقبر مواجعه قد ينتهى العشق يطوى دونه زمنا

أما الحسين فعشق دائم أبدا يلازم القلب والأمشاج والبدنا

يكفيك أن لنا فى حبه عبقاً ما أن تذوب به أرواحنا سخنا

يكفيك ما ركدت أقدامنا عجزاً صبّ المسير على إيقاعها شجنا

يا درّ من تخذوا لألاء قبته رغم الردى أملا ما فارق المحنا

كلّ الملايين تمشى غير عابئة بالحاقدين وما قد لملموا فتنا(1)

وقد لاحظنا فى هذا الشكل الشعرى التقليدى وهو المقفى التزام الشاعر نهج سابقه فى التعبير عن تحولات المكان الحسينى الطاهر، ولكن الاستقرار والديمومة إلى ذلك المكان المقدس الذى أصبح مهوى للأفئدة.

لابد أن تتطرق إلى الأشكال الشعرية وتحولاتها المكانية والفنية وأن القصيدة المقفاة قصيدة منبرية خطابية مباشرة، فهى الملائمة لمخاطبة جموع المعزين بمصاب أبى الأحرار عليه السلام، وهذا لا يعنى قصور الفنون الأخرى، فلكل شاعر شكله الإبداعى للتعبير عن تحولات المكان الحسينى التى كانت فى كل تطوراتها إيجابية.

ص:197

1- (1) تحت ظلال المئذنة، عبد الباقي عبود التميمي / 56.

المبحث الثاني: الشكل الشعري الحر (قصيدة التفعيلة)

إن التجديد في الشعر ظاهرة طبيعية تطورية في كل مكان وزمان، وقد عرف الشعر العربي في تاريخه الطويل مظاهر تجديدية كثيرة بدءاً من بشار بن برد الذي كان آخر القدماء وأول المحدثين إلى أبي نواس الذي تمرد على نهج القصيدة ثم كانت ثورة أبي تمام الفعلية على (عمود الشعر) (1)، وصولاً إلى العصر الحديث حيث مرت القصيدة العربية بعدد من التغيرات عند عدد من الشعراء العرب منهم بدر شاكر السياب ونازك الملائكة فيما عرف بعد ذلك بالشعر الحر الذي أخذ مساحة واسعة من الانتشار في منتصف القرن العشرين الذي اصطلح عليه شعر التفعيلة فيما بعد هو يخضع في الواقع لقيود الشعر ويسير الشعراء في نظم أبياته على بحور الشعر ولكن ليس بالطريقة المألوفة نفسها، ففيه يكتفى الشعراء باستعمال تفعيلة واحدة غالباً... وهذا معناه الاكتفاء بالبحور الصافية وهي البحور التي ينتج وزنها عن تكرار تفعيلة واحدة. وأهم قصيدة ظهرت حينها في شعر التفعيلة العربية هي قصيدة (الكوليرا) لنازك الملائكة وكانت كما يقال هي

ص:198

1- (1) ينظر: حركة التطور والتجديد في الشعر العراقي الحديث، عربية توفيق لازم / 30.

القصيدية الأولى في هذا النوع من الشعر، ويقول البعض إن الشاعر العراقي بدر شاكر السياب هو أول من ابتدع أشكالاً جديدة في الشعر العربي بقصيدته (هل كان حباً) التي نشرت في ديوانه (أزهار ذابلة) وقد صدر هذا الديوان عام 1947 م وهو العام نفسه الذي صدر فيه ديوان نازك (شظايا ورماد) وفيه عدد من قصائدها التي سمتها قصائد حرة(1).

ولا يعتبر الشعر الحر (التفعيلة) ابناً عاصياً للشعر العمودي التقليدي؛ وإنما هو شعر يبحث عن التجديد والتغيير من دون الخروج عن وصاية الأب الأكبر وهو الشعر العربي التقليدي بأوزانه الثابتة وقافيته الواحدة ومعانيه المعروفة ورواده أمثال السياب، ونازك، البياتي، وبلند الحيدري، وأمل دنقل وغيرهم(2).

وفي الواقع فإن لكل قصيدة جمالها وقيمتها الأدبية سواء أكانت كتبت على النهج التقليدي كقصائد المتنبي والمعري وأحمد شوقي وغيرهم من شعراء العربية العظام أم كتبت بالشكل الشعري الجديد الذي يناسب إيقاع هذا العصر ومتطلباته، وتبقى للمعاني الرفيعة وحسن اختيار الوزن والبحر الشعري المناسب والألفاظ الجيدة والجميلة التي تناسب المعنى وتوضحه أهمية قصوى في تحديد مدى جمال القصيدة وشعرية قائلها...(3).

والشعر الحر يعتبر أحد أفضل أنواع الأدب الحديث وأنواع الشعر المستحدثة... فهو الأكثر شيوعاً وتلقياً من بعد الشعر العمودي المقفى، ويتعمد على الاسترسال والإنسيابية في الكتابة فلا يلتزم بأحد البحور العربية المعروفة،

ص:199

1- (1) ينظر: ديوان أزهار ذابلة، بدر شاكر السياب / 22.

2- (2) ينظر: معالم العروض والقافية، للدكتور عمر الأسعد / 123.

3- (3) ينظر: الصراع بين القديم والجديد في الشعر العربي، محمد حسين الأعرجي / 29.

وإن كان يلتزم بوحدة التفعيلة.. ونستطيع الاستدلال على النص التفعيلي من خلال قراءته وهو ما سماه الرواد بالشعر الحر، مع أنه شعر يعتمد على التفعيلة، كأساس عروضي للقصيد إلا أنه لا يتقيد بعدد من التفعيلات في السطر الواحد، فالسطر قد يكون فيه تفعيلة واحدة أو أكثر، وربما جمع هذا النوع من الشعر، أوزاناً وقوافي مختلفة، أضف إلى ذلك، أن شعر التفعيلة لا يلتزم بروي ثابت بالقصيدة كلها، لأنّ هذا النوع من الشعر، لا يعتمد على استقلال البيت، بل هو يخرج عن مبدأ تساوي الأسطر. ولا يتبع الشاعر القواعد التقليدية لكتابة الشعر وإنما يكون حراً في الكتابة، فلا يتقيد الشاعر ببحر واحد أو قافية واحدة أو إيقاع واحد(1).

ويظهر الشعر الحر، بدأ الشعراء يكتبون على نهج جديد باستخدامهم أعداداً غير منتظمة من المقاطع في البيت الواحد وقافية غير موحدة وأوزاناً متداخلة ونهايات مختلفة الإيقاع في الأسطر. ولكن ليس الشعر الحر حراً من كل قيد، وإنما يستخدم فنوناً لغوية أساسية مثل تكرار الحرف الواحد وتكرار الكلمات.

وقد استعمل الشاعر العراقي المعاصر هذا الشكل في كتابة القصيدة التي تناولت تحولات المكان الحسيني بشكل بصرى حديث.

يا ساداتي

شواهد تلك الرماح

رجالهم

تدحرج الرؤوس في الأزقة

ص: 200

فاليوم كان البارحة

فاليوم كان البارحة(1)

وقوله:

مولاتي

إنّ الله..

إنّ البيت..

إنّ الأهل..

منجاة

لا بل مرسى لسفينة نوح والربان(2)

فالشكل البصرى كان مدرجاً ومنحدرًا حتى الوصول إلى النتيجة النهائية، إن الإمام الحسين عليه السلام هو سفينة النجاة. وقد كانت أوتار الشاعر طالب الحيدرى الصوتية تهتز طرباً لغناء نشيد الإمام الحسين عليه السلام، الذى ما فتئت دماؤه تتدفق عطاءً فاتحة ذراعها فى وجوه الظلم والبغى حتى ترديها، وترسم للشعوب طريق الخلاص، كما فى قوله:

يا حسين

يصرخ كل الناس

يا حسين

ص:201

1- (1) منامات مستيقظة، قراءة فى منامات موحشة، د. فليح الركابى / 27.

2- (2) المصدر نفسه، منام من كتب التاريخ المحجوبة / 35.

يصرخ حتى الصخر

يا حسين

تصاعد الأصوات للسماء

شاكية باكية حمراء

كأنها الإعصار

وكل حرف نابتاً مسمار

في قدمي جبار

لابد أن تنهار

أرائك قامت على الأشلاء

سابحة في برك الدماء

بفضل عاشوراء

بفضل ما قدمه الحسين(1)

الملاحظ أن تحولات المكان الحسيني في الشعر العراقي المعاصر خضعت لرؤية الشاعر الذي أخذ يكتب بأشكال حديثة، وأن هذا اللون من الشعر لم يقف عائقاً أمام المشهد الكربلائي أو الفكر الحسيني والتذكير بثورته العظيمة، بل إنه كان درامياً في تقديم ذلك الحدث الدراماتيكي وهو ثورة الإمام الحسين عليه السلام.

استوحى الشاعر حسب الشيخ جعفر من حادثة الطف مادة إلهامه وطاقة عاطفته فصاغ منها صوراً جديدة على نسق المناخ الشعري التجديدي الذي مثل

ص: 202

ثمرة الشعر العربي الموروث، ويمثل هذا اللون في شعره صدىً لاستجابة الشاعر لمؤثرات البيئة من حوله فهو يعبر بأقصى عاطفة ما تلقاه ذهنه وهو صغير من قصص الطف، فقد حملت قصيدته (الصخر والندى) إحساساً مشبعاً بمؤثرات البيئة الشيعية وعبرت عن مدى تأثره بها، إذ اخترن الشاعر الذى ولد ونشأ فى مدينة العمارة، فى وجدانه تلك المؤثرات للموروث الشيعى الراسخ والممتد والذى تبلورت حوله فى الضمير الشعبى كافة مشاعر التظلم والبطولة والوفاء والثبات والفداء(1). وفى هذه القصيدة يصور لنا استشهاد الإمام الحسين عليه السلام على أرض كربلاء هو رمز لكل شهيد فى سبيل قضية نبيلة حيث أصبح راية تلتفت حولها الجموع، حينما استقر به المطاف وبشكل بصرى حديث على شكل القصيدة الحرة:

أُثخنتُ فى مشتجر النبالِ

فأدركونى، قطعوا أوصالى

وعلقوا رأسى على أسنة العوالى

ياصيحة البحر، وياعواصف الرمال

غطى جبين الشرق بالسحاب الثقال

وأغرقى جوع الثرى ولوعة التلال

وأنتى قواطع النصال

يقطف منها غاية الآمال

فتى بنيران الحروب صال(2)

ص: 203

1- (1) ملامح كربلاء فى شعر حسب الشيخ جعفر، على حسين يوسف، صحيفة الهدى / 5.

2- (2) الصخر والندى حسب الشيخ جعفر / 181.

يتعاضم تشبث الشاعر بالصورة على قدر تعاضم ضغط المأساة على وجدانه وإحساسه ليمنحها بعداً أعمق من أبعادها التراجيدية فيرسم صورة الحزن المقدس ويوحد نفسه مع الصورة ليلبى نزوعه النفسى الملح الى أن يكون حاضراً ويتحول صوت الشاعر الى أنين هادر وسط الصحراء، وسط النبال والسيوف ليمتد الى أعماق الوجدان.

لا شك أن الأديب لا يريد العبث بمشاعر الناس وعواطفهم بل يريد تقديم رسالة إليهم عبر الكلام المؤثر والنظم الجميل، وهو بذلك يرى نفسه مسؤولاً أمام كل حركة يقوم بها ليتطبع السامع أو القارئ بتلك المفاهيم التي يطرحها الأديب الشاعر ليخلق منه إنساناً كما يملى عليه ضميره وإلا فإن لم يكن يهدف به أمراً فهو عبث محض بل هو من لهو الحديث الذي يرفضه المثقف وإن كان كلاماً معسولاً يحتوى على الشر فهو السم المعسول والشعر الحرام وهو الانحراف والتأمر والخيانة:

أعذرينى كربلاء...

فأنا الملهم... لكنى تلكأت بوصف الفاجعة

أعذرينى كربلاء...

فجراحات الضحايا... واستغاثات السبايا...

قطعت وحى القوافى الدامعة

أعذرينى...

فدموعى...

أغرقت قرطاس شعرى...

لست أدرى...

ص:204

كيف أدنو من حدود المجد في أرض الحسين؟

يا رمال الطف قولى...

سامحيني...

أعذريني... (1)

في هجير كربلاء نادى الإمام الحسين عليه السلام بالنصرة وألقى الحجّة على الناس كل الناس: "ألا هل من ناصر ينصرني" (2)، وصدى هذا النداء الذى انطلق من حنجرة الحق باق، لأنّ نصرته الحسين عليه السلام هي نصرته الرسالة المحمدية الخاتمة مادامت السماوات والأرض، وهذا النداء هو الذى شدّ الشاعر عبد الحسين ابن يوسف المطلبى * (3) لكتابة قصائده في الموسوعة الحسينية وعقد جمانها الإمام الحسين عليه السلام، وهو يتذكر قطرات الدم التي أريقت على صعيد كربلاء عام 61 هجرية، فيقول:

وحروفٍ بعضها قد جُعلت

جسداً للنور والبعضُ رداءً

قطرةً من دَمِهِ في كربلاء

هي حزمٌ هي عزمٌ ومضاءً

ص: 205

1- (1) ديوان الشعر الحر، زكى الياصرى النجفى / 32.

2- (2) كل ما في الكون يبكى الحسين، نزيه قميحا / 45.

3- (3) * الشاعر عبد الحسين بن يوسف المطلبى: المولود في ناحية المشرح في محافظة العمارة في العام 1937 م في أسرة أدبية وعلمية، وسكن بغداد منذ شبابه، فأنشدها فيها ست قصائد من الشعر العمودي والحر، واختار لإحداها عنوان "أنت السفينة والبحار"، فكان هو عنوان الديوان الذى صدر عن بيت العلم للنابهين في بيروت.

جسدِ الثائرِ والموتِ بقاء

يتغنى المطلبي بالموسوعة الحسينية التي "يعجز حتى الخيال على أن يحيط بها وصفاً وتصويراً"⁽¹⁾، وفي القطعة الثالثة التي حملت عنوان الديوان، يقول المطلبي من الشعر الحر:

أنتِ السفينة والبحار

ربّانها جسدٌ عنيتُ الرمحَ

تُحمَلُ فوقَه الشمسُ المضيئة من دم

حتى النشور⁽²⁾

لقد طيف بزینب علیها السلام والسبايا فی مدن كثيرة یقودهم الرأس المقدس إلى أن وصلوا دمشق الشام فی رحلة شاقّة مضنیة، وهناك بدأت فصول أخرى من الترویع والشّماتة بأهل البيت الطاهر، وعاشت السيدة زینب علیها السلام فصولاً من الترویع والترهیب والتهدید من حرق الخيام وسلبها، وترویع النساء وجلدها وفرار الأطفال فی البیداء.

إن التحول البصری فی قصیة الشاعر عبد الرزاق عبد الواحد یمیل إلى تحول درامی، وخطاب تمثیلی مثير، لأنّ الحدث جسیم ویفترض أن النص یمثل بمستوى الحدث.

صوت ملء بالرهبة یمسح من عمق المسرح وكأنه آتٍ من المجهول

ص:206

1- (1) موسیقی الشعر العربی، مشروع دراسة علمية، د. شكري محمد عیاد/18.

2- (2) دیوان أنتِ السفينة والبحار، عبد الحسين بن يوسف المطلبي / 35.

سيقتل الحسين

وسوف تبقى هذه العلامة.

كل السيوف الوالغات في دمه

كل الرمال الشاربات من دمه.

قانية تبقى الى القيامة.

حسين.... حسين

يا موثق اليدين

يا مطلق اليدين

بعدك سوف تطفأ الشموع

وتكثر الدموع

وكلنا نعري

وكلنا نجوع

يا حسين.... يا حسين(1)

لقد استوعب الشعر الحر تحولات المكان الحسيني السلبية والإيجابية وعبر بصدق عن مشاعر قائله، فضلاً عن ذلك أن الحداثة لم تكن عائقاً بوجه استذكار الإمام، وتصوير أماكن استشهاده وهجوم الأعداء على مخيمه، وراثته فيما بعد والتغنى بأمجاده كونه رمزاً إسلامياً دافع عن الدين المحمدي الأصيل، وكان مثلاً يحتذى به العالم.

ص: 207

المبحث الثالث: الشكل الشعري (قصيدة النثر)

إن مصطلح (قصيدة النثر) يحمل تحديات حقيقية، وإشكاليات متعددة تنبع من طبيعة تكوينها وجوهرها، ومن ثم الانطلاق من خارج ذاته. كل ذلك عائد لاختلاف الرؤية النقدية تجاه مفهومات أدبية مثل (القصيدة، الشعر، النثر) بدءاً من أصولها الأولى وعبر صيرورتها في البيئة التي أنتجتها تحت مؤثرات كثيرة ومتنوعة.

فالنظرة إلى مدلولاتها الإصطلاحية في بيئاتها تختلف بين الغرب وأمريكا من جهة، والعرب من جهة أخرى عبر تاريخ الأدب لكليهما. فمن البديهي أن يكون لكل من الطرفين آراؤه، وطروحاته النقدية، وتصنيفاته الأدبية التي قد تتفق مع الطرف الآخر، وتخالفه في عدد من المواضيع بسبب البعد الثقافي كتضارب العوامل النفسية (السيكولوجية) والفكرية (الأيولوجية) والاجتماعية (السوسولوجية) لدى أدباء الطرفين ودارسيهم. فضلاً عن مصادر الثقافات في مدياتها وانعكاساتها على المنتج الأدبي لكل منهما وغيرها.

ولكون قصيدة النثر دخلت بقوة داخل منظومة القصيدة العربية (كتلة بنائية) على الرغم من أن الشعر مقومات خاصة مجازية، النثر (تراكيب
تقريرية مباشرة)

كان لزاماً عليها احتلال موقع يؤهلها لتكون منجزاً أدبياً له القدرة على نقل التجربة الحياتية إلى تجربة شعورية فعالة. في الوقت الذي تشير فيه إلى أدواتها العاملة في تحريك التجربة الأدبية وفق مواصفات خاصة بها. ومن أجل الوقوف على وجودها كمصطلح أدبي، ينبغي الرجوع إلى البيئة التي ولدت فيها ثم انتقالاتها إلى بيئات أخرى، مع تباينات الرؤية النقدية إليها خلال انبثاقها الزمني. ففي القرون الوسطى كانت فرنسا الأرض الصالحة التي أنبتت قصيدة النثر وتفتحت في روضة آدابها، بعد أن وجدت أدباء امتلكوا أذهاناً تؤرقها الرغبة شعورياً أو لاشعورياً في استخلاص شكل جديد للشعر(1).

إن البدايات الحقيقية لقصيدة النثر تعنى بالضرورة بداية المصطلح، إلا أن بعض الباحثين يضع لها بداية تسبق بودلير من منطلق أن (قصيدة النثر قد أهملت جهود الشعراء الألمان من أمثال " كيسنر " Gessner و" نوفاليس " Novalis و" هولدرلين " Holdriilin في مطلع القرن التاسع عشر وقبل بودلير، تلك القصائد الثرية التي كتبها ستيفان جورج وريلكة)(2).

أما مصطلح قصيدة النثر وتطوره عند العرب، فإنه واجه مقاومة شديدة لرفضه عند عدد من الباحثين والأدباء، بمقابل اندفاع شديد لتقبله، والتبشير به عند آخرين.

فقد استطاعت قصيدة النثر العربية أن تؤكد حضورها الفعال في الأدب

ص: 209

1- (1) ينظر: قصيدة النثر من بودلير إلى أيامنا، سوزان بيرنار، ترجمة د. زهير مجيد مغامس، مراجعة د. علي جواد الطاهر، دار المأمون، 27/1993.

2- (2) قصيدة النثر في الأدب الإنكليزي، د. عبد الستار جواد، مجلة الأديب المعاصر، الاتحاد العام للأدباء والكتاب في القطر العراقي، العدد 41، كانون الثاني 1990/46.

العربي منذ نهاية الخمسينات من القرن المنصرم (وكان ذلك في لبنان على يد جماعة من مجلة (شعر) اللبنانية وكان تعاطى قصيدة النثر على خجل في العراق ومصر)⁽¹⁾.

فالقصيد العربية مثلما متفق عليه هي مجموعة من الأبيات الشعرية التي تزيد على سبعة أبيات تنظم أو تكتب على هيئة جزأين، يسمى الأول الصدر والثاني العجز، وتنتهي بحرف روى واحد متماثل في كل أبيات القصيدة أطلق عليه القافية.

وهذا الشكل الخارجى للقصيدة العربية لا يصلح كنظام لكتابة قصيدة النثر، وهي إشكالية ولدت ضغطاً شكلياً أخرج مناصري قصيدة النثر، وارتاح له رافضوها، أى أن ارتباط مفهوم القصيدة العربية بالشعر قادها إلى إشكالية أخرى تتعلق بمفهوم الشعر عند العرب فهو (قول موزون مقفى يدل على معنى)⁽²⁾ وفيه صورة. فإذا ارتبطت القصيدة بالشعر فإنها بالنتيجة ستدل على الوزن والقافية، وبالتالي سيكون النثر هو القول غير الموزون وغير المقفى، على نظرية أن النثر عكس الشعر. فكيف سيكون مصطلح قصيدة النثر إذا ما كانت القصيدة دالة على الشعر باحتوائه الوزن في حين يخلو منه النثر؟ وهو ما دفع نازك الملائكة إلى إظهار احتجاجها الصريح على استعمال هذا المصطلح فى الشعرية العربية عندما ذكرت (إن القصيدة إما تكون قصيدة وهي إذ ذاك موزونة وليست نثراً، وإما أن تكون نثراً فهي إذن ليست قصيدة. فما معنى قولهم (قصيدة النثر) إذن؟)⁽³⁾. وهي

ص: 210

1- (1) قصيدة النثر العربية النشأة والمرجعيات اللغوية، د. عادل نذير بيرى الحسانى، مجلة أهل البيت، كربلاء، العدد الخامس، 5/2007.

2- (2) نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الغانجى مصر مكتبة المشنى بغداد/15.

3- (3) قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، مكتبة بغداد، ط 2، 130/1965.

الحجة التي تمسك بها كل منا هضى قصيدة النثر.

فقصيدة النثر العربية لم تكن بدعة ظهرت للوجود، وإنما هى مصطلح غربى على وفق رؤى عربية جديدة خاصة بها بواسطة شعرائها ودارسيها (وهذا ما يجعل مستقبلها رهناً بثقافة ووعى حملة ألويتها)(1). فمصطلح قصيدة النثر يعنى كما نراه أنّها قصيدة شعرية تحمل خصائص فنية وأنماطاً، واتجاهات، ومضامين قد لا تستطيع حملها القصيدة العمودية، أو قصيدة الشعر الحر (التفعيلة)، مما ولد صعوبة لدى غالبية الشعراء (إذ لا يمكن إلا لمن امتلك ملكة خاصة وثقافة حقيقية وموارد دقيقة أن ينجح فى تمثيلها، وهو ما يفسر فشل أفواج من الشعراء التي استلهمت التوجه لكتابة هذا النمط الشعري)(2) فهى كتابة على درجة (الاختراق) الحدود بينها وألغى أسماءها، وألغى التعريفات بها.. هذه البقعة من الممارسة الخيالية الشعرية تجعل من أية ممارسة حرة شعراً، حتى لو كان هذا الشعر بدون شروطه المألوفة)(3).

ويمكن القول إنّ كل الآراء التي قيلت فى مصطلح قصيدة النثر ومفهومه، أنه مصطلح مختص بالشعر، إذ أن (قصيدة النثر هى شكل من أشكال الشعر الأخرى كالقصيدة العمودية وقصيدة التفعيلة، وتشارك قصيدة النثر مع هذه الأشكال باحتوائها على المقومات الأساسية للشعر من لغة، وإيقاع، وصورة، ومضمون، لكنها تختلف عنه بحريتها الواسعة فى كيفية استخدامها لتلك المقومات وتوظيفها وتتطرق فى تفسير مدلولها الفنى الاصطلاحى عبر طرق

ص:211

1- (1) قصيدة النثر ومغامرة الحرية، (شبكة المعلومات، مصدر سابق).

2- (2) الجنس الأدبى لقصيدة النثر فى ضوء اللغة والإيقاع، د. عادل نذير بير /76.

3- (3) قصيدة النثر بين الذائقة الفنية والرؤية الأيدلوجية (شبكة المعلومات، مصدر سابق)

ووسائل جديدة(1).

حينما رفعت قبعتي

تحت تلك القباب

وجدت صهوة المجد في كربلاء

تشرق في كل المغارب

أو تغرب في كل المشارق

تعانق السماء

وتهدى إلى سراط قويم

إن النهار دائم في ذلك المقام

صحوة.. وخيال.. وحقبة

وبقايا صليل سيوف

وجزّ رؤوس

ومسيل دماء

لكنما يشرق الحسين من بعيد كأنه الألق(2)

فالشاعر استخدم شكلاً بصرياً حديثاً وهو قصيدة النثر ليبين لنا أن تحولات المكان كانت من حال إلى آخر.

وهناك استعمال آخر في قصيدة النثر التسعينية يتعين فيه المكان وما جرى

ص:212

1- (1) قصيدة النثر، قصيدة مستقبلية دراسة واستنتاجات، صلاح فائق / 79.

2- (2) خدوش في ذاكرة الزمن، د. فليح الركابي / 16.

عليه من وقائع، وأحداث حركة زمانية أخرى ورافد معرفي فكري كما في (1) قول الشاعر عماد الحيدري* (2):

(أيها الهائمون...

الوافدون

إلى رائحة من رحيق الذنوب

تملاً قنوطكم

كربلاءؤكم

نامت عليها الحجارة

ولما تزل تستغيث... (3)

إذ إن كربلاء، وما جرى عليها من أحداث دامية تعد معرفة، فتوية، عربية ذات أبعاد فكرية عقائدية يجعل منها الشاعر ديمومة، زمنية، تحركية، متجددة في كل مرحلة، فالمكان الحسيني (كربلاء) لا تعنى مدينة فحسب، وإنما صارت بؤرة متوغلة في ثقافة المجتمع العربي قديمة وحديثه، وفي التطور المعرفي لدى المتلقى. فالشخصية العربية تحمل بعديها الذهني والعاطفي (4).

ص: 213

-
- 1- (1) قصيدة النثر التسعينية في العراق أنماطها، اتجاهاتها وخصائصها، عماد كاظم خضير عباس العبيدي/ 168.
 - 2- (2) * عماد الحيدري: مواليد 1970 محافظة النجف الأشرف، يعمل معلماً جامعياً في مديرية تربية النجف، صدرت له الدواوين الآتية (صلاة الهجوع)، (أفياء تعرف ماذا تحب)، (يحاورها وقد دعتها السماء)، وله كتاب في التاريخ بعنوان (من ذاكرة الحيرة).
 - 3- (3) ديوان أفياء لا تحب الرماد، عماد الحيدري، مطبعة الأدباء في النجف الأشرف، 80/1999.
 - 4- (4) قصيدة النثر التسعينية في العراق أنماطها، اتجاهاتها وخصائصها، عماد كاظم خضير عباس العبيدي/ 168.

فالشاعر يتوجه إلى تحريك المشاعر من خلال أرض كربلاء (مكان). وبذلك صار توجه النص نحو استمالة الجوانب الفكرية، والعاطفية بوساطة المكان الذي صار قصداً معرفياً، له ثقله الأساس في بنية النص، وعاملاً موصلاً للتوتر الذي تنشده القصيدة في محاولة لزعة ثواب التلقى.

إن قصيدة النثر فن شعري جسد ملحمة الطف وتحولاتها المكانية بأسلوب بصري يجمع بين الشكل الشعري والشكل النثري، وهذا الفن يتميز بالاختزال والتكثيف.

في قصيدة تترجم حب الشاعرة خلود المطلبي * (1) للإمام الحسين عليه السلام وشوقها لرؤية قبابه الذهبية فكانت أولى قصائدها (حين تغادرنى الروح إليك) تحدثت فيها عن هجرة روحها عبر الأثير إلى حيث الطف والتاريخ.. إلى حيث ترقد روح الإسلام مذبوحة بيد أبناء الطلقاء:

آهات الروح تغادر عجلي

تبحث عن تسبيح ملاك

عبر مسافات البعد

في أرجاء محيطات الأرض

ومن خلال أرض كربلاء كانت تخاطب قلبها العاشق للحسين وتحثه على تحدى العقبات تحمل المصاعب:

ص:214

1- (1) * خلود المطلبي شاعرة و مترجمة عراقية ولدت في ميسان، اتمز امير تحت سماء لندن (مجموعة شعرية) و (تحت سماء الثلج) (مجموعة شعرية) و (كتاب لوحة اروك) (مختارات ادبية عراقية بالانكليزية) كما لها عدة مخطوطات في الشعر والترجمة. وترجمت خلود المطلبي لعشرات الادباء العراقيين بما فيهم معظم الادباء الكبار.

يا هذا القلب العاشق أرض الطف

تسلق أقمار خشوع الليل

حيث ضجيج الحرب الدائرة

قرب ضريح ابن الزهراء

ثم تصف لنا كيف أن دموعها العاصفة بالحزن وروحها الولهانة قد غادرت كربلاء إلى حيث جنائن الحسين الخضراء بعد أن تعذر عليها
القدوم بجسدها لتلثم ثراها الطاهر:

فالدمع العاصف بالحزن

والممزوج به جلاير الشوق

قد غادرني إليك

....

تغادرني الروحُ

لجنائتك الخضراء(1)

يصور الشاعر مشتاق عباس معن * (2) عظمة ذبيح الحرية.. الإمام الحسين عليه السلام بقصيدته (إلى المذبوح بحدّ الفرات)، إن مقدار
الاكتناز الفني الذي يحفل بنص الشاعر متأّت من قدرته على تكثيف الرؤى المستوحاة من شخصية الإمام

ص: 215

1- (1) حين تغادرني الروح إليك، خلود المطلبي / 37.

2- (2) * مشتاق عباس معن: شاعر عراقي، حاصل على الدكتوراه في آداب اللغة العربية، شاعر تسعيني، له أربع مجاميع شعرية: ما تبقى
من أنين الولوج / بغداد 1997 م، تجاعيد / اليمن 2003 م، تباريح رقمية لسيرة بعضها زرق / تفاعلية رقمية 2007 م، وطن بطعم الجرح /
بغداد 2013 م.

الحسين عليه السلام.

لَمَّا أَشَحَّتْ عَيْونَكَ

وَبَصُرْتَ كَفَّكَ فِي الْمَدَى

تَلْتَفُّ حَوْلَ رَمَاجِهِمْ... لَتَحُونُكَ

صَافِحَتْ كَفَّ الْمَوْتِ

... عَلَّ دِمَاكَ

تُورِقُ فِي الثَّرَى... لَتَكُونُكَ

... عَلَّ دِمَاكَ

تُوقِظُ فِي الْفَصَا عِرْقًا

لِيَنْبُضَ فِي فُوَادِ الرِّيحِ

صَاعِقَةً... تَكُونُكَ

...

يَا سِيدَى أَسْبِلْ جُفُونَكَ

لَنْ يَشْعَلُوا أَحَدًا قَهْمُ

... هَلْ يَتَّبِعُونَكَ (1)

أما الشاعر طالب عبد العزيز * (2) فبدأ بناء المفارقة وهي أن أدخل واقعة تاريخية

ص: 216

1- (1) ال الشعريّة الورقية ر الكاملة، (إلى المذبوح بحد الفرات) ق س ن/ 32.

2- (2) * طالب عبد العزيز عبد الله: شاعر عراقي ولد في ابي الخصيب بالبصرة عام 1953 ويعد من اهم الشعراء العراقيين من جيل ثمانينات القرن العشرين إذ برز في كتابة قصيدة النثر ويعد أحد العلامات الفارقة في تجربة الشعر العراقي. ويكيبيديا، الموسوعة الحرة (النت).

بارزة (واقعة الطف)، حين حصر الشاعر شخصية الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه بين صباح عاشوراء وظهيرتها، ثم يبرز ساحة الحرب التي تجسد طرفي المعركة، فالجانب الحسيني هو الإمام وابنه الصبي عليهما السلام، والجانب الآخر الذي تمثله سيوف الأعداء المشرعة، والرماح التي تحتطب المنايا في العراء:

إنكسار الصباح على الفرات"

والشمس سطر فسيفساء لم يتهشم"

"ولما كانت الشمس تذبل آخر الرمل

كرهت دمي

فجعلت قلبي على راحة سيفي

ومضيت إليهم"

"ولما بلغت جراح المائة

آويت إلى عمي

كى أموت أمامه"⁽¹⁾

فى كل زمان واقعة طف كربلاء، طلّت فى أرضها سحابة الدم الحر الشهيد فأنبتت أجيال الشهداء الثوار، وها هى أصداء الصوت الأبي الذى أطلقه الإمام الحسين بن على بن أبى طالب عليهما السلام تتردد فى وادى الطفوف، وتقرع مسامع الأجيال، وتطوف فى ربوع التاريخ إعصاراً يعصف بالطغاة، وبركان دم يهز عروش الظالمين ويوقظ الضمائر الحرة.

ص: 217

1- (1) ديوان مالا يفضحه السراج (على الرمل الآخر)، طالب عبد العزيز / 54.

بعد هذه الدراسة الشاقّة الأليمة في الوقت نفسه، أمّا عن كونها شاقّة؛ فلغزارة ما كتب الشعراء العراقيون المعاصرون عن المكان الحسيني (كربلاء)، وأمّا عن كونها أليمة؛ فلما في شعر الشعراء من تصوير لمشاهد واقعة الطف التي حدثت على أرض كربلاء من قطع الرؤوس وتمثيل في الجثث الطاهرة، وبهذا يكون المكان مركزاً للشعر العراقي المعاصر، وقد توصلت إلى نتائج عدة منها:

1. شغل المكان حيزاً واسعاً عند شعراء المشهد الحسيني حتى أصبح عنصراً فاعلاً فيه.
2. يعد الشعر المعاصر معجماً لألفاظ المكان لكثرة ورودها على ألسنة شعرائه.
3. أثبت البحث أن للمكان الحسيني حضوراً كبيراً عند الشعراء المعاصرين.
4. اتسم المكان الحسيني بأهميته بعد واقعة الطف الأليمة.
5. ظهر من خلال الشعر أن لا فرق بين الحسين وكربلاء، فالذي يذكر كربلاء يعني الحسين والذي يذكر الحسين يعني كربلاء لأنهما مرتبطان ببعضهما،

فقد أحييت كربلاء من خلال الحسين عليه السلام.

6. رحلة كربلاء مع الشعر أو بالأحرى حج الشعر والشعراء إلى كربلاء لم ينقطع رغم سياسات البطش والإرهاب الأموية والعباسية والبعثية، وبقيت كربلاء صرخة مدوية في الضمائر والقلوب.

7. وقد كان للبيئة الكربلائية أثر في معاني المكان الحسيني، وأفكاره، فالمآتم الحسينية، وحشود الزائرين على المراقد المقدسة أججت في الشاعر مشاعر الولاء والحزن على مصائب آل البيت، فتميزت أشعارهم بالصدق بالعاطفة المتوقدة الجياشة.

8. ظهر أن الذي سقط في المكان الحسيني (كربلاء) هو جسد الإمام الحسين عليه السلام، ولكن الذي انبعث وانطلق من أرض كربلاء هي قضية الإمام الحسين عليه السلام لذا فالأرض تقديس لقداسة من صرع فيها.

9. لم تقف المكونات الأساسية في شعر المكان الحسيني سبباً أساسياً في خلود هذه القصائد، وإنما مهارة الشاعر المعاصر وقدرته على استيعاب الأساليب الفنية، كلُّها أدوات تنم عن التطور والرقى الذي وصل إليه الشعر المعاصر.

10. فقد استعمل شعراؤنا الصورة البصرية مع الصورة السمعية بنسبٍ متفاوتةٍ، وهذا يكشف عن أن الشاعر لا تكفيه الصورة البصرية، فيحتاج إلى بقية أنواع الصور ليكشف للمتلقى الملابس والافتراءات التي تحدث عن طريق عملية السمع، فهذه الصورة تنقل المتلقى إلى نبض الحقيقة، مقارنة بالصورة البصرية، لأنَّ الجيل الذي نشأ فيه الشاعر لم يعاصر أحد المعصومين، لذلك يكون اعتماده على السماع والأحاديث التي تُنقل عن أئمة آل البيت عليهم السلام، ويكمن

سبب أستعمال الصورة اللونية هو إدخال الحزن على المتلقى فى إشارة مشاعره المرهفة، فهو ينقل السامع إلى المأساة بألوانها، والحقيقة بأجوانها.

وأخيراً ظهر أن الشعر الحسينى متدفق وحيّ لأنّ الموضوع متدفق ومتجدد وبالإمكان دراسة الزمن أو أى تحولات أخرى فيه. لذلك أرى أن توجه الجهود إلى مزيد من الدراسات لوضع اليد على ما يخر به المكان الحسينى من قيم موضوعية وفنية.

ص: 220

المحتويات

الإهداء 6

مقدمة اللجنة العلمية 7

المقدمة 10

التمهيد

أهمية المكان في النص الأدبي

مفهوم المكان 15

المكان لغةً 18

المكان اصطلاحاً 19

المكان عند الشعراء العرب 22

المكان عند الشعراء المحدثين 24

تحولات شكل المكان من طارد الى جاذب 30

ص: 221

الفصل الأول

كربلاء مكان طارد

اسم (كربلاء).. الأصل والإشتقاق 38

معاني كربلاء 43

المبحث الأول: أرض كربلاء وقداسة تربتها عند الشعراء 50

المبحث الثاني: تحولات المكان الحسيني (الكربلائي) في الشعر العراقي 58

الفصل الثاني

كربلاء المكان الحسيني الجاذب

مدخل 95

المبحث الأول: كربلاء روضة من رياض الجنة 104

المبحث الثاني: كربلاء قبلة انظار العالم 112

المبحث الثالث: كربلاء مكان حسيني مزدهر 120

المبحث الرابع: المكان الحسيني رمزاً ثورياً 126

الفصل الثالث

تحولات المكان الحسيني بعد واقعة الطف

المبحث الأول: الدخول الى الكوفة 140

الكوفة اسمها وموقعها 140

سكان الكوفة الأوائل 142

المبحث الثاني: سببايا آل محمد صلى الله عليه وآله في الكوفة 146

الدخول إلى الكوفة 147

المبحث الثالث: الشام مكان حسيني طارد 156

وصول سبايا الإمام الحسين عليه السلام إلى الشام 156

قصر يزيد (الشام مكان طارد) 159

خربة الشام مكان طارد 161

الفصل الرابع

التشكيل البصري في تحولات المكان في الشعر الحسيني

مدخل 179

المبحث الأول: الشكل الشعري المقفى 184

عمود الشعر لغةً واصطلاحاً 186

المبحث الثاني: الشكل الشعري الحر (قصيدة التفعيلة) 198

المبحث الثالث: الشكل الشعري (قصيدة النثر) 208

الخاتمة 218

ص: 223

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم
جَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ
(التوبة : 41)

منذ عدة سنوات حتى الآن ، يقوم مركز القائمة لأبحاث الكمبيوتر بإنتاج برامج الهاتف المحمول والمكتبات الرقمية وتقديمها مجاناً. يحظى هذا المركز بشعبية كبيرة ويدعمه الهدايا والندور والأوقاف وتخصيص النصيب المبارك للإمام عليه السلام. لمزيد من الخدمة ، يمكنك أيضاً الانضمام إلى الأشخاص الخيريين في المركز أينما كنت.

هل تعلم أن ليس كل مال يستحق أن ينفق على طريق أهل البيت عليهم السلام؟
ولن ينال كل شخص هذا النجاح؟
تهانينا لكم.

رقم البطاقة :

6104-3388-0008-7732

رقم حساب بنك ميلا:

9586839652

رقم حساب شيبا:

IR390120020000009586839652

المسمى: (معهد الغيمية لبحوث الحاسوب).

قم بإيداع مبالغ الهدية الخاصة بك.

عنوان المكتب المركزي :

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر أباده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم 129، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي 03134490125

هاتف المكتب في طهران 021 - 88318722

قسم البيع 09132000109 شؤون المستخدمين 09132000109.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
اصهبان
الغمامة

WWW

للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩